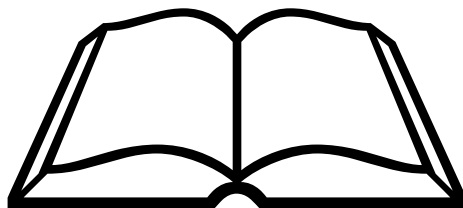


# فتح المُعين في شرح الأربعين

آخر نسخة ١٤٤١هـ

عبد الله محمد الجهنّي



## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مسدي النعم ، ومولي المنن ، وأشهد ألا إله إلا الله المستحق للحمد على الدوام ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خير الأنام ، صلّ اللهم عليه ، وعلى آله وصحبه أفضل أتباع الأنبياء ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم المعاد . أما بعد : فهذا شرح موجز لكتاب ( الأربعين النووية ) للإمام النووي رحمه الله ، وهو كتاب عظيم النفع والفائدة ، حرص العلماء على حفظه ، وشرحه .

وقبل الشروع في شرح هذا الكتاب نذكر نبذة مختصرة عن المصنف ، وعن الكتاب .

### نبذة عن المصنف :

هو أبو زكريا يحيى بن شرف محي الدين النووي .

ولد في قرية ( نوى ) جنوبي دمشق ، وإليها ينسب .

ولد في شهر محرم عام ٦٣١ هـ وتوفي عام ٦٧٦ هـ وعمره ٤٥ سنة .

انصرف إلى طلب العلم منذ نعومة أظفاره ، وكان هذا - بعد عون الله - بتشجيع والده له ، وكان رحمه الله متميزاً بالذكاء والفطنة

والحفظ ، بالإضافة إلى الجد في طلب العلم ، فكان يحضر في اليوم اثنا عشر درساً في علوم متنوعة ، وكان حريصاً على وقته .

وكان رحمه الله زاهداً في الدنيا مقبلاً على الآخرة وما يقرب إليها ، حتى ذكر غير واحد من أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين أن

سبب انتشار كتبه شدة إخلاصه لله عز وجل ، وكان رحمه الله ذا هيبة ووقار ، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر .

قيل عنه : كان أوحده زمانه في العلم والورع والعبادة وخشونة العيش .

وله مصنفات كثيرة في فنون متنوعة من أشهرها كتابه العظيم الكبير ( المجموع شرح المذهب ) مات قبل أن يكمله ، وكذا شرحه

على صحيح مسلم ، وكتاب ( رياض الصالحين ) وغيرها كثير .

قيل : إنه لم يتزوج .

وهو رحمه الله مع هذه المكانة الرفيعة في العلم والعمل إلا أنه كان يؤول في بعض الصفات على غير منهج السلف ، يظهر ذلك في

كتبه خاصة شرحه لصحيح مسلم ، فينبغي التنبيه لذلك عند قراءة كتبه .

غفر الله له ورحمه ، وأسكنه فسيح جناته ، وجزاه عن أمة الإسلام خير الجزاء .

### نبذة عن الكتاب :

هذا الكتاب صغير الحجم كبير النفع ، حرص العلماء على شرحه لما حواه من أصول الدين ، وهو عبارة عن اثنين وأربعين

حديثاً<sup>(١)</sup> من جوامع كلمه ﷺ .

(١) والحق أنه ثلاث وأربعون حديثاً ، لأنه في الحديث السابع والعشرون ذكر حديثين : حديث النواس ، وحديث وابصة .

ويعرف هذا الكتاب بالأربعين النووية ، وذلك أن العرب تحذف الكسر القريب في الأعداد ، أو تضيفه إليها ، ومن أمثلة الإضافة قول : صيام عشر ذي الحجة . مع أنها تسعة أيام .

## سبب تأليف الكتاب :

ورد حديث عن النبي ﷺ : من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء .  
وفي رواية : وكنت له يوم القيامة شفيحاً شهيداً . وفي رواية : قيل له : ادخل من أي أبواب الجنة شئت .  
قال النووي : اتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف وإن كثرت طرقه أ.هـ  
لكن عمل عدد كثير من العلماء بهذا الحديث فجمعوا أربعين حديثاً .  
وأول من جمع ذلك هو عبد الله بن المبارك كما قال النووي ، ومن جمع أيضاً الإمام الآجري ، والدارقطني ، والحاكم ، وأبو نعيم ،  
وأبو عثمان الصابوني ، والبيهقي ، وغيرهم .  
لكن النووي رحمه الله بين في مقدمته أنه لم يُقدم على تأليف الكتاب عملاً بهذا الحديث ، وإنما هو من باب الاقتداء بمن سبقه من  
أهل العلم الذين جمعوا أربعين حديثاً عن النبي ﷺ .

## والذي يميز جمع النووي أمران :

١. صحة الأحاديث ، فقد قال في مقدمته : ثم التزمت في هذه الأربعين أن تكون صحيحة ، ومعظمها في صحيح البخاري  
ومسلم أ.هـ  
وإن كان هناك أحاديث في الكتاب لا تخلو من مقال ، كما يأتي بيانه إن شاء الله .  
ويبلغ عدد الأحاديث التي في الصحيحين أو أحدهما ( ٢٨ ) حديثاً ، أي ما يعادل ثلثي الكتاب .
٢. أن هذه الأحاديث ليست في باب واحد ، وإنما هي في أبواب متفرقة ، في باب الأحكام ، والآداب ، والعقائد ، والجامع  
بينها أنها من جوامع كلمه ﷺ<sup>(١)</sup> .  
وفي الصحيحين : فضلت على الأنبياء بست ... وذكر منها : وأعطيت جوامع الكلم .  
وفي البخاري قال ﷺ : بُعثت بجوامع الكلم .  
وجوامع الكلم هي الكلمات قليلة المبنى كثيرة المعنى ، بحيث تكون هذه الجملة ليست بالطويلة لكنها تحوي معانٍ كثيرة ، وتدخل  
فيها صور عديدة ، كقوله ﷺ : لا ضرر ولا ضرار . وقوله : الدين النصيحة . وقوله : والصلاة نور .  
وهذا هو معنى قوله ﷺ : واختصر لي الحديث اختصاراً .  
قال الزهري كما عند البخاري : جوامع الكلم فيما بلغنا أن الله يجمع له من الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في  
الأمر الواحد والأميرين ونحو ذلك .  
وقال ابن تيمية : والكلمة الجامعة هي القضية الكلية ، والقاعدة العامة التي بعث بها نبينا ﷺ فمن فهم كلمه الجوامع علم اشتغالها  
لعامة الفروع ، وانضباطها بها ، والله أعلم أ.هـ  
ولهذا اعتنى العلماء بعده بهذه الأحاديث فحفظوها ، وعلقوا عليها ، وشرحوها .  
وقد ذكر بعضهم أن لهذا الكتاب أكثر من مئة شرح ، والله أعلم .

(١) قال النووي : ثم من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين ، وبعض في الفروع ، وبعض في الجهاد ، وبعضهم في الزهد ، وبعض في الآداب ، وبعض في الخطب ، وكلها مقاصد  
صالحة رضي الله تعالى عن قاصديها ، وقد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله ، وهي أربعين حديثاً مشتملة على جميع ذلك ، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين ، قد وصفه  
العلماء بأن مدار الإسلام عليه ، أو هو نصف الإسلام ، أو ثلثه ، أو نحو ذلك ، ثم التزمت في هذه الأربعين أن تكون صحيحة ، ومعظمها في صحيح البخاري ومسلم .

## الحديث الأول

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه<sup>(١)</sup> قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

رواه إماما المحدثين : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري ، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري في صحيحيهما اللذين هما أصح الكتب المصنفة .

تخرجه : متفق عليه ، لكنه ليس بهذا السياق الذي ذكره هنا ، وهذا السياق ملفق من عدة روايات<sup>(٢)</sup> .

مكانته : يعتبر هذا الحديث من أعظم الأحاديث النبوية لاشتماله على أمر النية التي يكون بها قبول الأعمال أو ردها .

قال أبو عبيد : ليس في الأحاديث أجمع ، ولا أغنى ، ولا أنفع ، ولا أكثر فائدة منه .

وقال ابن تيمية : وهذا الحديث من أجمع الكلم الجوامع التي بُعث بها .

ولقد اعتنى العلماء بهذا الحديث وصدروا به مصنفاتهم ، كما فعل البخاري وغيره .

قال عبد الرحمن بن مهدي : من أراد أن يصنف كتاباً فليبدأ بحديث الأعمال بالنيات<sup>(٣)</sup> .

وقال أيضاً : لو صنف الأبواب لجعلت حديث عمر في ( الأعمال بالنية ) في كل باب .

وقال الخطابي : كان المتقدمون من شيوخنا يستحبون تقديم حديث ( الأعمال بالنيات ) أمام كل شيء يُنشأ ويُتدأ من أمور الدين لعموم الحاجة إليه في جميع أنواعها .

وقد استخرج منه الحافظ العراقي في كتابه ( طرح الشريب ) ثلاثاً وستون فائدة وحكم .

وشرحه ابن حجر في الفتح شرحاً وافياً ، وكذا ابن رجب رحمه الله تعالى .

وقد جعل بعض العلماء هذا الحديث نصف الدين ، والنصف الآخر حديث عائشة ( من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد )

فحديث عمر في أعمال القلوب ، وحديث عائشة في أعمال الجوارح .

وجعله بعضهم ثلث الدين ، فقد روي عن الشافعي أنه قال : هذا الحديث ثلث العلم ، ويدخل في سبعين باباً في الفقه .

وعن أحمد : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث : حديث عمر ( الأعمال بالنيات ) وحديث عائشة ( من أحدث في أمرنا ) وحديث النعمان ( الحلال بين والحرام بين ) .

(١) الملاحظ أن المصنف يذكر كُنية كل راوٍ واسمه ، وإذا تكرر الراوي بعدُ اكتفى بذكر اسمه دون كنيته .

(٢) قال ابن تيمية : هذا حديث صحيح متفق على صحته ، تلقته الأمة بالقبول والتصديق ، مع أنه من غرائب الصحيح ، فإنه وإن كان قد روي عن النبي ﷺ من طرق متعددة كما جمعها ابن منده وغيره من الحفاظ ، فأهل الحديث متفقون على أنه لا يصح منها إلا من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه المذكورة ، ولم يروه عنه إلا علقمة بن وقاص الليثي ، ولا عن علقمة إلا محمد بن إبراهيم ، ولا عن محمد إلا يحيى بن سعيد الأنصاري قاضي المدينة ، ورواه عن يحيى بن سعيد أئمة الإسلام ، يقال إنه رواه عنه نحو من مائتي عالم ، مثل : مالك ، والثوري ، وابن عيينة ، وحماد ، وعبد الوهاب الثقفي ، وأبي خالد الأحمر ، وزائدة ، ويحيى بن سعيد القطان ، ويزيد بن هارون ، وغير هؤلاء خلق من أهل مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام وغيرها من شيوخ الشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ، وطبقتهم ، ويحيى بن معين ، وعلي بن المديني ، وأبي عبيد .

(٣) فأخذ البخاري وغيره بهذه الوصية .

قال ابن حجر في الفتح : وافق عبد الرحمن بن مهدي ، والشافعي - فيما نقله البويطي عنه - وأحمد بن حنبل ، وعلي بن المدني ، وأبو داود ، والترمذي ، والدارقطني ، وحمزة الكناي ، على أنه ثلث الإسلام أ.هـ وهذا يدل على فقه السلف ، وشدة فهمهم للنصوص .

وعليه فينبغي العناية بهذه الأحاديث الثلاثة أشد العناية ، حفظاً ، وفهماً ، وعملاً ، وبثاً بين الناس . وجعله بعضهم ريع الدين ، فقد جاء عن إسحاق بن راهويه : أربع أحاديث هي أصول الدين ، فذكر الثلاثة وزاد ( إن أحكم يُجمع خلقه في بطن أمه ) .

**موضوعه :** هذا الحديث يتكلم عن ( النية ) التي هي من أهم مسائل الدين ، وهي محل نظر الله تعالى من أعمال العباد . وفي هذا الحديث يبين ﷺ أن قبول العمل يتوقف على وجود النية الصالحة فيه ، وإذا وجدت كان ثواب العمل على قوتها . فينبغي على المسلم أن يخلص النية في أعماله لله وحده ، ويجتهد في استحضارها في أعماله كلها حتى المباحة منها كالأكل والنوم ونحوها .

قال ابن القيم في كتابه ( إعلام الموقعين ) : فأما النية فهي رأس الأمر ، وعموده ، وأساسه ، وأصله الذي عليه يبنى ، فإنها روح العمل ، وقائده ، وسائقه ، والعمل تابع لها ، يبنى عليها ، يصح بصحتها ، ويفسد بفسادها ، وبها يستجلب التوفيق ، وبعدمها يحصل الخذلان ، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والاخرة.... وقد جرت عادة الله التي لا تبدل ، وسنته التي لا تحول أن يلبس المخلص من المهابة والنور والمحبة في قلوب الخلق ، وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه ونيته ومعاملته لربه ، ويلبس المرائي اللابس ثوبي الزور من المقت والمهانة والبغضة ما هو اللائق به ، فالمخلص له المهابة والمحبة ، وللآخر المقت والبغضاء .

**سببه :** اشتهر أن سبب ورود الحديث أن رجلاً خطب امرأة يقال لها ( أم قيس ) فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر فتزوجها. روى سعيد بن منصور في سننه عن ابن مسعود ؓ قال : كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها ( أم قيس ) فأبت أن تزوجه حتى يهاجر ، فهاجر فتزوجها ، فكنا نسميه ( مهاجر أم قيس ) قال ابن مسعود : من هاجر لشيء فهو له .

قال ابن حجر : إسناد هذا صحيح ، ولكن ليس فيه أن حديث عمر سيق بسبب ذلك ، ولم أر في شيء من الطرق ما يقتضي ذلك .

وقال ابن رجب : وذكر ذلك كثير من المتأخرين في كتبهم ، ولم نر لذلك أصلاً بإسناد صحيح . وعليه فالقصة على فرض صحتها ليست سبباً لورود الحديث .

شرحه :

هذا الحديث شطران :

١. قاعدة : ( إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ) .

٢. مثال : ( فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ) .

قوله ( إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ) .

اختلف العلماء في المراد بـ ( الأعمال ) هنا على قولين :

١. الأعمال عموماً : ويكون المعنى : إنما تصدر الأعمال - الصالحة والمباحة والسيئة - من العبد بالنية . ثم يثاب على النية الصالحة في العمل الصالح ، ويعاقب على النية الفاسدة في كل عمل ، والنية على المباحات لا يعاقب ولا يثاب عليها إلا بنية أخرى .

٢. الأعمال الصالحة ( القُرب ) : ويكون المعنى : إنما تصدر الأعمال الصالحة ( القُرب ) من العبد بنية صالحة ، أو نية فاسدة . فيثاب العبد على نيته الصالحة ، ويعاقب على نيته الفاسدة .

ولا شك أن كلا المعنيين صحيح من حيث الأصل ، فجميع الأعمال المقصودة من العبد لا تكون إلا بنية منه ، ثم يكون الثواب أو العقاب على العمل بنيته .

وكذلك الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى الله ( الأعمال المشروعة ) تكون مقترنة بنية صالحة ، أو بنية فاسدة ، فيثاب على العمل إن كانت نيته صالحة بقدر تلك النية ، ويعاقب على النية الفاسدة ولا تنفعه صورة العمل الصالح حينئذ . ولكن الخلاف في المراد بأحد المعنيين في هذا الحديث العظيم .

وقد ذهب ابن تيمية إلى ترجيح المعنى الأول في عدة مواضع ، ونسبه إلى جمهور أهل العلم ، وخطأ المعنى الثاني ، ونسبه إلى طائفة من المتأخرين .

قال رحمه الله : فإن كل عمل يعمل به عامل من خير وشر هو بحسب ما نواه ، فإن قصد بعمله مقصوداً حسناً كان له ذلك المقصود الحسن ، وإن قصد به مقصوداً سيئاً كان له ما نواه<sup>(١)</sup> .

وكذلك اختار ذلك ابن القيم ، وقال : والنبي ﷺ قد قال كلمتين كفتا وشفتا ، وتحتهما كنوز العلم ، وهما قوله ( إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ) فبين في الجملة الأولى أن العمل لا يقع إلا بالنية ، ولهذا لا يكون عمل إلا بنية ، ثم بين في الجملة الثانية أن العامل ليس له من عمله إلا ما نواه ..... فالمقدمة الأولى معلومة بالوجدان ، والثانية معلومة بالنص أ.هـ

(١) قال ابن تيمية : وقد تنازع الناس في قوله ﷺ ( إنما الأعمال بالنيات ) هل فيه إضمار أو تخصيص ، أو هو على ظاهره وعمومه ؟ فذهب طائفة من المتأخرين إلى الأول ، قالوا : لأن المراد بالنيات الأعمال الشرعية التي تجب أو تستحب ، والأعمال كلها لا تشترط في صحتها هذه النيات ، فإن قضاء الحقوق الواجبة من الغصوب والعواري والودائع والديون تبرأ ذمة الدافع وإن لم يكن له في ذلك نية شرعية . بل تبرأ ذمته منها من غير فعل منه ، كما لو تسلم المستحق عين ماله ، أو أطارت الريح الثوب المودع أو المغصوب فأوقعته في يد صاحبه ، ونحو ذلك ، ثم قال بعض هؤلاء : تقديره : إنما ثواب الأعمال المترتبة عليها بالنيات ، أو إنما تقبل بالنيات ، وقال بعضهم : تقديره : إنما الأعمال الشرعية ، أو إنما صحتها ، أو إنما إجراؤها ونحو ذلك . وقال الجمهور : بل الحديث على ظاهره وعمومه ، فإنه لم يرد بالنيات فيه الأعمال الصالحة وحدها ، بل أراد النية المحمودة والمذمومة ، والعمل الحمود والمذموم ، ولهذا قال في تمامه ( فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ... إلخ ) فذكر النية المحمودة بالهجرة إلى الله ورسوله فقط ، والنية المذمومة وهي الهجرة إلى امرأة أو مال ، وهذا ذكره تفصيلاً بعد إجمال ، فقال ( إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ) ثم فصل ذلك بقوله ( فمن كانت هجرته ... إلخ ) .

وقد نسب ابن رجب القول الثاني إلى كثير من المتأخرين ، وحكى عن بعضهم أن القول الأول قول الجمهور ، قال ابن رجب : وكأنه يريد به جمهور المتقدمين<sup>(١)</sup> .

والذي يظهر والله أعلم أن الأرجح هو المعنى الثاني ، وأن المراد والله أعلم أن الأعمال المشروعة ، كالهجرة ، والجهاد ، والصلاة ، وغيرها ، لا تصدر من العبد إلا بنية ، إما صالحة يبتغي بها وجه الله ، وإما فاسدة يبتغي بها شيء من الدنيا ، والله يعلم ما في القلوب ، فيجازي على العمل والنية الصالحة ، ويعاقب على النية السيئة ، ولا تنفع صورة العمل حينئذ ، ولذا ضرب النبي ﷺ بهذا المثال .

لأن كون الأعمال عموماً لا تصدر إلا بنية تحصيل حاصل ، فالكل يعلم أن أي عمل يقصده الإنسان لا يكون إلا بنية منه ، بخلاف المعنى الثاني فهو يتضمن الحث على تصحيح النية ، وأنه بدونها لا ينفع العمل .

(١) قال ابن رجب : وقد اختلف في تقدير قوله ( الأعمال بالنيات ) فكثير من المتأخرين يزعم أن تقديره : الأعمال صحيحة ، أو معتبرة ، أو مقبولة بالنيات ، وعلى هذا فالأعمال إنما أريد بها الأعمال الشرعية المفتقرة إلى النية ، فأما ما لا يفتقر إلى النية كالعادات من الأكل والشرب ، واللبس وغيرها ، أو مثل رد الأمانات والمضمونات ، كالودائع والغصب ، فلا يحتاج شيء من ذلك إلى نية ، فيخص هذا كله من عموم الأعمال المذكورة هاهنا .

وقال آخرون : بل الأعمال هنا على عمومها ، لا يخص منها شيء . وحكا بعضهم عن الجمهور ، وكأنه يريد به جمهور المتقدمين ، وقد وقع ذلك في كلام ابن جرير الطبري ، وأبي طالب المكي وغيرهما من المتقدمين ، وهو ظاهر كلام الإمام أحمد .

قال في رواية حنبل : أحب لكل من عمل عملاً من صلاة ، أو صيام ، أو صدقة ، أو نوع من أنواع البر أن تكون النية متقدمة في ذلك قبل الفعل ، قال النبي ﷺ ( الأعمال بالنيات ) فهذا يأتي على كل أمر من الأمور .

وقال الفضل بن زياد : سألت أبا عبد الله - يعني : أحمد - عن النية في العمل ، قلت : كيف النية ؟ قال : يعالج نفسه ، إذا أراد عملاً لا يريد به الناس .

وقال أحمد بن داود الحري : حدث يزيد بن هارون بحديث عمر ( إنما الأعمال بالنيات ) وأحمد جالس ، فقال أحمد ليزيد : يا أبا خالد ، هذا الخناق .

وعلى هذا القول ، فقيل : تقدير الكلام : الأعمال واقعة ، أو حاصلة بالنيات ، فيكون إخباراً عن الأعمال الاختيارية أنها لا تقع إلا عن قصد من العامل ، وهو سبب عملها ووجودها ، ويكون قوله بعد ذلك ( وإنما لكل امرئ ما نوى ) إخباراً عن حكم الشرع ، وهو أن حظ العامل من عمله نيته ، فإن كانت صالحة فعمله صالح ، فله أجره ، وإن كانت فاسدة فعمله فاسد ، فعليه وزره .

ويحتمل أن يكون التقدير في قوله ( الأعمال بالنيات ) : الأعمال صالحة ، أو فاسدة ، أو مقبولة ، أو مردودة ، أو مثاب عليها ، أو غير مثاب عليها ، بالنيات ، فيكون خبراً عن حكم شرعي ، وهو أن صلاح الأعمال وفسادها بحسب صلاح النيات وفسادها ، كقوله ﷺ ( إنما الأعمال بالخواتيم ) أي : إن صلاحها وفسادها وقبولها وعدمه بحسب الخاتمة .

وقوله بعد ذلك ( وإنما لامرئ ما نوى ) إخبار أنه لا يحصل له من عمله إلا ما نواه به ، فإن نوى خيراً حصل له خير ، وإن نوى به شراً حصل له شر ، وليس هذا تكريراً محضاً للجملة الأولى ، فإن الجملة الأولى دلت على أن صلاح العمل وفساده بحسب النية المقتضية لإيجاده ، والجملة الثانية دلت على أن ثواب العامل على عمله بحسب نيته الصالحة ، وأن عقابه عليه بحسب نيته الفاسدة ، وقد تكون نيته مباحة ، فيكون العمل مباحاً ، فلا يحصل له به ثواب ولا عقاب ، فالعمل في نفسه صلاحه ، وفساده ، وإباحته ، بحسب النية الحاملة عليه ، المقتضية لوجوده ، وثواب العامل ، وعقابه ، وسلامته ، بحسب نيته التي بها صار العمل صالحاً ، أو فاسداً ، أو مباحاً أهـ .

قوله ( فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ) .

بعد أن بين ﷺ أن الأعمال لا تقبل - وإن كان ظاهرها الصلاح - إلا بالنية الصالحة ، ذكر مثلاً على ذلك وهو الهجرة ، فصورة العمل واحدة ، ولكن لما اختلفت النية اختلف ترتب الأجر عليها .

ومعنى ( فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ) أي : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله نية وقصدًا ، كانت هجرته إلى الله ورسوله ثواباً وأجرًا . أي : من نوى الأجر من الله وقع له الأجر ، كما قال تعالى ( ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ) .

ومعنى ( ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ) أي : من كانت هجرته لغير الله فلا ثواب له .

ومن الفوائد اللغوية في هاتين الجملتين :

١ . أنه في الجملة الأولى أعاد لفظ ( الله ورسوله ) وذلك لفائدتين :

أ . لأن حصول ما نواه بهجرته نهاية المطلوب في الدنيا والآخرة .

ب . ولأنها لا تتعدد .

٢ . أنه في الجملة الثانية قال ( إلى ما هاجر إليه ) ولم يعد اللفظ ، وذلك لفائدتين :

أ . تحقيراً له .

ب . لأن مطالب الدنيا متعددة ( تجارة ، زواج ، نزهة... ) .

والهجرة لغةً : مأخوذة من الهجر ، والترك . وسمي المهاجرون مهاجرين ، لأنهم هجروا ديارهم ، وتركوها إلى غيرها .

وشرعاً : لها معنيان :

١ . عام : ترك كل ما نهى الله عنه ، كما جاء عند البخاري من حديث عبد الله بن عمرو : والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه .

٢ . خاص : الانتقال من بلد إلى بلد .

وقد ذكر ابن حجر في الفتح أن الهجرة وقعت في الإسلام على وجهين :

الأول : الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن ، كما في هجري الحبشة ، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة .

الثاني : الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان ، وذلك بعد أن استقر النبي ﷺ بالمدينة ، وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين ،

وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص أ.هـ

والهجرة من حيث مكانها تنقسم إلى قسمين :

١ . هجرة عامة : وهي الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام . وهذه باقية إلى قيام الساعة .

٢ . هجرة خاصة : الهجرة من مكة إلى المدينة . وهذه انتهت ، كما قال ﷺ ( لا هجرة بعد الفتح ) متفق عليه



والهجرة من حيث الحكم تنقسم إلى قسمين :

١. واجبة : إذا لم يتمكن المسلم - المقيم بدار الكفر - من إظهار دينه ، وكان قادراً على الهجرة .  
قال ابن هبيرة : واتفقوا فيما أعلم على وجوب الهجرة عن ديار الكفر لمن قدر على ذلك .  
وقال شيخنا ابن عثيمين : فهي واجبة على كل مؤمن لا يستطيع إظهار دينه في بلد الكفر ، فلا يتم إسلامه إذا كان لا يستطيع إظهاره إلا بالهجرة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .
٢. مستحبة : إذا كان يستطيع أن يظهر دينه ، وكان قادراً على الهجرة ، وهذا قول الجمهور ، واختاره ابن قدامة ، وابن تيمية .  
إلا إن كان في بقاءه مصلحة ، وأمن على نفسه ودينه .

هذا الحديث يدور حول النية ، وللنية مكانة عظيمة في الشرع ، ومسائل النية كثيرة ، نقف على بعضها :  
مسألة : للنية متعلقان :

أ. متعلق بالمعبود : فيجب توجيه القصد لله في جميع الأمور .

ب. متعلق بالعبادة أو العمل : وهي التي تميز العبادات عن بعضها ، وتميزها عن العادات .

فالصوم يكون فرضاً ويكون نفلاً ، والفرض قد يكون لرمضان ، أو لنذر ، أو لكفارة ، فلا بد من تعيين كل نوع بنية ، وكذا الصلاة ، والحج ، والصدقة ، وكذا الغسل يكون للجنابة ، ويكون للنسك ، أو الجمعة ، ويكون للتبرد ، وهذه يتكلم عنها أهل الفقه .

قال ابن تيمية : ولفظ النية يجري في كلام العلماء على نوعين : فتارة يريدون بها تمييز عمل من عمل ، وعبادة من عبادة ، وتارة يريدون بها تمييز معبود عن معبود ، ومعمول له عن معمول له .

مسائل النية المتعلقة بالأجر :

١ . النية الحسنة عبادة بذاتها ، يؤجر عليها ولو تخلف عنها العمل ، قال تعالى ( ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ) وجاء في الصحيحين : إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة ما لم يعملها ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . وفي رواية لهما : إلى أضعاف كثيرة .

٢ . الثواب على قدر النية ، قوة وضعفاً ، يدل عليه حديث عمر ( وإنما لكل امرئ ما نوى ) .  
ولذا ذكر أهل العلم قاعدة عظيمة ، وهي : تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب .

٣ . النية السيئة لها أحوال :

أ. إن كانت خاطراً ، أوهماً عارضاً ، أو حديث نفس لا تكتب ، كما في الصحيحين : وإذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها له حتى يعملها .

وقال ﷺ : إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم . متفق عليه

إلا أن تكون في الحرم لقوله تعالى ( ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ) وقد جاء عن ابن مسعود وغيره في الآية قال : لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم وهو ( عدن أبين ) لأذاقه الله من العذاب الأليم . رواه أحمد  
قال ابن كثير : هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري . ومثل لذلك بأصحاب الفيل ، والجيش الذي في آخر الزمان الذي يريد هدم الكعبة ، فيخسف بهم ، فيبعثون على نياتهم .

ب. إن كان هناك عزم على فعلها :

كتبت عليه<sup>(١)</sup> ، كما في الحديث الصحيح : إذا التقى المسلمان بسيئتهما فالحاق بالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يا رسول الله : هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه . متفق عليه

وحديث : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتقي ربه فيه ، ويصل به رحمه ، ويعلم الله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته

(١) واختلف العلماء : هل يكتب عليه العزم فقط ، أم السيئة ؟ على قولين ، واختار شيخنا ابن عثيمين أنه إن عزم ولم يسع في أسبابها كتب عليه وزر النية فقط ، وإن سعى في أسبابها كتبت سيئة كاملة . وانظر شرح الحديث السابع والثلاثون .

فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، يُحْبَطُ في ماله بغير علم ، لا يتقي ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم الله فيه حقاً ، فهو بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته فوزهما سواء . رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح .

٤. ترك المعصية له أحوال : قال ابن كثير في تفسيره : واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارة يتركها لله عز وجل : فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها الله تعالى ، وهذا عمل ونية ، ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة ، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح : فإنما تركها من جرأني . أي : من أجلي . وتارة يتركها نسياناً وذهولاً عنها : فهذا لا له ولا عليه ، لأنه لم ينو خيراً ولا فعل شراً . وتارة يتركها عجزاً وكسلاً بعد السعي في أسبابها ، والتلبس بما يقرب منها : فهذا يتنزل منزلة فاعلها ، كما جاء في الحديث في الصحيحين : إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يا رسول الله هذا القاتل ، فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه أ.هـ

٥. النية إن تخلفت عن العمل فلا يؤثر عليه ، ولكن يمكن أن يكون هذا العمل خيراً ، وعليه يقال : العمل قسمان : أ. قاصر على الإنسان : فهذا إن تخلفت النية لا يؤثر عليه ، ولا يسمى العمل خيراً ولا نافعاً ، كالصلاة والصوم ونحوها . ب. متعدد نفعه إلى الغير : كالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصدقة ، والإصلاح بين الناس ونحوها . فهذه إن وجدت النية كان العمل خيراً وأجر عليه ، وإن تخلفت النية كان العمل خيراً ولم يؤثر عليه ، وإنما سمي العمل المتعدي خيراً لما يحصل به من الخير والنفع ، ودليل ذلك قوله تعالى ( لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ) . فنفي الخير عن كثير مما يتناجى به الناس ، واستثنى ما ذكر ، فهو خير مطلقاً ، وأما الثواب عليه فخصه بمن فعل ذلك ابتغاء مرضات الله .

٦. يؤثر الإنسان على أعمال لم يعملها ، أو لم يستصحب نيتها ، ومن ذلك : أ. أعمال الخير التي كانت بسببه ، كأجر المصلين لباني المسجد ، وما يحصل من الري لمن حفر بئراً ، أو فائدة لمن قرأ كتاباً ، أو الزرع إذا أكل منه الإنسان أو الحيوان ، ونحو ذلك . ومنه تصدق المرأة من مال زوجها ، والخادم من مال سيده ، على تفصيل في قدر الأجر الحاصل له من ذلك <sup>(١)</sup> .

(١) المرأة إن تصدقت من مال زوجها ، أو الخادم من مال سيده ، فإنهم يؤجرون جميعاً ، فإن كان بإذنه وعلمه ، كان له الأجر كاملاً ، وإن كان بغير إذنه نال نصف الأجر ، وهذا هو ظاهر الأحاديث ، والله أعلم .

فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : إذا أنفقت المرأة من طعام زوجها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ، ولزوجها أجره بما كسب ، وللخازن مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئاً . متفق عليه . وفي لفظ لهما : كان لها أجرها ، وله مثله بما كسب .

وعن عمر بن مولى أبي اللحم قال : كنت مملوكاً ، فسألت النبي ﷺ : أتصدق من مال موالي بشيء ؟ قال : نعم ، والأجر بينكما نصفان . رواه مسلم وعنه قال : أمرني مولاي أن أقدم لحماً ، فجاني مسكين فأطعمته منه ، فعلم بذلك مولاي ، فضرني ، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له ، فدعاه فقال : لم ضربته ؟ فقال : يعطي طعامي بغير أن أمره . فقال : الأجر بينكما . رواه مسلم . وفي لفظ له : وما أنفقت من كسبه من غير أمره فإن نصف أجره له .

تنبيه : ولكن ينبغي أن تكون هذه الصدقة في الأمر اليسير الذي لا يؤثر على مال الزوج ، أو السيد ، كما جاء في الحديث ( غير مفسدة ) . وفي المسألة أقوال أخرى .

ب. الأجور التي تهدى للميت من أعمال البر .

٧. الأمور المباحة قد يؤجر عليها الإنسان إذا نوى بها نية صالحة .

قال ﷺ لسعد بن أبي وقاص : ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها ، حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك . متفق عليه وقال ﷺ : وفي بضع أحدكم صدقة ، قالوا : يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر . رواه مسلم

وقال معاذ لأبي موسى رضي الله عنهما : أما أنا فأنام وأقوم ، وأرجو في نومي ما أرجو في قومي . متفق عليه ، وفي لفظ عند البخاري : فأحتسب نومي كما أحتسب قومي .

وقد ذكر النووي من فوائد حديث ( وفي بضع أحدكم صدقة ) : وإحضار النية في المباحات .

وذكر من فوائد حديث ( ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى إلا أجرت بها حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك ) وفيه أن الأعمال بالنيات ، وأنه إنما يثاب على عمله بنيته ، وفيه أن الإنفاق على العيال يثاب عليه إذا قصد به وجه الله تعالى ، وفيه أن المباح إذا قصد به وجه الله تعالى صار طاعة ويثاب عليه .... ويتضمن ذلك أن الإنسان إذا فعل شيئاً أصله على الإباحة وقصد به وجه الله تعالى يثاب عليه ، وذلك كالأكل بنية التقوي على طاعة الله تعالى ، والنوم للاستراحة ليقوم إلى العبادة نشيطاً ، والاستمتاع بزوجه وجاريته ليكف نفسه وبصره ونحوهما عن الحرام ، وليقضي حقها ، وليحصل ولداً صالحاً ، وهذا معنى قوله ﷺ وفي بضع أحدكم صدقة ، والله أعلم .

وقد ذكر ابن القيم في ( مدارج السالكين ) أن خواص المقربين انقلبت المباحات في حقهم إلى طاعات وقربات بالنية ، فليس في حقهم مباح مستوي الطرفين ، بل كل أعمالهم راجحة .

مسائل النية المتعلقة بالعمل :

١. الأصل أن نية التعبد تصاحب العمل من أوله إلى آخره ، فإن تخلفت عن العمل فله أحوال :

أ. إن كانت في جميع الأعمال ، فهذه لا تتصور من مسلم ، بل صاحبها منافق كافر .

ب. إن كانت موجودة ، ولكن تتخلف أحياناً في بعض الأعمال ، فله أحوال :

١. إن كان العمل من أصله لغير الله : بطل العمل كله ، كما جاء في الحديث القدسي : من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه . رواه مسلم

قال ابن رجب : ولا نعرف عن السلف في هذا خلافاً ، وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين .

٢. إن كان العمل من أصله لله ، ثم طرأت النية الفاسدة عليه ، فله حالان :

أ. أن يجاهد نفسه على دفعها ، فلا شيء عليه ، ويصح العمل ، ويؤجر على المجاهدة .

قال ابن رجب : إن كان خاطراً ودفعه ، فلا يضره بغير خلاف .

ب. أن يركن إليها ويرضى بها ، فللعمل حالان :

١. إذا كان العمل لا يترتب آخره على أوله ، كالصدقة ، والذكر ، وقراءة القرآن .

صح العمل فيما كان لله ، وبطل في الذي دخلته النية الفاسدة .

٢. إن كان العمل يترتب آخره على أوله ، كالصلاة ، والصيام ، ففيه خلاف :

أ . يبطل جميع العمل ، واختاره شيخنا ابن عثيمين .

ب . يبطل ما حصل فيه الرياء من الصفة ، والعدد ، كما لو حسن وقوفه ، أو أطاله ، أو زاد في عدد التسبيحات ، أو حسن قراءته ، وتجويده ، ونحو ذلك .

فتبطل تلك الصفات ، والزيادات ، ويصح العمل .

وهذا اختيار الإمام أحمد ، وابن جرير ، وغيرهم ، وهو مروى عن الحسن البصري ، وغيره .

٢. إشراك نية أخرى مع نية العبادة له صور :

الأصل أن العبادات شرعت عبادة لله وتعظيماً له وتذلاً له ، وعليه فمتى خلت العبادة عن هذا المعنى فهي عبادة مردودة غير مقبولة ، وقد يُخالط العبادة مقصد آخر وحينها فالمسألة فيها تفصيل :

١. إن كان هذا المخالط رياء : فالعمل الذي خالطه الرياء باطل ، لقوله تعالى في الحديث القدسي : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه . رواه مسلم

ولما روى أبو أمامة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أ رأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر ، والذكر ، ما له ؟ قال ﷺ : لا شيء له . ثم قال ﷺ : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتغي به وجهه . رواه النسائي ، وحسنه العراقي ، وجود إسناده ابن رجب .

فالرياء ينافي إخلاص العبادة لله ، ولا يمكن أن يُصحح العمل مع وجود الرياء ، وسبق التفصيل في ذلك .

قال في تيسير العزيز الحميد : والذي يعمل لأجل الدرهم ، والقطيفة ، ونحو ذلك ، أعقل من المرائي ، لأن ذلك عمل في دنيا يصيبها ، والمرائي عمل لأجل المدح والجلالة في أعين الناس ، وكلاهما خاسر .

٢. إن كان هذا المخالط إرادة الدنيا ، ففيه تفصيل :

أ. إن كان أراد بعمله الدنيا فقط دون النظر إلى الأجر ، فعمله مردود ، ولا أجر له بهذا العمل الصالح ، وربما حصل له أجر الدنيا وربما لم يحصل له .

وهذا كمن يجاهد للغنيمة فقط ، ولا قصد له في إعلاء كلمة الله ، وكمن يُعلم العلم من أجل المال فقط ، ونحو ذلك .

والدليل قوله تعالى ( من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون \* أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ) .

قال ابن جرير : من عمل صالحاً التماس الدنيا ، صوماً ، أو صلاة ، أو تهجداً بالليل ، لا يعملها إلا لالتماس الدنيا ، يقول الله :

أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذي كان يعمل التماس الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين أ.هـ

ومنه حديث عمر المشهور : ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه . متفق عليه

وهذه الصورة لها حكم الرياء ، إذ لا يمكن تصحيح العمل مع هذه النية الخالية من قصد وجه الله تعالى بالعمل ، والغالب أن هذه الحال تكون من المنافقين .

ب إن أراد بعمله وجه الله ، لكنه قصد مع ذلك أمراً من أمور الدنيا المباحة ، كمن يجاهد للأجر والغنيمة ، أو يطلب العلم للأجر والوظيفة ، أو يصلي بالناس إماماً للأجر وللراتب ، ونحو ذلك ، وهذا يحصل كثيراً في أحوال الناس .

وهذه الصورة تختلف نظر أهل العلم فيها على أقوال ، والذي يظهر لي والله أعلم أنه لا بأس بذلك ، وأن هذا الأجر الدنيوي من ثمار وبركة العبادات ، لكن عليه أن يجاهد نفسه في تغليب أجر الآخرة ، ثم عليه أن يحول نية الدنيا إلى نية صالحة ، كأن ينوي ما يحصل له من المال والوظيفة لخدمة الدين ، أو الكفاف ، ونحو ذلك .

ومما يدل على جواز هذه الصورة أن النصوص الشرعية ذكرت عمل الدنيا ضمن العبادات ، وفي هذا إشارة إلى جواز قصدها على جهة التبع والله أعلم ، وإلا لم يكن لذكرها فائدة .

ومن ذلك قوله تعالى في الحج ( ليشهدوا منافع لهم ) وقال نوح لقومه ( فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ) وقال هود لقومه ( ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ) وقال تعالى ( ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ) وقال ﷺ في الجهاد : من قتل قتيلاً فله سلبه . وقال ﷺ : من أحب أن ينسأ له في أثره ، ويسقط له في رزقه ، فليصل رحمه . وقال ﷺ : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء . وقال ﷺ : السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب . رواه أحمد ، وصححه الألباني . والنصوص التي جاء فيها ذكر فوائد دنيوية في العمل الصالح كثيرة جداً .

وبعض أهل العلم فرق بين قصد ما ذكر في النصوص من أمور الدنيا فأجاز قصده تبعاً ، وبين ما لم يذكر فلم يُجز قصده ولو تبعاً ، والذي يظهر أنه لا فرق ، بل ذكر بعض أمور الدنيا يدل على سائرهما ، سيما والمذكور كثير ومتنوع ، والله أعلم . كما ينبه أن بعض أهل العلم يفرق بين كون عمل الدنيا هو الغالب ، أو أن يكون مساوياً ، أو يكون تبعاً ، وهذا التفريق وإن كان يمكن أن يُقبل ، لكن معرفة ذلك قد تكون متعذرة ، أو متعسرة ، والله أعلم ، لكن الممكن أن يُبحث الشخص على مجاهدة نفسه في قصد الآخرة .

**والخلاصة** أن يقال : الأصل في تشريع العبادات قصد وجه الله فيها ، وطلب أجر الآخرة ، فإن كانت هذه العبادات مضمنة لفائدة دنيوية جاز قصدها تبعاً ، واستُحب تحويل ثمرة الدنيا لأمر الآخرة ، وأما إن قصد الدنيا فقط فلا أجر له بهذا العمل . قال السعدي في كتابه ( بهجة قلوب الأبرار ) عند شرحه لحديث ( من أحب أن يُسقط له في رزقه... ) : وفي هذا الحديث دليل على أن قصد العامل ما يترتب على عمله من ثواب الدنيا ، لا يضره إذا كان القصد وجه الله والدار الآخرة ، فإن الله بحكمته ورحمته رتب الثواب العاجل والآجل ، ووعد بذلك العاملين ، لأن الأمل واستثمار ذلك ينشط العاملين ، ويعت همهم على الخير ، كما أن الوعيد على الجرائم ، وذكر عقوباتها مما يخوّف الله به عباده ويعتثهم على ترك الذنوب والجرائم . فالمؤمن الصادق يكون في فعله وتركه مخلصاً لله ، مستعيناً بما في الأعمال من المرغبات المتنوعة على هذا المقصد الأعلى . والله الموفق .

وقال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير : فأما إن كان للنفس حظ عاجل ، وكان حاصلاً تبعاً للعبادة وليس هو المقصود ، فهو مغتفر ، وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس ، أو كان مما يعين على الاستزادة من العبادة .

وقال ابن باز : كما ينبغي أن نشجع على الإخلاص ، والصدق في طلب العلم ، من أراد الشهادة ليتقوى بها على تبليغ العلم ، والدعوة إلى الخير فقد أحسن في ذلك ، وإن أراد المال ليتقوى به فلا بأس أن يدرس ليتعلم ، وينال الشهادة التي يستعين بها على نشر العلم ، وأن يقبل الناس منه هذا العلم ، وأن يأخذ المال الذي يعينه على ذلك ، فإنه لولا الله سبحانه ثم المال لم يستطع

الكثير التعلم ، وتبليغ الدعوة .

فالمال يساعد المسلم على طلب العلم ، وعلى قضاء حاجته ، وعلى تبليغه للناس ، ولما ولي عمر رضي الله عنه أعمالاً ، أعطاه رسول الله ﷺ مالاً ، قال : أعطه من هو أفقر مني . فقال النبي ﷺ : خذ هذا المال فتموله ، أو تصدق به ، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ، ولا سائل فخذ ، وما لا فلا تتبعه نفسك . أخرجه مسلم في صحيحه .

وأعطى النبي عليه الصلاة والسلام المؤلفه قلوبهم ، ورغبهم حتى دخلوا في دين الله أفواجاً ، ولو كان حراماً لم يعطهم ، بل أعطاهم قبل الفتح ، وبعده .

وفي يوم الفتح أعطى الناس على مائة من الإبل ، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر - عليه الصلاة والسلام - ترغيباً في الإسلام ، ودعوة إليه .

وقد جعل الله سبحانه وتعالى للمؤلفة قلوبهم حقاً في الزكاة ، وجعل في بيت المال حقاً لهم ، ولغيرهم من المدرسين ، والقضاة ، وغيرهم من المسلمين ، والله ولي التوفيق .

### ومن صور الرياء الخفية التي ذكرها أهل العلم :

١ . أن يخفي عبادته عن الناس ، لكنه يحب في نفسه أن يقدره الناس إذا رأوه ، وأن يقدموه في المجالس ، وأن يثنوا عليه ، وينشطوا في قضاء حاجاته ، ونحو ذلك .

٢ . أن يذم نفسه أمام الناس ، وينتقصها ، وهو في داخله يريد الثناء عليها بذلك ، حتى يقول الناس متواضع .

٣ . أن يعمل العمل لله وقصده بذلك مطلب آخر ، كما قال ابن تيمية : حكى أن أبا حامد الغزالي بلغه أن من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ، قال : فأخلصت أربعين يوماً ، فلم يتفجر شيء ، فذكرت ذلك لبعض العارفين ، فقال لي : إنما أخلصت للحكمة ، ولم تخلص لله .

قال ابن تيمية : فإذا قصد أن يطلب ذلك بالإخلاص ، وإرادة وجهه ، كان متناقضاً ، لأن من أراد شيئاً لغيره ، فالثاني هو المراد المقصود بذاته ، والأول يراد لكونه وسيلة إليه ، فإذا قصد أن يخلص لله ليصير عالماً ، أو عارفاً ، أو ذا حكمة ، أو صاحب مكاشفات ، وتصرفات ، ونحو ذلك ، فهو هنا لم يرد الله ، بل جعل الله وسيلة إلى ذلك المطلوب الأدنى .

### وهناك صور لا تدخل في الرياء ، منها :

١ . أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة ، قال تعالى ( قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ) .

وقال ﷺ : من سرته حسنته ، وسأته سيئته فهو مؤمن . رواه أحمد ، والترمذي ، وقال : حسن صحيح ، وصححه ابن حبان ، والحاكم ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني .

٢ . أن يحصل الثناء له بعد العمل ، لأن النبي ﷺ لما سئل عن الرجل يعمل العمل فيحمده الناس ؟ قال : تلك عاجل بشرى المؤمن . رواه مسلم

٣ . أن ينشط الإنسان في العبادة عند رؤية العابدين .

٤ . إن جاءت النية الفاسدة بعد الانتهاء من العمل ، فلا تؤثر على العمل السابق .

وأما قوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ) فالمراد أن سيئة المن والأذى تقابل حسنة الصدقة فتبطلها .

وعليه نعلم الفرق بين الرياء ، وبين العجب ، والمن ، فالرياء يكون مقارناً للعمل دوماً ، أما العجب ، والمن فقد يكون مع العمل ، وقد يكون بعده .

٥. أن يعمل العمل ، أو يظهر العمل لأجل أن يقتدي الناس به ، ولكن يحذر المؤمن من هذا ، لأنه مزلق خطير .

**مسألة : بعض الأعمال لا تحتاج إلى نية التعبد ، ومن ذلك :**

أ. التروك : كإزالة النجاسة ، ورد الأمانات ، وقضاء الديون ، وإن وجدت النية لذلك فهو أفضل .

ومن ذلك المرأة لو مات عنها زوجها ، ولم تعلم بذلك إلا بعد أربعة أشهر وعشراً ، فإن عدتها انتهت ، وليس عليها عدة ، لأن القصد التخلية .

ب. المباحات : كالأكل ، والشرب ، والنوم ، والتوسيع على النفس والأهل ، ونحوها .

ولكن مع وجود النية الصالحة تصبح عبادة يؤجر عليها ، كما سبق بيان ذلك .

**بعض الأقوال المأثورة عن السلف في شأن النية وأثرها :**

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنما يُحفظ الرجل على قدر نيته .

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز : أعلم أن عون الله للعبد على قدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، وإن نقصت نقص بقدره ، و العبد يبلغ بنيته ما لا يبلغه بعمله .

وعن سفيان الثوري قال : ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي ، لأنها تتقلب علي .

وعن يوسف بن أسباط قال : تخلص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد .

وعن ابن المبارك قال : رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية .

وعن الفضيل قال : إنما يريد الله منك نيتك .

وقال بعض العارفين : إنما تفاضلوا بالإرادات ، ولم يتفاضلوا بالصوم والصلاة .

وقال سهل بن عبد الله التستري : ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب .

وقال يوسف الرازي : أعز شيء في الدنيا الإخلاص ، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي وكأنه ينبت فيه على لون آخر .

وقال ابن عيينة : كان من دعاء مطرف : وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت .



## ما يستفاد من الحديث :

١. عظم شأن النية .
٢. قبول الأعمال أو ردها مرتب على النية ، ولا تكفي صورة العمل .
- قال ابن القيم : العامل ليس له من عمله إلا ما نواه ، وهذا يعم العبادات ، والمعاملات ، والأيمان ، والنذور ، وسائر العقود ، والأفعال ، وهذا دليل على أن من نوى بالبيع عقد الربا حصل له الربا ، ولا يعصمه من ذلك صورة البيع .
- وأن من نوى بعقد النكاح التحليل كان محلاً ، ولا يخرج من ذلك صورة عقد النكاح .
٣. تكتب الحسنات وتضاعف بحسب قوة النية .
٤. الحرص على إخلاص الأعمال لله .
٥. أن الله إنما يريد من العبد نيته . كما قال الفضيل : إنما يريد الله منك نيتك .
- قال تعالى ( لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ) .
- قال السعدي : وقوله ( لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ) أي : ليس المقصود منها ذبحها فقط ، ولا ينال الله من لحومها ولا دمائها شيء ، لكونه الغني الحميد ، وإنما يناله الإخلاص فيها ، والاحتساب ، والنية الصالحة ، ولهذا قال ( ولكن يناله التقوى منكم ) ففي هذا حث وترغيب على الإخلاص في النحر ، وأن يكون قصد وجه الله وحده ، لا فخراً ولا رياء ، ولا سمعة ، ولا مجرد عادة ، وهكذا سائر العبادات ، إن لم يقتزن بها الإخلاص وتقوى الله كانت كالقشور الذي لا لب فيه ، والجسد الذي لا روح فيه أ.هـ.
- وقال ﷺ : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم . رواه مسلم<sup>(١)</sup>
٦. ضرب الأمثلة للتوضيح .
٧. خطر فتنة النساء على الرجال ، ولذا خصها ﷺ النبي بالذكر مع أنها داخلة في عموم قوله ( ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ) ولذا قدمها الله تعالى في كتابه على سائر الملذات ( زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ) .
- وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء . رواه مسلم
٨. التحذير من فتنة الدنيا ، قال تعالى ( يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ) .
- وقال ﷺ : إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا . متفق عليه

(١) قال الألباني في السلسلة الصحيحة : تنبيه هام : قال البيهقي عقب الحديث : هذا هو الصحيح المحفوظ ، فيما بين الحفاظ ، وأما الذي جرى على ألسنة جماعة من أهل العلم وغيرهم ( إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أعمالكم ، و لكن ينظر إلى قلوبكم ) فهذا لم يبلغنا من وجه يثبت مثله ، و هو خلاف ما في الحديث الصحيح ، والثابت في الرواية أولى بنا وجميع المسلمين ، وخاصة بمن صار رأساً في العلم يقتدى به ، وبالله التوفيق .

قلت : ويبدو أن هذا الخطأ الذي جرى عليه من أشار إليهم البيهقي من أهل العلم ، قد استمر إلى زمن الإمام النووي ، فقد وقع الحديث في رياضته رقم ( ١٥٧٧ - المكتب الإسلامي ) باللفظ الخطأ الذي حكاه البيهقي عن الجماعة ، مع أنه أورده في أول كتابه رقم ( ٨ ) مختصراً ليس فيه هذا الوهم ، ولا أدري أهو منه أم من بعض ناسخي الكتاب ، و من الغريب أن يستمر هذا الخطأ في أكثر النسخ المطبوعة منه اليوم ، و أعجب منه أن شارحه ابن علان جرى على ذلك في شرحه للحديث ( ٤ / ٤٠٦ ) مما هو ظاهر البطلان كما كنت شرحت ذلك في مقدمتي ل( رياض الصالحين ) أ.هـ.

### الحديث الثاني

عن عمر رضي الله عنه أيضاً قال : بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر ، خيره وشره . قال : صدقت .

قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

قال : فأخبرني عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتهما ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان .

ثم انطلق فلبث ملياً ، ثم قال : يا عمر : أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . رواه مسلم

تخریجه : رواه مسلم دون البخاري بهذا اللفظ .

ولكنه جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة بتقديم الإيمان على الإسلام ، وبدون ذكر دخول جبريل ، ولفظه : كان النبي ﷺ يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ .....

وأخرجه أحمد ، والترمذي ، وابن حبان بألفاظ مختلفة ، فيها زيادة ونقص .

مكانته : قال ابن رجب : هو حديث عظيم جداً ، يشمل على شرح الدين كله ، ولهذا قال ﷺ في آخره : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

وقال ابن دقيق العيد : هذا حديث عظيم ، اشتمل على جميع وظائف الأعمال الظاهرة والباطنة ، وعلوم الشريعة كلها راجعة إليه ، ومتشعبة منه ، لما تضمنه من جمعه علم السنة ، فهو كالأم للسنة .

وقال القرطبي : هذا الحديث يصلح أن يقال له ( أم السنة ) لما تضمنه من جمل علم السنة أ.هـ

فهذا الحديث مشتمل على العقائد ( أركان الإيمان ) والشريعة ( أركان الإسلام ) والغيبات ( أركان الإيمان وأشرط الساعة ) وكذا السلوك ، والآداب كما في قصة جبريل فحق أن يُسمى ( أم السنة ) كما أن الفاتحة ( أم القرآن ) .

موضوعه : بيان مراتب الدين الثلاثة : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وبيان أركانها .

شرحه :

قول عمر ( بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد : أخبرني عن الإسلام ؟ ) .

فيه فوائد ، منها :

- ١ . محبة النبي ﷺ لصحابته ، ومحبتهم له ، وحرصهم على الجلوس والاستفادة منه .
- ٢ . أن الملائكة تتشكل بصورة البشر بإذن الله ، كما في قصة ضيف إبراهيم عليه السلام ، وقصة لوط ، وجبريل دخل على مريم فتمثل لها بشراً سوياً ، وقصة الملك الذي جاء إلى الأعمى والأبرص والأقرع ، وغيرها .
- قال ابن حجر : وفيه أن الملك يجوز أن يتمثل لغير النبي ﷺ فيراه ويتكلم بحضرته وهو يسمع ، وقد ثبت عن عمران بن حصين أنه كان يسمع كلام الملائكة .
- وقال البيهقي : وروينا عن جماعة من الصحابة أن كل واحد رأى جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي <sup>(١)</sup> .
- ٣ . تعجب الصحابة من الرجل ، بسبب أنه لا يعرف أنه من أهل المدينة ولا تظهر عليه علامات السفر من اتساخ الثياب ، وشعث الرأس ، ونحو ذلك .
- ٤ . استحباب لبس الثياب البيضاء ، لقوله ﷺ : البسوا من ثيابكم البياض ، فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وصححه الألباني .
- وفي لفظ ابن ماجه : خير ثيابكم البياض .
- ٥ . استحباب تحسين الهيئة ، من لبس النظيف ، والاعتناء بالجسد ، ونحو ذلك .
- ونصوص الشريعة دالة على ذلك ، قال ﷺ : إن الله جميل يحب الجمال . متفق عليه
- وفي الصحيح عن عائشة : كان ﷺ يكره أن توجد منه رائحة كريهة .
- وهذا عام في كل الأوقات ، ويتأكد في بعضها ، كالعيدين ، والجمعة ، وعند استقبال الناس ، كما جاء عنه ﷺ في الصحيح .
- ولذا جاء الإسلام بالأمر بإزالة شعر العانة ، والإبط ، وتقليم الأظافر ، والأمر بالغسل للحائض والنفساء والجنب ، والأمر بالوضوء ، وتطيب المساجد وتطهيرها ، وغير ذلك مما ليس هذا موضعه .
- ٦ . التحلي بآداب طلب العلم ، ومن ذلك حسن الجلسة عند الشيخ ، كحال جبريل عليه السلام ، حيث جلس بتواضع وأدب . ومن الآداب أيضاً قرب الطالب من الشيخ ليحصل حسن الاستماع .
- ٧ . جواز السؤال لأجل التعليم وإن كان يعلم الإجابة ، بخلاف السؤال لاختبار الشيخ فهو دليل على سوء الأدب .
- وكذا فعل العبادة للتعليم مع نية التعبد ، فقد صلى الرسول ﷺ على المنبر ثم قال : إنما فعلت ذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي . وحج ﷺ وقال : خذوا عني مناسككم .

(١) وينبه أنه لو ثبت نزول جبريل بصورة دحية الكلبي رضي الله عنه ، فإن جبريل لم يتمثل به في هذا الحديث ، لأن الصحابة يعرفون دحية ، وهنا قال عمر ( ولا يعرفه منا أحد ) .

٨. جواز التورية للمصلحة ، فقد قال جبريل عليه السلام ( يا محمد ) ولم يقل : يا رسول الله ، ليوهم أنه من الأعراب اللذين لا يعرفون النبي ﷺ .

**مسألة :** كيف جزم عمر بقوله ( ولا يعرفه منا أحد ) ؟

قال ابن حجر : فإن قيل : كيف عرف عمر أنه لم يعرفه أحد منهم ؟

أجيب بأنه يحتمل أن يكون استند في ذلك إلى ظنه ، أو إلى صريح قول الحاضرين .

قلت : وهذا الثاني أولى ، فقد جاء كذلك في رواية عثمان بن غياث ، فإن فيها : فنظر القوم بعضهم إلى بعض ، فقالوا : ما نعرف هذا أ.هـ

**مسألة :** اختلف العلماء في عود الضمير في قوله ( ووضع كفيه على فخذه ) هل هو عائد على الرجل الذي هو جبريل ، أم عائد على النبي ﷺ ؟

قال ابن حجر : ثم وضع يده على ركبتي النبي ﷺ وكذا في حديث ابن عباس وأبي عامر الأشعري ( ثم وضع يده على ركبتي النبي ﷺ ) فأفادت هذه الرواية أن الضمير في قوله ( على فخذه ) يعود على النبي ﷺ وبه جزم البغوي ، وإسماعيل التيمي لهذه الرواية ، ورجحه الطيبي بحثاً ، لأنه نسق الكلام ، خلافاً لما جزم به النووي ، ووافقه التوريشتي ، لأنه حمّله على أنه جلس كهيئة المتعلم بين يدي من يتعلم منه ، وهذا وإن كان ظاهراً من السياق ، لكن وضعه يديه على فخذ النبي ﷺ صنيع منبه للإصغاء إليه ، وفيه إشارة لما ينبغي للمستئول من التواضع ، والصفح عما يبدو من جفاء السائل .

والظاهر أنه أراد بذلك المبالغة في تعمية أمره ليقوى الظن بأنه من جفافة الأعراب ، ولهذا تخطى الناس حتى انتهى إلى النبي ﷺ كما تقدم ، ولهذا استغرب الصحابة صنيعه ، ولأنه ليس من أهل البلد ، وجاء ماشياً ليس عليه أثر سفر .

قول جبريل عليه السلام ( أخبرني عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ) .

في هذه الجملة بيان أركان الإسلام التي يقوم عليها ، وهي خمسة أركان ، كما في هذا الحديث وغيره<sup>(١)</sup> .

١. **الشهادتان :** وهي أعظم الأركان وبها يدخل العبد الإسلام ، ويجب النطق بها مع الاعتقاد لمعناها . فمن لم ينطق بها مع القدرة لم يدخل الإسلام ، ومن نطق بها بلا إذعان فهو كافر ، والعياذ بالله . ولها شروط لا بد منها ، ولها نواقض من أتى بها كفر ، ولها شعب ومقامات بقدر تحقيقها تكون درجة العبد في الجنة . وسبق الكلام عن ذلك في دروس التوحيد .

٢. **الصلاة :** وهي الركن الثاني من أركان الإسلام ، وفرضت في السماء السابعة مباشرة بلا واسطة ، ليلة الإسراء والمعراج ، وكانت خمسون صلاة ، ثم خففت في العدد وبقي الأجر كما هو ، فضلاً من الله ونعمة ، فهي خمس في العدد وخمسون في الأجر ، كما في البخاري .

(١) والدليل أن هذه الخمس أركاناً : حديث ابن عمر مرفوعاً ( بني الإسلام على خمس ... ) فدل أنها أساس يبنى عليه غيرها من الأعمال .

فرضت في السنة العاشرة من البعثة ، قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وقيل : كانت قبل ذلك صلاتان ، في أول النهار وآخره ، وهي المرادة بقوله تعالى ( فسبح بحمد ربك قبل طُلوع الشمس وقبل الغروب ) .

والصحيح أن من تركها تركاً مطلقاً كفر ، ومن تهاون بها فقد أتى إثماً عظيماً ، وهي تكفر السيئات بينها .

ولها سننٌ رواتب ، وأخرى مطلقة ، وأخرى مقيدة بحالٍ ، وأخرى بمكانٍ ، وأخرى بزمانٍ ، وكل هذا موجود في كتب الفقه .

٣. الزكاة : وهي الركن الثالث من أركان الإسلام ، فرضت في السنة الثانية من الهجرة على أحوالٍ معلومةٍ ، بأنصبهٍ مقدرةٍ معلومةٍ ، وفي شرعها دليلٌ على سمو الشريعة ومكانتها ، فهي دليلٌ على الترابط الاجتماعي في المجتمع .

من تركها لا يكفر على الصحيح إلا أنه أثمٌ إثماً عظيماً ، وإن تركها أهل بلدٍ قوتلوا .

٤. الصوم : وهو الركن الرابع من أركان الإسلام ، فرض في السنة الثانية من الهجرة ، وصام النبي ﷺ تسع رمضان إجماعاً . ومر تشريعه بمراحل معلومةٍ ، وفيه صلاح الدين والبدن .

وشرع من جنسه صيام تطوعٍ مطلق ، وآخر مقيدٌ بأزمانٍ معينة .

٥. الحج : وهو الركن الخامس من أركان الإسلام ، وفرض في السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة ، وحج النبي ﷺ مرة واحدة في السنة العاشرة ، واعتمر أربع عمر .

وهو واجب على المستطيع على الفور على الصحيح .

ومن فضائله أنه يكفر ذنوب العبد إذا أحسن فيه حتى يرجع كيوم ولدته أمه .

فإن قيل : لماذا علق وجوب الحج بالاستطاعة ، مع أن جميع العبادات لا تجب إلا بالاستطاعة .

كما قال تعالى ( فاتقوا الله ما استطعتم ) وقال تعالى ( لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ) قيل : لأن الغالب ملازمة المشقة فيه ، والغالب أنه لا يكون إلا بسفر ، وقد أخبر النبي ﷺ أن السفر قطعة من العذاب . متفق عليه

فائدة : قول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ ( صدقت ) بعد أن سأله ليبين للناس أن النبي ﷺ صادق فيما يقول ، حيث سيعلم الناس بعد ذلك أنه جبريل .

وأما قول عمر ( فعجبنا له يسأله ويصدق ) لأن من عادة السائل أنه لا يعرف الجواب ، فكيف يقول ( صدقت ) .

قوله : ( قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت ) .

في هذه الجملة بيان أركان الإيمان .

وتعريف الإيمان لغة : التصديق ، قال تعالى عن إخوة يوسف ( وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ) .

قال الأزهري : واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه : التصديق .

وشرعاً : اعتقاد بالجنان ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح والأركان .

وهذا التعريف الشرعي هو على عقيدة أهل السنة والجماعة ، وقد أجمع على ذلك السلف الصالح ، من الصحابة ومن بعدهم من

أئمة الدين ، ولم يختلفوا في أن الإيمان المقبول هو ما جمع بين : اعتقاد القلب ، ولفظ اللسان ، وعمل الجوارح .

وأنه لو تخلف أحد هذه المحال الثلاث لغير عذر فلا إيمان .

## والإيمان له إطلاقان :

١. عام : ويراد به مراتب الدين الثلاثة ، وهو المقصود بقوله ﷺ : الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

٢. خاص : وهو الإيمان بأركان الإيمان الستة .

وأركان الإيمان ستة ، كما في هذا الحديث وغيره ، وهي :

١. الإيمان بالله ، ويشمل :

أ. الإيمان بوجوده : وهذا لا ينكره أحد إلا مكابر . وكل ما في الوجود يدل على الموجود المعبود .

ب. الإيمان بربوبيته : وهو الإيمان بأفعاله ، وأنه الرب ، الخالق ، المدبر ، المحيي ، المميت ، الرازق .

ج. الإيمان بألوهيته : وهو وجوب إفراده بالعبادة ، فلا تصرف العبادة أو شيء منها لغيره .

د. الإيمان بأسمائه وصفاته : وهو الإيمان بما ثبت من أسماء الله وصفاته في الكتاب والسنة ، وإثباتها على ما يليق بالله عز وجل من غير : تحريف ، ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ، ولا تمثيل .

هـ. التذلل له بأنواع العبادات الواجبة ، والمستحبة ، وملازمة ذكره ، وتعليق القلب به في جميع الأمور .

٢. الإيمان بالملائكة ، ويشمل :

أ. الإيمان بوجودهم : وأنهم موجودين وإن كنا لا نراهم ، فمن أنكر ذلك فقد كفر .

ب. الإيمان بصفاتهم :

١. صفاتهم الخلقية : وأنهم من نور ، لا أجواف لهم ، لا يأكلون ولا يشربون ، عظيم خلقهم قال ﷺ : أذن لي أن أحدث عن ملكٍ من ملائكة العرش ، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام .

وجاء في الصحيحين أن جبريل له ستمائة جناح ، وأنه سد الأفق - أي ما بين السماء والأرض - .

وعدهم كثير لا يحصيه إلا من خلقهم ، جاء في الصحيحين في حديث الإسراء والمعراج أن البيت المعمور في السماء السابعة يطوف به كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه أبداً .

وفي صحيح مسلم قال ﷺ : يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها .

٢. صفاتهم الخلقية : هم خلق مطهرون ، يكرهون الخبائث ، ولذا ثبت في الصحيحين أن الملائكة تتأذى من الثوم والبصل . وهم شديداً الحياء ، جاء في الحديث : ألا أستحي من رجلٍ تستحي منه الملائكة .

ومن خلقهم أنهم لا يتقدمون الله بالأمر والطلب ، قال تعالى ( لا يسبقونه بالقول ) .

وهم دائمو العبادة لله لا يفترون ولا يستمنون ، قال تعالى ( فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون ) وهم لا يعصون الله أبداً ، قال تعالى ( لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ) .

ج. الإيمان بتفاضلهم : فالملائكة يتفاضلون ، كما قال تعالى ( الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ) وقال تعالى ( تلك

الرسل فضلنا بعضهم على بعض ) وعند البخاري أن جبريل قال لرسول الله ﷺ : ما تعدون شهداء بدرٍ فيكم ؟ قال : خيارنا . قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم عندنا من خيارنا .

وأفضلهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، وأفضلهم على الإطلاق جبريل عليه السلام .

د. الإيمان بأعمالهم : وهو أن الله أوكل إليهم أعمالاً يقومون بها ، فجبريل رسول الله إلى المرسلين ، وميكائيل موكل بالقطر ، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور ، وملك الموت بقبض الأرواح وله أعوان ، وهناك مالك خازن النار ، ورضوان خازن الجنة ، وملك موكل بنفخ الروح ، وملك للجبال ، وملك للسحاب ، وملائكة في الأرض سياحون ، وملائكة ساجدة لله أو راکعة منذ أن خلقت ، خلق لا يحصيهم إلا من خلقهم .

هـ. الإيمان بضعفهم بالنسبة إلى الله ، فقد جاء في الحديث أن الله إذا تكلم بالوحي أخذت السماء منه رجفة وصعقت الملائكة .

### ٣. الإيمان بالكتب ، وهي الكتب التي أنزلها الله على بعض رسله ، ويشمل :

أ. الإيمان بوجودها : وأن الله أنزل على بعض الرسل كتباً يقرؤونها ويحكمون بها ، وإن لم نرها .  
ب. الإيمان بأسمائها : فالقرآن على محمد ﷺ ، والتوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، والزبور على داود ، والصحف على إبراهيم .

وأما صحف موسى فقليل هي التوراة ، وقيل غيرها . والله أعلم .

ج. الإيمان بنسخها : فلا يجوز العمل بها ، حتى لأهلها ، قال تعالى ( وأنزلنا عليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ) وقال تعالى ( ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ) .

د. الإيمان بتفاضلها : وأن القرآن أعظمها ، وأفضلها ، وأجمعها .

وأشهر الكتب بعد القرآن التوراة ، والإنجيل .

### ٤. الإيمان بالرسل ، ويشمل :

أ. الإيمان بوجودهم : وأن الله أرسل رسلاً في كل قوم . قال تعالى ( وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ) .

ب. الإيمان بأسمائهم وعددهم : وقد ذكر لنا في القرآن من الأسماء خمسة وعشرون رسلاً ، وعددهم كثير ، جاء عند أحمد وغيره من حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن عدد الأنبياء فقال : مائة ألف وأربع وعشرون ألفاً . وأما الرسل فقال : ثلاثمائة وبضعة عشر .

ج. الإيمان بتفاضلهم : قال تعالى ( تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ) .

والرسل هم أفضل الأنبياء ، وأفضل الرسل أولو العزم منهم ، وهم : محمد ﷺ ، وإبراهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى ، وأفضلهم على الإطلاق محمد ثم إبراهيم .

د. الإيمان بقيامهم بالواجب : قال تعالى ( ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ) .

هـ. الإيمان بحسن صفاتهم : قال تعالى ( الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ) .

### ٥. الإيمان باليوم الآخر :

وهو يوم القيامة الذي لا يوم بعده ، ويشمل : الإيمان بحصوله ، والإيمان بما يحصل فيه من أهوال ، وأمور عظيمة ، وما يحصل فيه من أحداث .

ومن الإيمان به : الإيمان بالحوض ، والحشر ، والحساب ، والميزان ، والشفاعة ، وغير ذلك مما سبق الكلام عليه في شرح ( الواسطية ) .

ومن الإيمان به : الإيمان بالجنة ، والنار ، وما فيهما .

ويرى ابن تيمية أن اليوم الآخر يبدأ من موت الإنسان ، فيدخل فيه ما يحصل في سكرات الموت ، وما يحصل في القبر من نعيم وعذاب .

٦. الإيمان بالقدر خيره وشره : وهو أن يعلم ويعتقد بأن كل شيء يحدث في هذا الكون قد سبق به قدر الله ، وأن الله عالم بهذه الأحوال قبل أن يخلق الخلق ، وأنه كتب ذلك كله ، وأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .  
والإيمان بالقدر درجتان :

الدرجة الأولى : قبل وقوع المقدور ، وتشمل ( العلم ، والكتابة ) .

١. العلم : فالله عز وجل قد أحاط بكل شيء علماً ، أزلاً وأبداً ، وأنه لا تخفى عليه خافية ، وعلم كل ما سيفعله العباد ، وكل ما يحصل في الكون من دقيق وجليل ، فعلمه بالكيلات ، والجزئيات سابق ، فكل ما يوجد من أعيان ، وأوصاف ، وأفعال ، وأحداث ، فهو مطابق لعلم الله السابق .

وأدلة ذلك في الكتاب والسنة مستفيضة ، قال تعالى ( إن الله بكل شيء عليم ) وقال تعالى ( وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ) وقال تعالى ( وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ) وقال تعالى ( وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ) وقال تعالى ( يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ) والآيات في عموم علم الله كثيرة .

٢. الكتابة : وهي أن الله تعالى كتب ذلك كله في اللوح المحفوظ ، فما عَلِمَ الله كونه ، ووقوعه من مقادير الخلائق ، وأصناف الموجودات ، وما يتبع ذلك من الأحوال ، والأوصاف ، والأفعال ، ودقيق الأمور ، وجليلها ، قد أمر الله القلم بكتابته ، كما قال تعالى ( ما فرطنا في الكتاب من شيء ) وقال تعالى ( وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ) وقال ﷺ : كتب في الذكر كل شيء . رواه البخاري

وقال ﷺ : كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء . رواه مسلم وأخرج أحمد ، وأبو داود ، والترمذي أنه ﷺ قال : إن أول ما خلق الله القلم ، قال له : أكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

قال ابن القيم : وأجمع الصحابة ، والتابعون ، وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب . ودليل الدرجتين جميعاً قوله تعالى ( ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ) . وقوله تعالى ( والله خلقكم من تراب ثم نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ) .

تنبيه هام : درجة العلم أوسع من درجة الكتابة ، لأن علم الله أزلي ، أبدي ، فهو من صفات الذات ، أما الكتابة فهي حادثة بعد خلق القلم ، واللوح ، ولها نهاية ، كما في الحديث ( اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ) .

الدرجة الثانية المقارنة للمقدور ، وتشمل ( المشيئة ، والخلق ) .

٣. المشيئة : الإيمان بعموم مشيئة الله ، وأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا يقع في ملكه ما لا يريد كونه ، وأن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي واقعة بتلك المشيئة العامة التي لا يخرج عنها كائن ، كما لا يخرج عن علمه شيء ، سواء كان



مما يحبه الله ويرضاه ، أم لا ، فالإيمان والكفر ، والخير والشر ، والطاعة والمعصية كل ذلك واقع بإرادة الله ، إما الكونية ، أو الشرعية .

وأدلة ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى ( ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ) وقوله تعالى ( ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ) وقوله تعالى ( ولو شاء الله ما اقتتلوا ) .

٤. الخلق : الإيمان بأن جميع الأشياء واقعة بقدر الله تعالى ، وأنها مخلوقة له ، كما قال تعالى ( الله خالق كل شيء ) وقال تعالى ( والله خلقكم وما تعملون ) فالله خالق ، وما سواه - من الذوات ، والصفات ، والأفعال - مخلوق .  
ومن ذلك : أفعال العباد ، فهي مخلوقة لله ، كما قال تعالى ( والله خلقكم وما تعملون ) وهي مع ذلك تقع باختيارهم ، لا يجبرون عليها ، بل هي أفعالهم على الحقيقة لا على المجاز .

قوله ( فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ) .

في هذه الجملة بيان معنى الإحسان ، وهو أعلى مراتب الدين ، وهو مقام الخاصة .

والإحسان لغة : مشتق من الحسن . ويطلق على : الإتقان والإجادة ، لأن الشيء كلما أتقن ظهر حسنه .

والإحسان هو مقام المراقبة ، مراقبة العابد لربه جلا وعلا أثناء عبادته ، وفي أحواله كلها .

وتعظم مرتبة الإحسان بعظم مراقبة الله ، وتضعف بضعف مراقبة الله .

يقول ابن القيم : فحظ العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان ، وبحسبه تتفاوت الصلاة حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض ، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد .

ويقول ابن رجب في فتح الباري : فهذه أعلى درجات الإيمان ومراتبه ، ويتفاوت المؤمنون ، والمحسنون في تحقيق هذا المقام تفاوتاً كثيراً بحسب تفاوتهم في قوة الإيمان ، والإحسان .

ومن جميل كلام ابن القيم رحمه الله قوله : لا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .

مسألة : يرى جمع من أهل العلم أن تعريف الرسول ﷺ للإحسان تضمن مرتبتين :

١. مرتبة الاستحضار ( المشاهدة ) فتشعر في عبادتك أنك بين يدي الله ، كأنك تشاهده .

٢. مرتبة الاطلاع ( المراقبة ) فتستحضر أن الله مطلع عليك ويراقبك ، وهذا يورث أن تحسن العبادة .

فالمرتبة الأولى ( المشاهدة ) تشعر أنك ترى الله ، والمرتبة الثانية ( المراقبة ) تستحضر أن الله يراك .

ويجعلون الأولى : مرتبة طلب وشوق ، والثانية : مرتبة هرب وخوف .

ولذا يجعلون المرتبة الأولى أفضل من المرتبة الثانية .

قال ابن رجب في فتح الباري : فهذان مقامان : أحدهما : مقام المراقبة ، وهو أن يستحضر العبد قرب الله منه ، واطلاعه عليه ، فيتخايل أنه لا يزال بين يدي الله ، فيراقبه في حركاته وسكناته ، وسره وعلايته ، فهذا مقام المراقبين المخلصين ، وهو أدنى مقام الإحسان .

والثاني : أن يشهد العبد بقلبه ذلك شهادة ، فيصير كأنه يرى الله ويشاهده ، وهذا نهاية مقام الإحسان ، وهو مقام العارفين .

قال بعض السلف : من عمل لله على المشاهدة فهو عارف ، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص .

وقال ابن حجر : وإحسان العبادة : الإخلاص فيها ، والخشوع ، وفراغ البال حال التلبس بها ، ومراقبة المعبود ، وأشار في الجواب إلى حالتين أرفعهما : أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه ، وهو قوله ( كأنك تراه ) أي : وهو يراك ، والثانية : أن يستحضر أن الحق مطلع عليه ، يرى كل ما يعمل ، وهو قوله ( فإنه يراك ) .

وقال شيخنا ابن عثيمين : فيها هنا مرتبتان : المرتبة الأولى : أن تعبد الله كأنك تراه ، وهذه مرتبة الطلب .

والثانية : أن تعبد الله وأنت تعلم أنه يراك ، وهذه مرتبة الهرب ، وكتلتاهما مرتبتان عظيمتان ، لكن الأولى أكمل وأفضل أ.هـ. ولكن الناظر في تعريف الرسول ﷺ للإحسان يلاحظ أنه مرتبة واحدة ، وهي مرتبة المراقبة لله عز وجل ، بأن يعبد الله كأنه يراه ، وهذا يورث الخضوع ، والخشوع ، والحضور ، وإتقان العبادة .

وأما قوله ﷺ ( فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك ) فهذا كالوسيلة لتحقيق تلك المرتبة ، والله أعلم .

وقد نقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري عن النووي أنه قال : فتقدير الحديث : فإن لم تكن تراه فاستمر على إحسان العبادة فإنه يراك .

والفرق بين كوننا نجعل للإحسان مرتبتين ، أو مرتبة واحدة ، أن يقال : من جعل الإحسان مرتبتين يقول : من جاء بإحدى المرتبتين فهو محسن ، كما يصرح بذلك من قال بذلك ، ويقولون : انتقل من المرتبة الدنيا في الإحسان إلى المرتبة العظمى فيه . ومن يجعله مرتبة واحدة يقول : الإحسان هو : أن تعبد الله كأنك تراه . فإن وصلت لذلك فأنت محسن وإلا فلا ، والوسيلة لهذا المقام أن تستشعر في عبادتك أن الله مطلع عليك ويراك فإن داومت على ذلك ربما حصل لك مقام الإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه ، والله تعالى أعلم .

قوله ( فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ) .

في هذه الجملة الكلام عن الساعة ، وبعض أشراتها الصغرى .

وعلم وقوع الساعة من الأمور التي لم يطلع الله عليها أحد من خلقه ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، فهذا جبريل أفضل رسول ملكي ، وهذا محمد أفضل رسول بشري لا يعرفون متى تقوم الساعة ، فغيرهما من باب أولى .

وجاء في البخاري عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، ثم قرأ هذه الآية ( إن الله عنده علم الساعة ) الآية .

لكن الله جعل أشرطاً وعلامات تسبق وقوع الساعة ، منها علامات صغرى ، وهي كثيرة ، وأكثرها وقع ، وعلامات كبرى ، وهذه لم يقع منها شيء ، ولو وقع شيء منها تتابع البقية خلفه .

والعلامات الكبرى عشرة ذكرها النبي ﷺ كما في حديث حذيفة بن أسيد أن الرسول ﷺ قال : إنها لن تقوم الساعة حتى تروا

قبلها عشر آيات ، فذكر : الدخان ، و الدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج

ومأجوج ، وثلاث خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد

الناس إلى محشرهم . رواه مسلم

وذكر النبي ﷺ في هذا الحديث علامتان من علامات الساعة الصغرى ، وهي :

أ. أن تلد الأمة ربتها ، وفي رواية ( ربها ) واختلف العلماء في معنى ذلك .

١. أن تلد الأمة من يكون سيد لغيرها لا لها ، والأمة من نفس الجنس . ويميل إليه شيخنا ابن عثيمين . والمعنى أن السيد يكون ابن أمة .

٢. أن يكثر جلب الرقيق ، حتى تجلب البنت فتعتق ، ثم تجلب الأم فتشتريها البنت وتستخدمها جاهلة بأنها أمها ، وقد وقع هذا في الإسلام .

٣. أن يكثر العقوق في الأولاد ، فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته ، من حيث السب ، والضرب ، والاستخدام ، والإهانة . ويميل إليه ابن حجر .

٤. أن أم الولد تعتق بموت سيدها ، فكأن ولدها هو الذي أعتقها ، فصار كأنه سيدها .

٥. أن يلد العجم العرب . قاله وكيع .

٦. أن السيد يلد من هذه الأمة ولداً يكون سيداً لأمه ، إما لأن أباه سيد ، أو لأنه سوف يخلف أباه ويكون هو السيد . وهذا والله أعلم أقرب الأقوال<sup>(١)</sup> .

ب. أن يتناول الأعراب الفقراء في البنيان .

وهذا التطاول إما أن يكون برفع الأبنية ، أو يكون بتزيينها ، وحسن تشييدها ، والتنافس والتطاول على بعض في ذلك .

(١) قال ابن حجر في الفتح : قال ابن التين : اختلف فيه على سبعة أوجه ، فذكرها ، لكنها متداخلة ، وقد لخصتها بلا تداخل فإذا هي أربعة أقوال :

الأول : قال الخطابي معناه اتساع الإسلام ، واستيلاء أهله على بلاد الشرك ، وسبى ذراريهم ، فإذا ملك الرجل الجارية واستولدها كان الولد منها بمنزلة رها ، لأنه ولد سيدها .

قال النووي وغيره : إنه قول الأكثرين . قلت : لكن في كونه المراد نظر ، لأن استيلاء الاماء كان موجوداً حين المقالة ، والاستيلاء على بلاد الشرك وسبى ذراريهم واتخاذهم سراري وقع أكثره في صدر الإسلام ، وسياق الكلام يقتضي الإشارة إلى وقوع ما لم يقع مما سبق قرب قيام الساعة .

وقد فسره وكيع في رواية ابن ماجة بأخص من الأول ، قال : أن تلد العجم العرب .

ووجه بعضهم بأن الاماء يلدن الملوك ، فتصير الأم من جملة الرعية ، والملك سيد رعيته ، وهذا لإبراهيم الحربي .

وقربه بأن الرؤساء في الصدر الأول كانوا يستنكفون غالباً من وطء الاماء ، ويتنافسون في الحرائر ، ثم انعكس الأمر ، ولا سيما في اثناء دولة بني العباس . ولكن رواية ( ربتها ) بناء التأنيث قد لا تساعد على ذلك .

ووجه بعضهم بأن إطلاق ( ربتها ) على ( ولدها ) مجاز ، لأنه لما كان سبباً في عتقها بموت أبيه أطلق عليه ذلك .

وخصه بعضهم بأن السبي إذا كثر فقد يسبى الولد أولاً وهو صغير ، ثم يعتق ويكبر ويصير رئيساً ، بل ملكاً ، ثم تسبى أمه فيما بعد فيشتريها عارفاً بها ، أو وهو لا يشعر أنها أمه ،

فيستخدمها ، أو يتخذها موطوءة ، أو يعتقها ويتزوجها ، وقد جاء في بعض الروايات ( أن تلد الأمة بعلمها ) وهي عند مسلم ، فحمل على هذه الصورة ، وقيل المراد بالبعيل المالك ، وهو أولى لتنفق الروايات .

الثاني : أن تباع السادة أمهات أولادهم ، ويكثر ذلك ، فيتداول الملاك المستولدة ، حتى يشتريها ولدها ولا يشعر بذلك ، وعلى هذا فالذي يكون من الأشراف : غلبة الجهل بتحريم بيع أمهات الأولاد ، أو الاستهانة بالأحكام الشرعية .

فإن قيل : هذه المسألة مختلف فيها ، فلا يصلح الحمل عليها ، لأنه لا جهل ، ولا استهانة عند القائل بالجواز .

قلنا : يصلح أن يحمل على صورة اتفاقية ، كبيعها في حال حملها ، فإنه حرام بالإجماع .

الثالث : وهو من غط الذي قبله ، قال النووي : لا يختص شراء الولد أمه بأمهات الأولاد ، بل يتصور في غيرهن ، بأن تلد الأمة حراً من غير سيدها بوطء شبيهة ، أو رقيقاً بنكاح ، أو زنا ، ثم تباع الأمة في صورتين بيعاً صحيحاً ، وتدور في الأيدي حتى يشتريها ابنها أو ابنتها .

ولا يعكر على هذا تفسير محمد بن بشر بأن المراد السراري ، لأنه تخصيص بغير دليل .

الرابع : أن يكثر العقوق في الأولاد ، فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته ، من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام ، فأطلق عليه ( رها ) مجازاً لذلك ، أو المراد بالرب المربي ، فيكون حقيقة .

وهذا أوجه الأوجه عندي لعمومه ، ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال ، مستغربة . ومحصلة الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس

الأمر ، بحيث يصير المربي مريباً ، والسافل عالياً ، وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى : أن تصير الحفاة ملوك الأرض أ.هـ.

قال ابن دقيق العيد : إنما خص رعاء الشاء بالذكر لأنهم أضعف أهل البادية ، معناه أنهم من ضعفهم وبعدهم عن أسباب ذلك ، بخلاف أهل الإبل فإنهم في الغالب ليسوا عالة ولا فقراء .

قوله ( ثم انطلق فلبث ملياً ، ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ) .

وفي حديث أبي هريرة قال ﷺ : ردوا علي الرجل ، فأخذوا ليردوه فلم يرو شيئاً .

قال ابن حجر : واتفقت هذه الروايات على أن النبي ﷺ أخبر الصحابة بشأنه بعد أن التمسوه فلم يجدوه ، وأما ما وقع عند مسلم وغيره من حديث عمر في رواية كهمس : ثم انطلق ، قال عمر : فلبث ملياً ، ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل .

فقد جمع بين الروایتين بعض الشراح بأن قوله ( فلبث ملياً ) أي : زماناً بعد انصرافه . فكأن النبي ﷺ أعلمهم بذلك بعد مضى وقت ، ولكنه في ذلك المجلس .

لكن يعكر على هذا الجمع قوله في رواية النسائي والترمذي ( فلبث ثلاثاً ) لكن ادعى بعضهم فيها التصحيف ، وأن ( ملياً ) صغرت ميمها ، فأشبهت ( ثلاثاً ) لأنها تكتب بلا ألف .

وهذه الدعوى مردودة ، فإن في رواية أبي عوانة ( فلبثنا ليالي ، فلقيني رسول الله ﷺ بعد ثلاث . ولابن حبان ( بعد ثلاثة ) ولابن منده ( بعد ثلاثة أيام ) .

وجمع النووي بين الحديثين بأن عمر لم يحضر قول النبي ﷺ في المجلس ، بل كان ممن قام ، إما مع الذين توجهوا في طلب الرجل ، أو لشغل آخر ، ولم يرجع مع من رجع ، لعارض عرض له ، فأخبر النبي ﷺ الحاضرين في الحال ، ولم يتفق الإخبار لعمر إلا بعد ثلاثة أيام ، ويدل عليه قوله ( فلقيني ) وقوله ( فقال لي : يا عمر ) فوجه الخطاب له وحده ، بخلاف إخباره الأول ، وهو جمع حسن .

وقال ابن حجر : دلت الروايات التي ذكرناها على أن النبي ﷺ ما عرف أنه جبريل إلا في آخر الحال ، وأن جبريل أتاه في صورة رجل حسن الهيئة ، لكنه غير معروف لديهم ، وأما ما وقع في رواية النسائي من طريق أبي فروة في آخر الحديث ( وإنه لجبريل ، نزل في صورة دحية الكلبي ) فإن قوله ( نزل في صورة دحية الكلبي ) وهم ، لأن دحية معروف عندهم ، وقد قال عمر : ما يعرفه منا أحد .

## بعض الآثار الواردة في شأن الأُنس بالله ، والمعاملة معه ، لقوله ( أن تعبد الله كأنك تراه ) :

يروى عن معاذ أن النبي ﷺ وصاه لما بعثه إلى اليمن ، فقال : ( استحي من الله كما تستحي رجلاً ذا هيبة من أهلك ) رواه البزار ، وقال الهيثمي وفيه ابن لهيعة ، وفيه لين ، وبقيّة رجاله ثقات .  
وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل : ( أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه ) رواه أحمد والحاكم وصححه ، وصححه الألباني .

وقال بكر المزني : من مثلك يا ابن آدم خلي بينك وبين الخراب والماء كلما شئت دخلت على الله عز وجل ليس بينك وبينه ترجمان .

وقال بعضهم : من لم تقر عينه بك فلا قرت عينه ، ومن لم يأنس بك فلا أنس .

وقال غزوان : إني أصبت راحة قلبي في مجالسة من لديه حاجتي .

وقال الفضيل : طوبى لمن استوحش من الناس وكان الله جليسه .

وقال مسلم العابد : لولا الجماعة ما خرجت من باي أبداً حتى أموت ، ما يجد المطيعون لله لذة في الدنيا أحلى من الخلوة بمنجاة سيدهم .

وقيل لمالك بن مغول وهو جالس في بيته وحده : ألا تستوحش ؟ فقال : ويستوحش من الله أحد .

## ما يستفاد من الحديث :

سبق ذكر بعض ما يستفاد من الحديث في أول شرح الحديث ، ويضاف إلى ذلك :

١ . أن الإنسان إذا سُئل عما لا يعلم فإنه يقول : لا أعلم ، كما قال ﷺ حينما سأله جبريل عن وقت الساعة : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

وقد قيل : لا أعلم نصف العلم . وقيل : من ترك لا أعلم أصيبت مقاتله .

٢ . التعليم عن طريق السؤال والجواب ، وهي طريقة شرعية نافعة جداً .

٣ . أن العناية إنما تكون أشد في أصول الدين ، فإذا فُهِمَت انتقل بعد ذلك إلى الفروع ، وهذا يكون في التعلم والتعليم . ولا ينبغي الانشغال بالفروع قبل ضبط الأصول .

٤ . الانتباه في مجالس العلم يثمر الحفظ والفهم ، يظهر ذلك من سرد عمر للقصة ، وحفظه للأسئلة والأجوبة .

٥ . فيه بيان حفظ الصحابة وشدة حرصهم على تعلم العلم .

٦ . أن السائل له حكم المعلم ، لأن النبي ﷺ قال في آخر الحديث : هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم .

وفي صحيح مسلم : هذا جبريل أراد أن تعلموا إذ لم تسألوا .

فينبغي في المجالس أن ينبري من يريد الخير بالسؤال ليحصل له أجر التعليم والفائدة .

٧ . أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب ، لقوله ﷺ : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

٨ . أن الإحسان والإيمان يمكن أن يرتفعا مع بقاء الإسلام ، وأما الإسلام لو ارتفع حل الكفر .

### الحديث الثالث

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان . رواه البخاري ومسلم

تخریجه : متفق عليه .

مكانته : قال النووي : هذا الحديث أصل عظیم في معرفة الدين ، وعليه اعتماده ، وقد جمع أركانه .

موضوعه : ذكر مباني الدين وأركانه الخمس .

شرحه : سبق شرح هذا الحديث ضمناً في الحديث الثاني .

والمراد بالإسلام هنا : الإسلام بالمعنى الخاص ، لأن لفظ الإسلام يطلق ويراد به معنيان ، كما يأتي .

والإسلام لغة : الاستسلام .

والاستسلام : مشتق من التسليم ، كما يقال : استسلم فلان للقتل ، أي : أسلم نفسه وانقاد وخضع ، أو من المسالمة : وهو ترك المنازعة .

والاستسلام لله على ضربين :

١ . الاستسلام الشرعي : وهو الإذعان لله اختياراً ، وذلك بتوحيده وإفراده بالعبادة والطاعة .

وهذا هو المطلوب من العبد ، وهو الذي يحمد عليه ، ويثاب عليه .

٢ . الاستسلام القدري : وهو الإذعان القهري لله ، بحيث لا يخرج مخلوق عن قدرة الله عليه .

وهذا الذي لا حيلة للإنسان فيه ، ولا يثاب عليه ، قال تعالى ( وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ) .

والإسلام شرعاً : الاستسلام لله بالطاعة ، بفعل الأوامر وترك النواهي .

ويطلق الإسلام على معنيين :

١ . الإسلام بالمعنى العام : وهو توحيد لله ، وطاعة الرسول واتباعه في زمانه .

كما أخبر سبحانه في آيات كثيرة أن الشرائع السابقة كلها إسلام لله ، قال تعالى عن نوح ( فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ) وقال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل ( ربنا واجعلنا مسلمين لك ) وقال تعالى في لوط ( فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ) وقال تعالى عن فرعون أنه قال عند معاينة الهلاك ( قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ) أي : المتبعين لموسى .

وعليه فاليهود مسلمون في زمن موسى ، والنصارى مسلمون في زمن عيسى ، إذا كانوا متبعين لرسولهم ، وأما بعد البعثة فلا إلا أن يتبعوا شريعتنا ، قال تعالى ( ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ) .

وقال ﷺ : والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة <sup>(١)</sup> يهودي ، ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت إلا كان من أصحاب النار . رواه مسلم . وهذا هو الإسلام بالمعنى الخاص .

٢. الإسلام بالمعنى الخاص : وهو الدين الذي بعث الله به النبي ﷺ ، لأنه نسخ جميع الأديان ، وهو المراد إذا أطلق .  
ويقوم هذا الإسلام على خمسة أركان لا بد منها ، وهذه الأركان منها أركان أساس ، ومنها أركان تمام ، كما قال حافظ حكيم يرحمه الله ، فتارك الشهادتين كافر بالإجماع ، وتارك الصلاة كافر على الصحيح ، بل نقل إجماع الصحابة على ذلك ، لكن العلماء اختلفوا في القدر الذي إذا تركه كفر به ، والصحيح والله أعلم أنه لا يكفر إلا إذا تركها تركاً كلياً ، كما اختار ذلك ابن تيمية ، وشيخنا ابن عثيمين .

وأما تارك الزكاة ، والصوم ، والحج فالصحيح أنه لا يكفر ، ولكنه ارتكب إثماً عظيماً ، وذنباً كبيراً ، نسأل الله السلامة والعافية (٢)

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : والمقصود تمثيل الإسلام بنيانه ، ودعائم البنيان هذه الخمس ، فلا يثبت البنيان بدونها ، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان ، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان وهو قائم لا ينتقض بنقص ذلك ، بخلاف نقص هذه الدعائم الخمس ، فان الإسلام يزول بفقدها جميعها بغير إشكال ، وكذلك يزول بفقد الشهادتين أ.هـ

وقال ابن رجب في فتح الباري : وإذا كانت هذه دعائم البنيان وأركانه ، فبقية خصال الإسلام كبقية البنيان ، فإذا فقد شيء من بقية الخصال الداخلة في مسمى الإسلام الواجب نقص البنيان ولم يسقط بفقد ، وأما هذه الخمس فإذا زالت كلها سقط البنيان ولم يثبت بعد زوالها ، وكذلك إن زال منها الركن الأعظم وهو الشهادتان ، وزوالهما يكون بالإتيان بما يضادها ولا يجتمع معهما .  
وأما زوال الأربع البواقي فاختلف العلماء هل يزول الاسم بزوال واحد منها ؟ أم لا يزول بذلك ؟ أم يفرق بين الصلاة وغيرها ، فيزول بترك الصلاة دون غيرها ؟ أم يختص زوال الإسلام بترك الصلاة والزكاة خاصة ؟

وفي ذلك اختلاف مشهور ، وهذه الأقوال كلها محكية عن الإمام أحمد ، وكثير من علماء أهل الحديث يرى تكفير تارك الصلاة ، وحكاة إسحاق بن راهويه إجماعاً منهم ، حتى إنه جعل قول من قال ( لا يكفر بترك هذه الأركان مع الإقرار بها ) من أقوال المرجئة أ.هـ

وهذه الأركان نوع الله امتحان العباد فيها ، فمنها ما كان الواجب فيه بذل المحبوب كالزكاة ، ومنها ما كان الواجب فيه الإمساك عن المحبوب كالصيام .

ومنها ما يكون بالبدن كالصلاة ، والصوم ، ومنها ما يكون بالمال كالزكاة ، ومنها ما يكون بالبدن والمال كالحج .

(١) المقصود أمة الدعوة ، لا أمة الإجابة .

(٢) هناك رواية عن الإمام أحمد أن من ترك أحد المباني الخمسة فهو كافر .

مسألة : وقع هنا تقديم الحج على الصوم ، ووقع في أحاديث أخرى تقديم الصوم على الحج ، وهو الأكثر ، ولعل تقديم الحج من تصرف بعض الرواة ، والرواية بالمعنى ، خاصة مع جزم ابن عمر حين قال رجل : والحج ، وصيام رمضان . فقال ابن عمر : لا ، صيام رمضان ، والحج ، هكذا سمعت من رسول الله ﷺ .

قال ابن حجر : وقع هنا تقديم الحج على الصوم ، وعليه بنى البخاري ترتيبه ، لكن وقع في مسلم من رواية سعد بن عبيدة عن ابن عمر بتقديم الصوم على الحج ، قال : فقال رجل : والحج ، وصيام رمضان . فقال ابن عمر : لا ، صيام رمضان ، والحج ، هكذا سمعت من رسول الله ﷺ . انتهى ، ففي هذا اشعار بأن رواية حنظلة التي في البخاري مروية بالمعنى ، أما لأنه لم يسمع رد ابن عمر على الرجل لتعدد المجلس ، أو حضر ذلك ثم نسيه ، ويبعد ما جوزه بعضهم أن يكون ابن عمر سمعه من النبي ﷺ على الوجهين ونسي أحدهما عند رده على الرجل ، ووجه بعده أن تطرق النسيان إلى الراوي عن الصحابي أولى من تطرقه إلى الصحابي ، كيف وفي رواية مسلم من طريق حنظلة بتقديم الصوم على الحج ، ولأبي عوانة من وجه آخر عن حنظلة أنه جعل صوم رمضان قبل ، فتنويعه دال على أنه روى بالمعنى ، ويؤيده ما وقع عند البخاري في التفسير بتقديم الصيام على الزكاة ، أفيقال : إن الصحابي سمعه على ثلاثة أوجه ، هذا مستبعد ، والله أعلم .

وقال ابن دقيق : وقد وقع في بعض الروايات في هذا الحديث تقديم الحج على الصوم ، وهو وهم والله أعلم ، لأن ابن عمر لما سمع المستعبد يقدم الحج على الصوم زجره ونهاه عن ذلك ، وقد قدم الصوم على الحج وقال : هكذا سمعته من رسول الله ﷺ .

### ما يستفاد من الحديث :

١. أهمية هذه الأركان الخمسة حيث بني عليها دين الإسلام .
٢. جواز إطلاق لفظ ( رمضان ) مجرداً عن لفظ ( شهر ) خلافاً لمن منع ذلك .



## الحديث الرابع

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ، فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها . رواه البخاري ومسلم .

تخریجه : متفق عليه (١) .

مكانته : سبق أن إسحاق بن راهويه جعل هذا الحديث ربع الدين ، لما تضمنه من ذكر بداية خلق الإنسان وخاتمته .  
موضوعه : بيان بداية خلق الإنسان وكيفية ذلك ، ثم ذكر كتابة المقادير عليه ، ثم بيان أنه لا ينبغي للإنسان أن يغتر بحاله أو يئأس من ذلك ، لأن العبرة بالخواتيم .

شرحه :

قوله ( حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق ) .

الصادق فيما يُخبر به ، والمصدوق فيما يُخبر به .

والمعنى أنه ﷺ صادق فيما يخبر به من الأخبار ، وهو مصدوق في ذلك الخبر ، أي أن خبر الله له كله صدق .

وقيل : معنى ( المصدوق ) المصدق ، والمعنى أن الله يصدقه ويؤيده بما يدل على صدقه .

والكل صحيح فهو مصدوق فيما أخبر به ، ومصدق في ذلك ، كما في أحاديث كثيرة يخبرهم ﷺ بأمر فتحدث كما أخبر ، وكذا تأييد الله له بالمعجزات التي تصدق نبوته ورسالته .

وفائدة هذه المقدمة من ابن مسعود : أن ما سيذكره هو من أمور الغيب التي يجب على المسلم التصديق بها وإن لم يتمكن من معرفة حقيقة هذا الخبر . وهذا من فقه ابن مسعود رضي الله عنه .

(١) يغير هذا السياق ، ولا يوجد ذكر ( نطفة ) في أول الحديث .

ويلاحظ أن النووي رحمه الله يتصرف في ألفاظ الأحاديث ، فيلحق سياقاً للحديث من مجموع ألفاظه ، وكأنه يكتب من حفظه رحمه الله ، والأولى الالتزام بالسياق الوارد في الأصول .

قوله ( إن أحذكهم يجمع<sup>(١)</sup> خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ) .  
ليس في لفظ الصحيحين ، ولا في السنن الأربع ذكر ( نطفة ) هنا .

وفي هذه الجملة ذكر مراحل تكوين الإنسان في بطن أمه قبل أن تنفخ فيه الروح ، وذكر أنه يمر بثلاث مراحل أو أطوار أساسية وهي : النطفة ، والعلقة ، والمضغة .

وهذه المراحل الثلاث جاء ذكرها في سورة الحج في قوله تعالى ( يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ... ) .  
وقد ذكر الله تعالى في سورة ( المؤمنون ) الأطوار التي يمر بها الإنسان بأكثر من ذلك ، فذكر سبعة أطوار ، قال تعالى ( ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين \* ثم جعلناه نطفة في قرار مكين \* ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا المضغة فخلقنا المضة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ) .

وكان ابن عباس يقول : خلُق ابن آدم من سبع ، ثم يتلو هذه الآية .  
وهذه الأطوار هي<sup>(٢)</sup> :

١. **النطفة** : وهو الطور الأول الذي يمر به الجنين بعد التقاء الحيوان المنوي مع البويضة .

والنطفة تطلق على مني الرجل ، وتطلق على مني المرأة ، قال ﷺ : من كل يُخلق : من نطفة الرجل ، ونطفة المرأة . رواه مسلم  
وتطلق على امتزاج مني الرجل بمني المرأة عند التلقيح ، وتسمى حينئذ ( أمشاج ) قال تعالى ( إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج )  
فالأمشاج إذاً هي البويضة الملقحة .

وأثبت الطب الحديث أن هذه المرحلة تستمر إلى سبعة أيام من حين التلقيح ، حيث تتطور هذه النطفة وتمر بمراحل ، وتتضاعف خلاياها ، لكنها تحافظ على إنسيابيتها وكونها نطفة ، حتى تتعلق هذه النطفة بجدار الرحم في نهاية الأسبوع الأول من التلقيح  
فتنفذ حينها إنسيابيتها ، وتتحول إلى طور العلقه .

٢. **العلقه** : وهو الطور الثاني الذي يمر به الجنين ، قال تعالى ( ثم خلقنا النطفة علقه ) .

وسميت ( علقه ) لمعنيين :

الأول : لأنها تتعلق بجدار الرحم مع بداية الأسبوع الثاني من التلقيح .

(١) ذكر بعض العلماء أن كلمة ( يجمع ) تدل على أن الشيء كان قبل ذلك متفرقاً ، وقد جاء تفسير ( الجمع ) من كلام ابن مسعود فقال : إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر ، فتمكث أربعين يوماً ، ثم تنحدر في الرحم فتكون علقه ، قال : فذلك جمعها . أخرجه ابن أبي حاتم ، والخطابي في معالم السنن ، والبيهقي في الأسماء والصفات .  
وروي تفسير الجمع مرفوعاً بمعنى آخر ، فخرج الطبراني ، وابن مندة في كتاب التوحيد من حديث مالك بن الحويرث أن النبي ﷺ قال : إن الله إذا أراد خلق عبد فجامع الرجل المرأة طار ماؤه في كل عرق وعضو منها ، فإذا كان يوم السابع جمعه الله ، ثم أحضره كل عرق له دون آدم ( في أي صورة ما شاء ركبك ) ورواه أيضاً البيهقي .

قال ابن رجب : ويشهد لهذا المعنى قول النبي ﷺ للذي قال له : ولدت امرأة غلاماً أسود : لعله نزعة عرق . متفق عليه

وقال القرطبي : المراد أن المنى يقع في الرحم حين انزعاجه بالقوة الشهوانية الدافعة مبعوثاً متفرقاً ، فيجمعه الله تعالى في محل الولادة من الرحم .

وما ذكره القرطبي موافق لما أثبتته الطب الحديث ، فإن الحيوانات المنوية التي يقذفها الرجل كثيرة وتكون منتشرة في الرحم بعد القذف ، ولكن لا يجتمع منها مع البويضة إلا واحد ، ولعل هذا معنى قوله ﷺ حينما سُئل عن العزل : ما من كل الماء يكون الولد ، وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء . رواه مسلم

كما أثبت الطب الحديث معنى آخر للجمع ، وهو أن الخلايا الجنينية تنقسم وتتكاثر وتتفرق في اتجاهات مختلفة ثم تتجمع خلايا كل عضو من الأعضاء ، ولا تنتهي الأربعون يوماً الأولى إلا وخلايا جميع أعضاء الجنين المختلفة قد تمايزت وهاجر ما هاجر منها وتجمعت في أماكنها المحددة لها بعد أن كانت متشابهة وغير متميزة في مرحلة التكاثر الهائل السريع للخلايا الجنينية الأولية في الأسابيع الأولى .

(٢) الطور الأول هو خلق أصل الإنسان ، وهو خلق آدم من تراب ، وقد فصل القرآن طريقة هذا الخلق في مواضع .

الثاني : لأن العلق يطلق على الدم المتجمد ، وهذا يتوافق مع شكل الجنين في هذا الطور حينما تتكون لديه الأوعية الدموية المقفلة الممتلئة بالدماء خلال الأسبوع الثالث ، وهي كذلك تشبه دودة العلق التي تعلق ببعض الحيوانات وتمتص منها الدم . وأثبت الطب الحديث أن هذا الطور يبدأ مع بداية الأسبوع الثاني ويستمر حتى نهاية الأسبوع الثالث من التلقيح .

٣. المضغة : وهو الطور الثالث الذي يمر به الجنين ، قال تعالى ( فخلقنا العلقة مضغة ) .

وسميت ( مضغة ) لأنها في هذه المرحلة تكون قطعة صغيرة بقدر ما يمتص في الفم ، حيث تتراوح في الحجم في أول هذه المرحلة من قدر حبة القمح إلى حجم حبة الفول .

وشكلها في هذه المرحلة يشبه اللحمية التي مضغها الإنسان حيث تظهر فيها نتوءات الأعضاء كمضغ الإنسان لقطعة اللحم ، لكن لا يظهر فيه تصوير إنسان ولا استبانة للأعضاء .

وهذه المضغة تمر بمرحلتين رئيسيتين :

١. مرحلة عدم التخليق : وهي التي تكون فيها هذه المضغة كقطعة اللحم الممضوغة دون تخطيط ولا تصوير لخلق الإنسان ولا تمايز لأعضائه .

٢. مرحلة التخليق : وهي التي يظهر فيها تصوير الإنسان من ظهور اليدين والرجلين ونحوها ، لكنه في الجملة يظل محتفظاً بكونه قطعة اللحم الممضوغة .

ومصادق ذلك قوله تعالى ( ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ) يقول الألوسي في قوله تعالى ( ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ) : والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً . وأثبت الطب الحديث أن هذا الطور يبدأ مع بداية الأسبوع الرابع وينتهي قبل نهاية الأسبوع السادس<sup>(١)</sup> .

٤. طور العظام : وهو الطور الرابع الذي يمر به الجنين ، حيث يتغير شكل المضغة بسبب خلق الهيكل العظمي ، وتمايز الأعضاء وتصلبها .

قال الشوكاني في قوله تعالى ( فخلقنا المضغة عظاماً ) : أي جعلها الله سبحانه متصلبة لتكون عموداً للبدن على أشكال مخصوصة .

٥. طور كساء اللحم : وهو الطور الخامس الذي يمر به الجنين ، فبعد تكون العظام تبدأ العضلات بالنمو على العظام ، ثم يكسى الجنين اللحم ، قال تعالى ( فكسونا العظام لحماً ) .

وقد أثبت الطب الحديث أن هذا الأمر يحصل في نهاية الأسبوع السابع وخلال الأسبوع الثامن من التلقيح .

وفي هذه المرحلة يكون الجنين قد اكتملت جميع أعضائه الداخلية والخارجية بصورة مصغرة .

وتنتهي هذه المرحلة مع نهاية الأسبوع الثامن .

(١) وفي بداية الرابع ، وبالتحديد في اليوم الثاني والعشرين من التلقيح يبدأ القلب في النبض .

وتحرك القلب لا يدل على نفخ الروح ، وإنما هي حياة تشبه الحياة النباتية ، فإن الحياة موجودة قبل ذلك في الحيوان المنوي ، كما أشار إلى ذلك ابن القيم .

قال ابن القيم : فإن قيل : الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة وإحساس أم لا ؟ قيل : كان فيه حركة النمو والاعتناء كالنبات ، ولم تكن حركة نموه واعتنائه بالإرادة ، فلما نفخت فيه الروح انضمت حركة حسيته وإرادته إلى حركة نموه واعتنائه .

ويسمي علماء الأجنة جميع هذه المراحل بـ ( المرحلة الجنينية ) وهي مرحلة التكوين ، ثم بعد ذلك تبدأ مرحلة أخرى يسمونها المرحلة الحميلية <sup>(١)</sup> .

٦. **طور النمو** : وهو الطور السادس الذي يمر به الجنين ، فبعد أن اكتمل تكوين الجنين يبدأ بالنمو ويكون على مرحلتين :

١. النمو البطيء : حيث يبدأ ينمو ببطء من الأسبوع التاسع إلى الأسبوع الثاني عشر .

٢. النمو السريع : حيث يبدأ ينمو بسرعة كبيرة من الأسبوع الثالث عشر إلى نهاية الحمل <sup>(٢)</sup> <sup>(٣)</sup> .  
وهذه المرحلة أشار إليها القرآن بقوله تعالى ( ثم أنشأناه خلقاً آخر ) <sup>(٤)</sup> .

**تنبيه** : عملية تكوين الأطوار الثلاثة وهي ( النطفة ، والعلقة ، والمضغة ) كلها تقع في الأربعين الأولى على الصحيح ، وهذا ما دل عليه حديث حذيفة بن أسيد في صحيح مسلم حيث قال ﷺ : إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يقول : يا رب أجله ؟ فيقول ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يقول : يا رب رزقه ؟ فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص .

قال ابن رجب : وظاهر هذا الحديث يدل على أن تصوير الجنين وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظامه يكون في أول الأربعين الثانية ، فيلزم من ذلك أن يكون في الأربعين الثانية حملاً وعظاماً أ.هـ

فدل ذلك أنه خلال الاثنتين والأربعين يوماً تكون النطفة والعلقة والمضغة ، ويؤيد ذلك رواية مسلم للحديث : إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه ....  
فقلوه ( في ذلك ) يعود على الأربعين الأولى ، وأما قوله ( مثل ذلك ) فيعود على الجمع ، وينبغي أن تحمل الروايات الأخرى على هذه الرواية .

وهذا ما قرره غير واحد من المتخصصين ، وأثبتته الطب الحديث ، ويمكن مطالعة ذلك اليوم بالصور الدقيقة ، وما أوتيتهم من العلم إلا قليلاً <sup>(٥)</sup> .

وهذه المسألة يجب أن تحرر من قبل أهل العلم اليوم في الجامعات العلمية بمشاركة أهل الطب ، ولا يجوز تأخير ذلك ، لما يترتب على هذه المسألة من أحكام فقهية كبيرة ، كالميراث ، والتغسيل والصلاة عليه ، وفي حال سقوطه هل يكون الدم الخارج من الأم دم نفاس ، أو دم فساد ، إلى غير ذلك من المسائل .

(١) أكد علم الفحص بأجهزة الموجات فوق الصوتية أن جميع التركيبات الخارجية والداخلية الموجودة في الشخص البالغ تتخلق من الأسبوع الرابع وحتى الأسبوع الثامن من عمر الجنين ، كما يمكن أن ترى جميع أعضاء الجنين بهذه الأجهزة خلال الأشهر الثلاث الأولى .

(٢) وفي الشهر السادس يصبح الإنسان قادراً على الاستقلال عن أمه إذا خرج ، حيث تتكون في الشهر السادس الأسناخ الرئوية ، ويستطيع الجنين أن يتنفس مستقلاً عن أمه ، وبعد ذلك يكون دور الرحم دور الحضانة فقط .

(٣) من الملاحظ أن التقديرات السابقة اختلفت في تقديرها وحسابها أقوال أهل الاختصاص اليوم ، ولعل ذلك راجع إلى اختلاف الأجنة أو غير ذلك ، والله أعلم .

(٤) جاء عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وأبو العالية وغيرهم أن معنى ( خلقاً آخر ) نفخ الروح ، واختاره ابن جرير .

(٥) قال ابن الزملاكي في القرن السابع الهجري : وعلى هذا يكون حديث ابن مسعود : إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون في ذلك ( أي في ذلك العدد من الأربعين ) علقة ( مجتمعة في خلقها ) مثل ذلك ( أي مثلما اجتمع خلقكم في الأربعين ) ثم يكون في ذلك ( أي نفس الأربعين يوماً مضغة مجتمعة مكتملة الخلق المقدّر لها ) مثل ذلك ( أي اجتمع خلقكم في الأربعين ) .

وقد كانت هناك نظريات مغلوبة حول خلق الإنسان ، منها :

أن الإنسان يخلق من دم الحيض ، كما كان يقول أرسطو ، وانتشر هذا القول بعده كالمسلمة العلمية .

فبين القرآن أن خلق الإنسان من نطفة أمشاج ، وهي الخلية الملقحة من ماء الرجل وماء المرأة ، قال تعالى ( إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ) .

كما كان هناك خلاف بين طائفتين ، طائفة تقول إن الإنسان يوجد قرماً في ماء الرجل ثم يكبر ، والطائفة الأخرى تقول إنه يوجد قرماً في ماء المرأة ، فبين القرآن أن خلق الإنسان يمر بمراحل ، ولا يوجد دفعة واحدة ، لا كما كان يُعتقد ، قال تعالى ( يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ) وفصل سبحانه ذلك بقوله ( ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين \* ثم جعلناه نطفة في قرار مكين \* ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ) .

ويُنظر لزماً الكتاب الماتع ( خلق الإنسان بين الطب والقرآن ) للدكتور : محمد علي البار .

قوله ( ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات <sup>(١)</sup> : بكتب رزقه ، وعمله ، وأجله ، وشقي أو سعيد ) . كتابة هذه الكلمات الأربع تكون بعد الأربعين الأولى بعد التخليق ، كما في حديث حذيفة السابق الذي أخرجه مسلم ، وكذا أخرجه بلفظ آخر : يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول : يا رب أشقي أو سعيد ؟ فيكتبان ، فيقول أي رب أذكر أو أنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزداد فيها ولا ينقص . وفي رواية أخرى لمسلم أيضاً : إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة ثم يتسور عليها الملك ، فيقول : يا رب أذكر أم أنثى ؟ ... وفي رواية أخرى لمسلم : لبضع وأربعين ليلة .

وقد روي ذلك عن جمع من الصحابة ، كما جاء ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أخرجه اللالكائي بإسنادٍ ضعيف ، وخرجه ابن أبي حاتم بإسناده عن أبي ذر <sup>(٢)</sup> .

مسألة : أكثر الروايات على أن نفخ الروح في الجنين يكون بعد كتابة هذه الأمور الأربع ، وما جاء في بعض الروايات من تقديم نفخ الروح على الكتابة فيحمل على عدم قصد الترتيب ، أو تقدم الروايات التي فيها تأخر نفخ الروح ، والله أعلم . قال ابن رجب : واختلفت ألفاظ روايات هذا الحديث في ترتيب الكتابة والنفخ ، ففي رواية البخاري في صحيحه ( ويبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ثم ينفخ فيه الروح ) ففي هذه الرواية تصريح بتأخر نفخ الروح عن الكتابة ، وفي رواية خرجها البيهقي في كتاب القدر ( ثم يبعث الملك فينفخ فيه الروح ثم يؤمر بأربع كلمات ) وهذه الرواية تصرح بتقدم النفخ على الكتابة ، فإما أن يكون هذا من تصرف الرواة برواياتهم بالمعنى الذي يفهمونه ، وإما أن يكون المراد ترتيب الإخبار فقط ، لا ترتيب ما أخبر به أ.هـ. وأما عن وقت نفخ الروح في الجنين ، فظاهر الأحاديث أنه يكون بعد اكتمال طور المضغة ، لكن الله أعلم متى يكون ذلك .

(١) فإن قيل : كيف ذكر في الحديث أنه يؤمر بأربع كلمات ، وقد ذكر في الحديث خمس كلمات ؟

يقال : إن السعادة والشقاوة لا تجتمع ، ولا ترتفع ، فمن الناس من يكتب سعيداً ، نسأل الله من فضله ، ومنهم من يكتب شقياً ، والعياذ بالله .

(٢) وقد اختلف أهل العلم قديماً وحديثاً في مسألة الكتابة هل هي في الأربعين الأولى أو بعد أربعة أشهر بناء على أن طور التخليق ينتهي بعد الأربعين الثالثة ، أو هما كتابتان بعد الأربعين ، وبعد الأربعة أشهر .

وعلى القول الذي قررناه هنا ، وأثبتته الطب الحديث بما لا يدع مجالاً للاجتهاد يتبين أنه لا معارضة بين الأحاديث ، وأن الكتابة واحدة ، وتكون بعد التخليق في بداية الأربعين الثانية ، والله أعلم .

قوله ( فو الله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ) .

اختلف العلماء في هذه الجملة هل هي من كلام النبي ﷺ أم من كلام ابن مسعود على قولين :

- ١ . من كلام ابن مسعود ، ولوروده عند الإمام أحمد من قول ابن مسعود .
- ٢ . من كلام النبي ﷺ ولعل هذا هو الأصح ، لأن الأصل عدم الإدراج ، واختاره شيخنا ابن عثيمين ، ولورود هذا المعنى مصرحاً من كلام النبي ﷺ ، كما في الصحيحين من حديث سهل ، وعند مسلم من حديث أبي هريرة .
- وفي البخاري عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال : إنما الأعمال بالخواتيم .
- وفي هذه الجملة التحذير من سوء الخاتمة ، وقد كان السلف الصالح رحمهم الله يعتنون بهذا الأمر أشد الاعتناء .
- وقد جاء في الصحيحين من حديث سهل بن سعد بلفظ ( فيما يبدو للناس ) وقد قيل : إن ذنوب الخلوات تسبب الانتكاسات ، وطاعات الخلوات تثبت في الأزمان .
- قال ابن رجب : وقوله ( فيما يبدو للناس ) إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك ، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس .

### بعض الآثار الواردة عن السلف في الخوف من سوء الخاتمة :

- بكى بعض الصحابة عند موته فسئل عن ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين ، فقال : هؤلاء في الجنة ، وهؤلاء في النار . ولا أدري في أي القبضتين كنت ؟ رواه أحمد .
- وقال بعض السلف : ما أبكى العيون ما أبكاها الكتاب السابق .
- وقال سفیان لبعض الصالحين : هل أبكاك قط علم الله فيك ؟ فقال له ذلك الرجل : تركتني لا أفرح أبداً .
- وكان سفیان يشتد قلقه من السوابق والخواتم ، فكان يبكي ويقول : أخاف أن أكون في أم الكتاب شقياً ، ويبكي ويقول : أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت .
- وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضاً على لحيته ، ويقول : يا رب ، قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ، ففي أي الدارين منزل مالك ؟ .
- وقال حاتم الأصم : من خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار فهو مغتر ، فلا يأمن الشقاء ، الأول : خطر يوم الميثاق حين قال : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي ، فلا يعلم أي الفريقين كان ، والثاني : حين حُلِق في ظلمات ثلاث ، فنودي الملك بالسعادة والشقاوة ، ولا يدري أمن الأشقياء هو أم من السعداء ، والثالث : ذكر هول المطلع ، ولا يدري أيشر برضا الله أو بسخطه ، والرابع : يوم يصدر الناس أشتاتاً ولا يدري أي الطريقين يسلك به .
- وقال سهل التستري : المرید يخاف أن يتلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يتلى بالكفر .
- وقال بعض السلف : إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم ، يقولون : بماذا يختم لنا ؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق ، يقولون : ماذا سبق لنا .

قال ابن رجب : الخواتيم ميراث السوابق ، وكل ذلك سبق في الكتاب السابق ، ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم ، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق .

### ما يستفاد من الحديث :

- ١ . يجوز للإنسان أن يؤكد كلامه بمؤكدات ليكون أدعى إلى تصديقه .
- ٢ . الخوف من سوء الخاتمة .
- ٣ . الحرص على الأعمال الصالحة والثبات عليها حتى لقاء الله تعالى .
- ٤ . الدعاء بالثبات على الحق ، وقد كان ﷺ يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك . صححه الألباني .
- ٥ . معرفة قدرة الله ، وعنايته بالإنسان .
- ٦ . شكر الله على حفظه ورعايته قبل وبعد الإيجاد ، ومن أعظم الشكر ترك معصيته .
- ٧ . جهل العاصي وكفره لنعمة الله ، حيث يحفظه الله ويرعاه في وقت ضعفه وعجزه ، فإذا قوي تكبر على الله ، وتجراً عليه ، وعصاه بنعمه التي حفظها له .
- ٨ . أن الملائكة عبيد مأمورون لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .
- ٩ . الإيمان أن كل ما يحصل للعبد فقد سبق به قدر الله ، فعلى العبد الرضا بما يقدره الله ، مع السعي في الأسباب المباحة .

## الحديث الخامس

عن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد . رواه البخاري ومسلم .  
وفي رواية لمسلم : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد<sup>(١)</sup> .

تخریجه : اللفظ الأول متفق عليه ، لكن عند البخاري ( ما ليس فيه ) واللفظ الثاني رواه مسلم ، وهو عند البخاري معلقاً .  
مكانته : هذا الحديث أصل عظيم من أصول الدين ، وهو الميزان في قبول الأعمال ، وسبق في شرح الحديث الأول أن بعض العلماء جعله نصف الدين ، وحديث عمر النصف الآخر .  
قال ابن رجب : وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام ، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها ، كما أن حديث ( الأعمال بالنيات ) ميزان للأعمال في باطنها .  
وقال النووي : هذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات ، وإشاعة الاستدلال به .  
وقال ابن حجر : هذا الحديث معدود من أصول الإسلام ، وقاعدة من قواعد الدين .  
موضوعه : الحث على الإتيان وترك الابتداع في الدين .  
شرحه :

قوله ( من أحدث ) الإحداث في الدين هو كل ما كان على خلاف ما جاءت به الشريعة .  
قوله ( في أمرنا هذا ) المراد : ديننا ، وفي شرح السنة للبغوي بلفظ ( من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد ) .  
قوله ( ما ليس منه ) وفي رواية البخاري وغيره ( ما ليس فيه ) أي : زاد في الدين أمراً لم يأت به الشرع .  
فخرج بذلك من أحيا سنة من سنن الدين المهجورة ، فإن هذا من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها ، وإن كانت عند من لا يعرفها أمراً محدثاً ، لكن العبرة بالحقيقة لا بمعرفة الناس .  
قال ﷺ : من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء . رواه مسلم  
قوله ( فهو رد ) أي : مردود .

وقد تضافرت أدلة الكتاب والسنة على رد المحدثات في الدين ، وبين سبحانه أنه أكمل الدين ، وأتم النعمة ، وارتضى لنا الإسلام ديناً ، فلا يحتاج إلى زيادة ، قال تعالى ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ) فكل من أحدث في الدين بدعة فهو معترض على الله في إكماله الدين ، قال ابن الماجشون : سمعت مالكا يقول : من ابتدع في الإسلام

(١) ولعل مراد المصنف من إيراد الرواية الثانية ، أن الرواية الأولى قد يحتج البعض بأن الهم مقصور على أول من أحدث البدعة ، فبين في الرواية الثانية أن الهم شامل لكل من عمل البدعة ، على أن اللفظ الأول يشمل من عملها أيضاً .

قال النووي في شرح مسلم : وفي الرواية الثانية زيادة ، وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها ، فإذا احتج عليه بالرواية الأولى ، يقول : أنا ما أحدثت شيئاً ، فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات ، سواء أحدثها الفاعل ، أو سبق لإحداثها .



بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن محمداً خان الرسالة ، لأن الله يقول ( اليوم أكملت لكم دينكم ) فما لم يكن يؤمئذ ديناً ، فلا يكون اليوم ديناً أ.هـ

وقد بين الصحابة أن النبي ﷺ لم يمت حتى علمهم كل ما يحتاجونه من أمر دينهم .

وقد أجمع السلف على ذم البدعة في الدين .

وفقه هذا الحديث مع الحديث الأول ( إنما الأعمال بالنيات ) بيان شرطي قبول العمل ، وهما : الإخلاص ، والمتابعة .

وأن الإنسان لو عمل العمل بمتابعة تامة وتخلف عنه الإخلاص ، فإن عمله مردود عليه ، وكذا لو أخلص تمام الإخلاص في أمر مبتدع فإن عمله مردود عليه .

قال ابن رجب : إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة ، وتكون أحكام الشريعة حاکمة عليها بأمرها ونهيها .

**فائدة :** ذكر شيخنا ابن عثيمين أن المتابعة لا تتحقق إلا بتوفر ستة أمور ، وهي :

السبب ، الجنس ، القدر ، الكيفية ، الزمان ، المكان .

١. **السبب :** فمن أحدث عبادة لسبب لم يعتبره الشارع كان عمله مردوداً عليه .

مثل : من صلى ركعتين كلما دخل بيته ، أو صام في مواسم معينة كيوم بدر ونحوه ، أو احتفل بأيام معينة كيوم مولد النبي ﷺ .

٢. **الجنس :** فمن أحدث عبادة لم يشرع جنسها كان عمله مردوداً عليه .

مثل : من ضحى بفرس مثلاً .

٣. **القدر :** فمن أحدث قدراً زائداً عن العبادة ، كان عمله مردوداً عليه .

مثل : أن يصلي الظهر خمساً ، أو يتوضأ أكثر من ثلاث مرات ، أو يخصص عدداً من الأذكار لمعنى ، أو نحو ذلك .

٤. **الكيفية :** فمن أحدث كيفية لم يشرعها الشارع ، كان عمله مردوداً عليه ، سواء كانت في عبادة ، أو كانت مستقلة .

مثل : أن يسجد قبل أن يركع ، أو يغسل رجله قبل يده في الوضوء ، أو نحو ذلك .

٥. **الزمان :** فمن أحدث عبادة في زمان معين كان عمله مردوداً عليه .

مثل : أن يصلي فريضة قبل وقت صلاة الفريضة ، أو يصوم قبل رمضان له ، أو يصوم يوم العيد ، أو يخص بعض الليالي أو

الأيام بعبادات معينة بلا دليل .

٦. **المكان :** فمن أحدث عبادة في مكان معين كان عمله مردوداً عليه .

مثل : أن يعتكف في بيته ، أو يخص بعض الأماكن بعبادات معينة بلا دليل .

وهذه الأمور المذكورة كلها محرمة ، أما من حيث الأجزاء والصحة فتختلف ، فبعضها يصح مع التحريم ، وبعضها لا يصح .

وهذا الحديث على عموميه في تحريم كل بدعة في الدين ، وقد رد الشاطبي في كتابه ( الاعتصام ) تقسيم البدعة إلى حسنة ، وسيئة

، وذكر أنه تقسيم مخترع لا يدل عليه دليل ، وأن البدعة مهما كانت فهي مضادة للشرع ، ومراغمة له ، حيث نصب المبتدع

نفسه نصب المستدرك على الشريعة ، لا نصب المكتفي بما حُد له .

وينبه هنا أن هذا الحديث إنما هو في الإحداث في الدين ، وأما أمور الدنيا فعلى الإباحة إلا ما دل الدليل على تحريمه والمنع منه ، فالأصل في عادات الناس ، ومعاملاتهم الحل .

قال ابن تيمية : الأصل الذي بنى عليه الإمام أحمد وغيره مذاهبهم أن الأعمال : عبادات ، وعادات ، فالأصل في العبادات أن لا يشرع منها شيء إلا ما شرعه الله ورسوله ، والأصل في العادات أن لا يحظر منها شيء إلا ما حظره الله ورسوله .

### ما يستفاد من الحديث :

١ . كمال الشريعة وتمامها ، فلا تحتاج لزيادة .

٢ . الحرص على الاتباع ، ونبذ الابتداع .

قال تعالى ( قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ) وقال تعالى في وصف المؤمنين ( الذين يتبعون النبي الأمي ) وقال ﷺ : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة . رواه الترمذي وصححه .

٣ . أن البدعة لا يمكن أن يدل عليها الدليل الصحيح .

## الحديث السادس

عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الحلال بيّن ، وإن الحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب . رواه البخاري ومسلم .

تخریجه : متفق عليه<sup>(١)</sup>.

مكانته : هذا الحديث له مكانة عظيمة في الإسلام ، حيث جعله بعض أهل العلم ثلث الدين ، وجعله بعضهم ربع الدين ، كما سبق في شرح الحديث الأول .

جاء عن الإمام أحمد : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث : حديث عمر ( الأعمال بالنيات ) وحديث عائشة ( من أحدث في أمرنا ) وحديث النعمان ( الحلال بيّن ، والحرام بيّن ) .

موضوعه : الحث على الورع وترك الشبهات ، وبيان أن الوقوع في الشبهات له أثر على توجه القلب واستقامته .

شرحه :

قوله ( إن الحلال بيّن ، وإن الحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتهيات ) .

في هذه الجملة بيان أن الأحكام ثلاثة :

١. الحلال البيّن : وهو ما كان دليل إباحته واضحاً ، كالنص الصريح ، أو الإجماع عليه ، أو البراءة الأصلية مع عدم المعارض .

مثل : أكل لحوم بهيمة الأنعام ، والزواج من بنت العم ، وإجارة البيوت للسكنى ، ولباس الثياب بأنواعها .

٢. الحرام البيّن : وهو ما كان دليل تحريمه واضحاً ، كالنص الصريح على التحريم ، أو الإجماع عليه ، أو ثبوت ضرره ، أو ورد فيه

حد أو تعزير ، أو وعيد .

مثل : أكل لحم الخنزير أو الأسد ، والزواج من أخت الزوجة في حال حياة الزوجة وبقائها في عصمته ، وإجارة البيوت للبنوك

الربوية ، ولباس ثياب الحرير للرجل .

٣. المشتهية : وهو ما كان حكمه غير واضح عند المكلف .

مثل : أكل لحم التمساح ، والزواج بنية الطلاق ، وإجارة المكان للحلاقة ، ولباس الأحمر للرجل .

وقوله ( وبينهما ) دليل أنه يشبه الحلال من جهة ، ويشبه الحرام من جهة .

وهذا الاشتباه موضعه في نفس المكلفين لا في الدليل ، أما أدلة الشرع فهي دائرة بين الحلال والحرام .

(١) مع التلقيق في ألفاظه بين عدة روايات .

وهو مع هذا لا يكون عند جميع المكلفين ، بل يكون عند بعضهم ، كما قال ﷺ ( لا يعلمهن كثير من الناس ) والمعنى أن البعض يعلم ذلك .

وأسباب هذا الاشتباه كثيرة ، كلها راجعة إلى قصور في المكلفين لا في أدلة الشرع .

**قوله ( لا يعلمهن كثير من الناس ) .**

والمعنى أن حكم هذه المشتبهات يخفى على كثير من الناس ، ويعلمه البعض .  
وقد يحصل هذا الخفاء للعالم بسبب تكافؤ الأدلة ، أو خفا بعضها عليه ، أو غير ذلك .

قال ابن رجب : فدخل فيمن لا يعلمها نوعان :

أحدهما : من يتوقف فيها ، لاشتباهاها عليه .

والثاني : من يعتقدها على غير ما هي عليه .

**قوله ( فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ) .**

في هذه الجملة بيان لحال الناس الذين وقعت عندهم الشبهة ، وأنهم على قسمين :

١ . تركوا ارتكاب الشبهة تورعاً .

٢ . وقعوا فيها تسوراً ، أو تأولاً .

وفي هذه الجملة أيضاً بيان للمنبغي تجاه الشبهات ، وهو الابتعاد عنها وتركها ، كما فيها بيان لنتيجة ذلك :

١ . **من اتقى الشبهات :** وهذا حصلت له السلامة في دينه وعرضه :

أ . في دينه : لأنه تيقن السلامة ولم يخاطر بدينه .

ب . في عرضه : لأنه سلم من لوم الناس - أو بعضهم - وكلامهم فيه خاصة من تبين له حرمة هذه الشبهة ، أو من يرى وجوب اجتناب الشبهة .

٢ . **من وقع في الشبهات :** وهذا لم تحصل له السلامة ، بل وقع في الحرام كما أخبر ﷺ : ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام .  
واختلف العلماء في معنى ( وقع في الحرام ) على أقوال<sup>(١)</sup> :

أ . أن الوقوع في الشبهة بحد ذاته أمر محرم ، وذلك أن الإنسان لا ينبغي له أن يقدم على شيء إلا وهو متأكد من حله ، فمن وقع في الشبهة وقع في أمر محرم .

ب . أن الوقوع في الشبهة وسيلة للوقوع في الحرام ، وذلك أن الإنسان إذا ترك الورع وتوسع في ارتكاب الشبهات سيصل به الحال إلى الوقوع في الأمر المحرم الواضح ، وهذا أمر مشاهد .

وهذا المعنى أقرب لما جاء عند البخاري عن النعمان بن بشير قال : قال النبي ﷺ : الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشبهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ، ومن اجتراً على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصي حمى الله ، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقع .

(١) قال ابن حجر في الفتح : واختلف في حكم الشبهات ، فقليل : التحريم ، وهو مردود ، وقيل : الكراهة ، وقيل : الوقف .

قال ابن رجب في فتح الباري : ومعنى هذا : أن من وقع في الشبهات كان جديراً بأن يقع في الحرام بالتدريج ، فإنه يسامح نفسه في الوقوع في الأمور المشتبهة فتدعو نفسه إلى مواجهة الحرام بعده ، ولهذا جاء في رواية ( ومن خالط الرية يوشك أن يجسر ) يعني : يجسر على الوقوع في الحرام الذي لا ريب فيه .

ومن هنا كان السلف يحبون أن يجعلوا بينهم وبين الحرام حاجزاً من الحلال يكون وقاية بينهم وبين الحرام ، فإن اضطروا واقعوا ذلك الحلال ولم يتعدوه ، وأما من وقع في المشتبه فإنه لا يبقى له إلا الوقوع في الحرام المحض فيوشك أن يتجرأ عليه ويجسر أ.هـ .  
تنبيه : إنما يكون الأمر ( شبهة ) حال الاشتباه فيه والتردد ، وأما من ظهر له الحكم من أهل الاجتهاد فلا تعد في حقه شبهة ، وكذلك من واقعها على أنها حلال تقليداً لمن يثق بعلمه ، لا لهوى نفسه .

قال ابن رجب في فتح الباري : فكل هذه الأنواع من كان عنده فيها علم يدل على حكم الله ورسوله فيها فتبعه فهو المصيب ، ومن اشتبهت عليه فإن اتقاها واجتنبها فقد فعل الأولى واستبرأ لدينه وعرضه فسلم من تبعثها في الدنيا والآخرة ، ومن اشتبهت عليه فلم يتقها ، بل وقع فيها فمثله كمثل راع يرمى حول الحمى فإنه يوشك أن يواقع .

قوله ( كالراعي يرمى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ) .

هذا مثال لما سبق تقريره في أول الحديث ، وضرب الأمثال من الوسائل التعليمية التقريبية التي تستعمل كثيراً في الكتاب والسنة . والمعنى هنا : أن الراعي إذا ترك قطيعه يرمى حول حمى محمي ، فإنه لا يضمن أن يقع بعض القطيع في هذا الحمى ، وذلك لقربه منه ، وأما إذا رعى بعيداً عنه فإنه يسلم من ذلك ، لبعده ، ولأنه لا يرى ما فيه ، فلا يطمع فيه .

وقد قيل : إن السلامة من سلمى وجارتها ألا تمر على سلمى وواديها

والغالب أنه يكون بين الحلال والحرام شبهة ، فمن تسور عليها خدعه زخرف الحرم ويهرجه حتى يجرفه إليه .

قوله ( ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ) .

قوله ( ألا ) قال ابن حجر : للتنبيه على صحة ما بعدها ، وفي إعادتها وتكريرها دليل على عظم شأن مدلولها أ.هـ .

والمعنى أن من حام حول المحرمات بالقرب من وسائلها - ومنها الشبهات - فإنه يوشك أن يقع في تلك المحرمات .

وفي هذه الجملة بيان أن لله حمى ، وأن حمى الله محارمه ، فلا ينبغي أن يتسورها أحد ، ولا أن يقرب منها .

قال تعالى ( تلك حدود الله فلا تقربوها ) وهذا في النواهي ، وهو أبلغ من قول ( فلا تفعلوها ) لأن النهي عن قربها يشمل النهي عنها وعن الوسائل الموصلة إليها .

وأما الأوامر فقال تعالى ( تلك حدود الله فلا تعتدوها ) أي : لا تتجاوزوا ما حُد لكم فيها .

قوله ( ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب <sup>(١)</sup> ) .

في هذه الجملة بيان لأهمية القلب ، وأنه هو القائم على الجوارح ، وهو المسير لها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وأنه يجب العناية به أشد العناية .

وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه : وأسألك قلباً سليماً . رواه أحمد ، والترمذي ، والنسائي .

وعند أحمد عن أنس مرفوعاً : لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه .

(١) قال ابن حجر : سمي القلب قلباً لتقلبه في الأمور ، أو لأنه خالص ما في البدن ، وخالص كل شيء قلبه ، أو لأنه وضع في الجسد مقلوباً .

ومناسبة هذا الكلام هنا : أن ترك الشبهات من الورع ، والورع من عمل القلب ، فإن كان القلب مستقيماً دفعه الورع إلى ترك الشبهات ، والله تعالى أعلم .

### بعض الآثار الواردة في الورع :

أخرج الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن يزيد عن النبي ﷺ قال: لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس .

وقال أبو الدرداء : تمام التقوى أن يتقي الله العبد ، حتى يتقيه من مثقال ذرة ، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً ، حجاباً بينه وبين الحرام .

وفي البخاري : وقال حسان بن أبي سنان : ما رأيت شيئاً أهون من الورع : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

وقال الحسن : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام .

وقال الثوري : إنما سمو المتقين لأنهم اتقوا ما لا يتقي .

وروي عن ابن عمر قال : إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترةً من الحلال لا أخرقها .

وقال ميمون بن مهران : لا يسلم لرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال .

وقال سفيان بن عيينة : لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال ، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه .

ونقل ابن المنير في مناقب شيخه القباري أنه قال : المكروه عقبة بين العبد والحرام ، فمن استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام .

## ما يستفاد من الحديث :

١. وجوب ترك المحرمات .
٢. الحث على ترك الشبهات .
٣. الحث على سد الذرائع المفضية إلى محرم .
٤. الحث على ترك التوسع في المباحات .
٥. وضوح الشريعة في أحكامها ، وبيان أنه ليس فيها غموض لقوله ( الحلال بين ، والحرام بين ) .
٦. لزوم محافظة الإنسان على عرضه ، وترك كل عمل قد يؤدي إلى لمزه وعييه حتى لو كان حلالاً ، أو كان من عادات الناس المختلفة .
- ولا أدل على ذلك من قوله ﷺ للصحابيين اللذين مرا ورأيا النبي ﷺ يكلم زوجه صفية فأسرعاً ، فدعاها ، وقال لهما : على رسلكما إنها صفية بنت حيي .
- قال بعض السلف : من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن .
٧. لزوم الاهتمام بإصلاح القلب أكثر من إصلاح الجوارح ، لأنها تسير به وتصدر عنه .
٨. استعمال الأمثال في تقريب الصورة .
٩. الحلال أوسع من الحرام ، لأنه شبه الحرام بالحمى المحمي .
١٠. فضل أهل العلم لمعرفةهم بأحكام الشريعة .
١١. كثرة الجهل ، لقوله ﷺ : لا يعلمهن كثير من الناس .
١٢. بيان فساد نهج بعض المناهج الدعوية المتسورة على الشبهات ، الداعين إلى ترك المحرم الواضح دون الشبهة ، وفي هذا النهج مخالفة واضحة لهذا الحديث .
- مع التنبيه إلى أنه لا يلزم جميع الناس بترك كل شبهة ، بل هذا الباب من الأبواب التي تحتاج إلى فقه في التعامل معه .

## الحديث السابع

عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : الدين النصيحة . قلنا : لِمَنْ ؟  
قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم . رواه مسلم

تخریجه : رواه مسلم .

وعند أحمد ، وأبي داود ، وغيرهما : إن الدين النصيحة ، إن الدين النصيحة ، إن الدين النصيحة .

وجاء هذا الحديث عن أبي هريرة أيضاً ، وهو عند أحمد ، والترمذي ، وغيرهما .

مكانته : هذا الحديث من الأحاديث الجامعة المهمة ، وقد جعله بعضهم ربع الدين ، كما سبق ذكره .

قال النووي : قالوا : مدار الدين على أربعة أحاديث . وأنا أقول : بل مداره على حديث ( الدين النصيحة ) .

موضوعه : الحث على بذل النصح للنفس وللغير .

شرحه :

قوله ( الدين النصيحة<sup>(١)</sup> ) جمع النبي ﷺ الدين كله في النصيحة ، ومعنى ذلك أنه لا يقوم إلا بتحقيقها ، كما قال ﷺ : الحج عرفة .

وقد كان ﷺ يبائع أصحابه على النصيحة ، كما قال جرير بن عبدالله : بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم . متفق عليه

وعند مسلم من حديث أبي هريرة قال ﷺ : حق المسلم على المسلم ست ... وإذا استنصحتك فانصَح له .

والنصيحة : لغة : لها معنيان :

١ . الخلوص : يقال : نصح الشيء إذا خلص ، والناصح : الخالص من العسل وغيره . وكل شيء خلص فقد نصح .

فشبهوا تخليص القول والفعل مما يفسده ، وتخليص النفس مما يدنسها بتخليص العسل مما يشوبه .

٢ . الجمع والائتلاف : جاء في لسان العرب : النصح مصدر قولك : نصحت الثوب إذا خطته .

قال الخطابي : فشبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الثوب .

شرعاً : كلمة جامعة لإرادة الخير للمنصوح له .

قال ابن الأثير : النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة : إرادة الخير للمنصوح له .

وقال ابن الصلاح : النصيحة كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح بالمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً .

(١) وهذه الجملة تفيد الحصر ، وذلك أن علماء البلاغة ذكروا أن من طرق الحصر أن يكون المبتدأ معرفة ، والخبر معرفة .



قوله ( قلنا : لِمَنْ ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم ) .

هذه النصيحة تارة تكون للنفس ، كما في النصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، وتارة تكون للنفس وللغير كما في النصيحة لأئمة المسلمين ، وعامتهم .

١. النصيحة لله : وتشمل صوراً كثيرة يجمعها : إخلاص العبادة لله ، والقيام له بما يستحق .

قال القرطبي عند تفسير قوله تعالى ( ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ) قال : قال العلماء : النصيحة لله : إخلاص الاعتقاد في الوجدانية ، ووصفه بصفات الألوهية ، وتنزيهه عن النقائص ، والرغبة في محابه ، والبعد عن مساخطه .

٢. النصيحة لكتاب الله : وتشمل صوراً كثيرة يجمعها : القيام بحقوقه تامة .

ومن ذلك : محبته ، وتعظيمه ، وكثرة تلاوته ، والعمل بأحكامه ، وتصديق أخباره .

٣. النصيحة لرسول الله ﷺ : وتشمل صوراً كثيرة يجمعها : القيام بحقوقه ﷺ .

قال القرطبي عند تفسير الآية السابقة : النصيحة لرسوله : التصديق بنبوته ، والتزام طاعته في أمره ونهيهِ ، وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه ، وتوقيره ، ومحبته ، ومحبة أصحابه ، وأزواجه ، وآل بيته ، وتعظيمه ، وتعظيم سنته ، وإحياءها بعد موته بالبحث عنها ، والتفقه فيها ، والذب عنها ، ونشرها ، والدعاء إليها ، والتخلق بأخلاقه الكريمة ﷺ .

٤. النصيحة لأئمة المسلمين : وتشمل صوراً كثيرة يجمعها : القيام بما لهم من حقوق .

وأئمة المسلمين هم ولاية أمورهم ، وهم نوعان :

أ. العلماء : قال تعالى ( ولو ردهو إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ) .

ونصحهم يشمل : محبتهم ، والدعاء لهم ، وأخذ العلم عنهم ، والذب عن أعراضهم ، والنصح لهم بما يناسب مقامهم .

ب. الأمراء : قال ﷺ : اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به . رواه مسلم .

ونصحهم يشمل : اعتقاد إمامتهم ولو كانوا فساقاً ، ومحاولة جمع الناس عليهم في الحق ، وستر معاييبهم الخاصة بهم ، والنصح لهم فيما أخطأوا فيه سراً - وهو فرض كفاية - وعدم الخروج عليهم .

قال ابن حجر : إعانتهم على ما حُمِّلوا القيام به ، وتنبههم عند الغفلة ، وسد خلتهم عند الهفوة ، وجمع الكلمة عليهم ، ورد القلوب النافرة إليهم ، ومن أعظم نصيحتهم دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن أ.هـ

ولا بد من القيام والجمع بين النصح لله ، والنصح للأمراء في شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك بحث الناس على الخير ، ونهيهم عن الشر ، وإنكار المنكرات الظاهرة علناً حتى يعلم الناس الدين ، وهذا هو طريق الأنبياء .

وقد أخطأ بعض الناس في الإنكار على من أنكر المنكرات في خطب الجمعة ونحوها ، وجعل ذلك من باب الفتنة .

والحق أن ذلك من أوجب الواجبات ، وأجل القربات ، لكن ينبغي مراعات الطرق الشرعية ، والمصالح المرعية ، وعدم تضخيم

المنكرات ، أو الإكثار من ذكرها ، لأن المردود النفسي قد يكون عكسياً على الناس ، وأعظم ما تزول به المنكرات هو تعظيم الله في النفوس ، والتذكير بالدار الآخرة ، وقد ذكر ابن القيم أن جل خطب النبي ﷺ في ذلك ، فينبغي التركيز عليه .

٥. النصيحة لعامة المسلمين : وتشمل صوراً كثيرة يجمعها : إرادة الخير لهم في الدنيا والآخرة .

قال النووي : إرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم ، وكف الأذى عنهم ، فيعلمهم ما يجهلون من دينهم ، ويعينهم عليه بالقول والفعل ، وستر عوراتهم ، وسد خلاصهم ، ودفع المضار عنهم ، وجلب المنافع لهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر برفق و إخلاص ، والشفقة عليهم ، وتوقير كبيرهم ، ورحمة صغيرهم ، وتحولهم بالموعظة الحسنة ، وترك غشهم وحسدكم ، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير ، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه من المكروه ، والذب عن أموالهم وأعراضهم ، وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل ، وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة ، وتنشيط همهم إلى الطاعات .

### أقوال مأثورة عن السلف في النصيحة :

قال الحسن : وقال بعض أصحاب النبي ﷺ : والذي نفسي بيده إن شئتم لأقسمن لكم بالله : إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحبون الله إلى عباده ، ويحبون عباد الله إلى الله ، ويسعون في الأرض بالنصيحة .  
وقال ابن علية في قول أبي بكر المزني : ما فاق أبو بكر رضي الله عنه أصحاب رسول الله ﷺ بصوم ولا صلاة ، ولكن بشيء كان في قلبه . قال : الذي كان في قلبه : الحب لله عز وجل ، والنصيحة لخلقه .  
وقال الفضيل بن عياض : ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام ، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس ، وسلامة الصدور ، والنصح للأمة .

وسئل ابن مبارك : أي الأعمال أفضل ؟ قال : النصح لله .  
وقال معمر : كان يقال : أنصح الناس لك من خاف الله فيك .  
وقال الفضيل : المؤمن يستر وينصح ، والفاجر يهتك ويعير .  
قال ابن رجب : وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سراً حتى قال بعضهم : من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه .

### ما يستفاد من الحديث :

١. أهمية النصيحة وأنها سبيل المرسلين ، قال تعالى عن هود ( أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ) وقال تعالى عن صالح ( يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ) .
٢. حرص الصحابة على تعلم العلم .
٣. البداءة بالأهم فالأهم .

## الحديث الثامن

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله تعالى . رواه البخاري ومسلم .

تخریجه : متفق عليه .

موضوعه : وجوب الإذعان للشريعة ، وبيان الدماء المعصومة وغير المعصومة .

شرحه :

الأصل أن الكفار يقتلون حتى يدخلوا في دين الإسلام ، ويدعنوا لشرائعه ، فإن حصل منهم ذلك عُصمت دماءهم وأموالهم ، وحُرِّم قتلهم وقتالهم ، إلا أن يحصل منهم بعد ذلك ما يُوجب القتل .  
وقد خلق الله الخلق لعبادته وتوحيده ، كما قال تعالى ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) وأرسل رسله ، وأنزل كتبه من أجل تحقيق هذه الغاية ، كما قال تعالى ( ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ) فكانت رسالة الرسل تطويع العباد لربهم عز وجل ، فمن عارض هذه الدعوة وجب قتاله نصحاً له ولغيره ، قال تعالى ( وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ) وآية الأنفال ( ويكون الدين كله لله ) .  
ومقاتلة الكفار ليست من باب الاستعلاء عليهم ، بل من باب الرحمة بهم ، وتعبيدهم لله تعالى ، ولذا فإنهم لو وحدوا الله وجب الكف عنهم ، وهذا غاية النصح لهم .

مسألة : النفوس صنفان :

أ. نفوس معصومة الدم ، وهي أنواع :

١. المسلم الملتزم بأحكام الإسلام . قال تعالى ( ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ) وقال ﷺ : إن دمائكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا . متفق عليه
٢. الكافر الذمي ، أو المعاهد ، أو المستأمن .

والذمي : هو من عقد معه الإمام عقداً أباح له البقاء في بلاد المسلمين مقابل دفع الجزية لبيت مال المسلمين .  
والمعاهدين : هم من عقد معهم الإمام عقداً وهم في بلادهم على ألا يكون هناك قتال مدة معلومة لمصلحة دينية .  
والمستأمن : هو من أخذ الأمان من إمام المسلمين ، أو من أحد المسلمين على الدخول لبلاد المسلمين لتجارة ، أو غير ذلك .  
قال تعالى ( وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ) .  
وهذه الأنفس كلها داخلة في قوله تعالى ( ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ) .

وفي حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً . رواه البخاري

ب. نفوس غير معصومة الدم ، وهي أنواع :

١. الكافر المحارب ، وهو الذي ليس بيننا وبينه عهد .

قال تعالى ( وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ) وقال تعالى ( قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ) وقال ﷺ : أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ ...

ولا بد قبل القتال من دعوتهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا كُف عنهم ، فإن امتنعوا عُرضت عليهم الجزية إن كانوا من أهل الكتاب ، فإن قبلوا كُف عنهم وفرضت عليهم الجزية ، فإن امتنعوا قُتِلوا حتى يكون الدين كله لله ، كما دل على ذلك حديث بريدة . ووجوب مقاتلة الكفار ابتداءً منوطة بالقدرة على ذلك ، كشأن سائر الواجبات .

٢. المسلم المرتد . كما في حديث ابن مسعود الآتي .... والتارك لدينه المفارق للجماعة .

٣. المسلم الذي حصل منه ما يوجب القتل ، كمن قتل نفساً بغير حق ، أو كان محصناً فزنا ، وهذا هو معنى قوله ﷺ ( إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ ) .

جاء عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالثِّيبُ الزَّانِي ، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ . متفق عليه ، ولفظ مسلم : والتارك لدينه المفارق للجماعة .

والمرتد يقتل ردة ، ومأواه جهنم خالداً فيها ، وأما القاتل والزاني فيقتل حداً ، ويكون ذلك كفارة له ، وماله الجنة خالداً فيها . ومن صور جواز مقاتلة المسلم للمصلحة الراجحة : مقاتلة الفئة الباغية ، كما قال تعالى ( وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ) . ومن ذلك أيضاً لو امتنعت طائفة عن إقامة شعيرة من شعائر الإسلام ، كما لو امتنعوا عن أداء الزكاة ، أو امتنعوا عن رفع الأذان ، ونحو ذلك ، فإنهم يقاتلون مقاتلة المسلم الباغي .

ومقاتلة الطائفة المسلمة له أحكام تختلف عن مقاتلة الطائفة الكافرة ، ومن ذلك أنه لا تسبى فيه النساء ، ولا تغنم الأموال ، ولا يُجهز على الجريح ، ولا يُطارد الفار .

وعليه فالأصل في دم الكافر الحل ، وفي دم المسلم الحرم .

مسألة : الواجب على من أظهر الإسلام وقال ( لا إله إلا الله ) الكف عنه ، ومعاملته معاملة المسلم ، أخذاً بظاهر حاله ، فإن حصل منه بعد ذلك ما يخالف ذلك عُومل بما يستحق .

ودليل معاملته بالظاهر حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، حيث قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقه ، فصباحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشيناها قال ( لا إله إلا الله ) فكف الأنصاري ، فطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال : يا أسامة أقتلته بعد ما قال ( لا إله إلا الله )؟ قلت : كان متعوذاً . فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم . متفق عليه

وأما الدليل على أنه يجب على المسلم الإذعان لأحكام الشريعة ، والالتزام بشعائر الدين ، حديث أبي هريرة قال : لما تُوفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده ، وكفر من كفر من العرب ، قال عمر لأبي بكر : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ :

أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا ( لا إله إلا الله ) فمن قال ( لا إله إلا الله ) عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله ؟ فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه ، فقال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق . متفق عليه وكان هذا إجماعاً من الصحابة رضي الله عنهم .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا ( لا إله إلا الله ) فإذا قالوها ، وصلوا صلاتنا ، واستقبلوا قبلتنا ، وذبحوا ذبيحتنا ، فقد حرمت علينا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . رواه البخاري

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : أقاتل الناس حتى يشهدوا ( ألا إله إلا الله ) ويؤمنوا بي ، وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله . رواه مسلم

ويدخل في هذا الحكم أيضاً المنافقون الذين لم يظهر منهم ما يخالف الشريعة ، فإنهم يُعاملون معاملة المسلم وحسابهم على الله تعالى .

قال ابن حجر : إن كان الضمير في قوله ( بحقه ) للإسلام ، فمهما ثبت أنه من حق الإسلام تناوله ، ولذلك اتفق الصحابة على قتال من جحد الزكاة .

### ما يستفاد من الحديث :

- ١ . مشروعية جهاد الطلب ، وتعبيد الناس لرب العالمين .
- ٢ . وجوب النطق بالشهادتين للحكم بإسلام شخص .
- ٣ . أن أول واجب يُطالب به العبد هو التلفظ بالشهادتين ، لا كما يدعي المتكلمون من أن أول واجب النظر ، أو القصد إلى النظر ، أو الشك .
- وحيثما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له : فليكن أول ما تدعوهم إليه : شهادة ألا إله إلا الله .... متفق عليه
- ٤ . شهادة ألا إله إلا الله لا يكفي فيها النطق ، بل لا بد من الالتزام بما دلت عليه ، والمحافظة على عدم نقضها .
- ٥ . أهمية الصلاة ، ومكانتها في الشريعة .
- ٦ . أن أحكام الإسلام تجري على ظواهر الناس ، والله يتولى السرائر .

## الحديث التاسع

عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم : كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم . متفق عليه

تخریجه : متفق عليه .

ولفظ البخاري : دعوني ما تركتكم ، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم .

ولفظ مسلم : ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم .

مكانته : قال النووي في شرح مسلم : هذا من قواعد الاسلام المهمة ، ومن جوامع الكلم التي أُعطيها ﷺ .

موضوعه : النهي عن الأسئلة المذمومة ، والاكتفاء بما جاءت به الشريعة أمراً ونهياً .

سببه : جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا .

فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله ﷺ : لو قلت : نعم لوجبت ، ولما استطعتم ،

ثم قال : ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء ، فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه .

شرحه :

قوله ( ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ) .

هذا أمر من النبي ﷺ لجميع المكلفين بأن يجتنبوا المحرمات ، وأن يمتثلوا الأوامر بقدر الاستطاعة .

وإنما علق النبي ﷺ الأمر بالاستطاعة ، ولم يعلق النهي بذلك ، لأن ترك المنهيات تحت الاستطاعة في حق كل أحد وإن حصل

نوع مشقة في ذلك ، بخلاف المأمورات فقد تكون في حق البعض ، أو في بعض الأحوال غير داخلية في الاستطاعة ، كالحج على الفقير ، والصيام على المريض ، ونحو ذلك .

ومن المعلوم أن أوامر الشرع ونواهيها ليست على درجة واحدة ، فهناك أشياء أمرنا الشارع بها أمراً جازماً ، كالصلوات الخمس ،

وسائر الواجبات ، وهناك أشياء أمرنا بها أمراً غير جازم ، كالسواك عند الصلاة ، وسائر المستحبات .

وكذلك في المنهيات ، هناك أشياء نهانا الشارع عنها نهياً جازماً ، كالربا ، وسائر المحرمات ، وهناك أشياء نهانا عنها نهياً غير جازم

، كالشرب حال القيام ، وسائر المكروهات .

فيقال : ما نهى عنه الشارع نهياً جازماً وجب تركه ، وما نهى عنه نهياً غير جازم استحباب تركه ، وما أمر به الشارع أمراً جازماً

وجب فعله مع الاستطاعة ، وما أمر به أمراً غير جازم استحباب فعله بقدر الاستطاعة .

### والاستطاعة في الأمر تكون من جهتين :

١. من جهة فعل نفس المأمور : بحيث لا يشق العبد على نفسه في تلك العبادة ، أو يترك الرخصة مع حاجته إليها .  
عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ فإذا حبل ممدود بين السارين ، فقال : ما هذا الحبل؟ قالوا : هذا حبل لزنب ، فإذا فترت تعلقت . فقال النبي ﷺ : لا ، حلوه ، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد . متفق عليه  
وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت عندي امرأة من بني أسد ، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال : من هذه؟ قلت : فلانة ، لا تنام بالليل ، فذكر من صلاتها ، فقال : مه ، عليكم ما تطيقون من الأعمال ، فإن الله لا يمل حتى تملوا . متفق عليه ، ولفظ مسلم : خذوا من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا .
٢. من جهة فعل عموم المأمورات : بحيث يكلف نفسه أنواعاً من العبادات قد لا يطيقها ، أو توجب له التقصير في واجبات أخرى .  
عن عبد الله بن عمرو قال : أنكحني أبي امرأة ذات حسب ، فكان يتعاهد كنته<sup>(١)</sup> فيسألها عن بعلمها ، فتقول : نعم الرجل من رجل ، لم يطأ لنا فراشاً ، ولم يفتش لنا كنفاً منذ أتيناها ، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ فقال : القني به . فلقيته بعد فقال : كيف تصوم؟ قال : كل يوم . قال : وكيف تحتم؟ قال : كل ليلة . قال : صم في كل شهر ثلاثة ، واقرأ القرآن في كل شهر . قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : صم ثلاثة أيام في الجمعة . قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : أفطر يومين وصم يوماً . قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : صم أفضل الصوم صوم داود ، صيام يوم وإفطار يوم ، واقرأ في كل سبع ليالٍ مرة . فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ وذاك أني كبرت وضعفت ، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار ، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ، ليكون أخف عليه بالليل ، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى ، وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق النبي ﷺ عليه . رواه البخاري
- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبداً . وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني . رواه البخاري

(١) أي : امرأة ابنه . قال ابن الأثير : الكنه : امرأة الابن وامرأة الأخ .

قوله ( فإنما أهلك الذين من قبلكم : كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم ) .

في هذه الجملة يحذر النبي ﷺ أمته من الأسئلة المذمومة ، ويبين لهم أنها من أسباب هلاك الأمم قبلهم .

والمسائل نوعان :

أ. مسائل محمودة : وضابطها : كل ما كان فيه خير في الدين أو الدنيا .

قال تعالى ( فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ) .

وفي مسند البزار عن ابن عباس قال : ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ ما سألوه إلا عن اثني عشرة مسألة كلها في

القرآن : ( يسألونك عن الخمر والميسر ) ( يسألونك عن الشهر الحرام ) ( يسألونك عن اليتامى ) .

وقالت عائشة : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين . متفق عليه

وقال ابن شهاب : العلم خزائن وتفتحها المسألة .

ب. مسائل مذمومة : وضابطها : أن لا يكون فيها فائدة في الدين أو الدنيا ، ولها صور منها :

١. السؤال عما سكت عنه الشرع :

قال ﷺ : إن أعظم المسلمين - في المسلمين - جرماً من سأل عن شيء لم يحرم ، فحرم من أجل مسألتة<sup>(١)</sup> . رواه مسلم

وقال ﷺ : إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا

عنها . رواه الدارقطني ، والبيهقي ، وحسنه النووي ، وضعفه الألباني في الإرواء .

قال النووي : وهذا النهي خاص بزمانه ﷺ أما بعد أن استقرت الشريعة وأمن من الزيادة فيها زال النهي بزوال سببه .

قال ابن رجب : ( ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ) يدل على كراهة

المسائل وذمها ، ولكن بعض الناس يزعم أن ذلك كان مختصاً بزمن النبي ﷺ لما يخشى حينئذ من تحريم ما لم يحرم ، أو إيجاب ما

يشق القيام به ، وهذا قد أمن بعد وفاته ﷺ . ولكن ليس هذا وحده هو سبب كراهة المسائل ، بل له سبب آخر ، وهو الذي

أشار إليه ابن عباس في كلامه الذي ذكرنا بقوله : ولكن انتظروا ، فإذا نزل القرآن ، فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبياناً .

ومعنى هذا : أن جميع ما يحتاج إليه المسلمون في دينهم لا بد أن يبينه الله في كتابه العزيز ، ويبلغ ذلك رسوله عنه ، فلا حاجة بعد

هذا لأحد في السؤال ، فإن الله تعالى أعلم بمصالح عباده منهم ، فما كان فيه هدايتهم ونفعهم فإن الله لا بد أن يبينه لهم ابتداء من

غير سؤال ، كما قال ( يبين الله لكم أن تضلوا ) وحينئذ فلا حاجة إلى السؤال عن شيء ، ولا سيما قبل وقوعه والحاجة إليه ،

وإنما الحاجة المهمة إلى فهم ما أخبر الله به ورسوله ، ثم اتباع ذلك والعمل به ، وقد كان النبي ﷺ يسأل عن المسائل فيحيل على

القرآن ، كما سأله عمر عن الكلالة ، فقال : يكفيك آية الصيف .

وأشار ﷺ في هذا الحديث إلى أن في الاشتغال بامثال أمره ، واجتناب نهيهِ شغلاً عن المسائل ، فقال : إذا نهيتكم عن شيء

فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم . فالذي يتعين على المسلم الاعتناء به والاهتمام أن يبحث عما جاء عن الله

ورسوله ﷺ ثم يجتهد في فهم ذلك ، والوقوف على معانيه ، ثم يشتغل بالتصديق بذلك إن كان من الأمور العلمية ، وإن كان من

(١) قال شيخنا عبد المحسن العباد في شرحه لأبي داود : وما أعلم مثلاً على تحريم شيء بسبب مسألة إنسان فترتب على ذلك حرج بالمسلمين ، ولكن هذا فيه ترهيب وتحذير من مثل

هذه الأسئلة ، والمقصود هو التنفير من مثل هذه الأسئلة التي هي من جنس ذلك السؤال الذي سأله السائل عن الحج .



الأُمُور العَمَلِيَّة ، بذل وسعه فِي الاجْتِهَاد فِي فَعْل ما يَسْتَطِيعُه مِنَ الأَوامِر ، واجْتِنَاب ما يَنْهَى عَنْه ، وَتَكُون هِمَّتُه مَصْرُوفَةً بِالْكَلِيَّة إِلَى ذَلِك ، لا إِلَى غَيْرِه .

وهَكَذَا كان حال أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَان فِي طَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ .

## ٢. السُّؤال عَنْ ما لا فائِدَةَ فِيهِ :

فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَنَسٍ قال : خَطَبَنَا رَسولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ : مَنْ أَبِي ؟ فَقَالَ : فُلانٌ . فَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ ( لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاء ) .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قال : كان قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسولَ اللَّهِ ﷺ اسْتِهْزَاءً ، فيَقولُ الرَّجُلُ : مَنْ أَبِي ؟ وَيَقولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَاقَتَهُ : أَيْنَ نَاقَتِي ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ آيَةَ ( يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاء ) .

## ٣. السُّؤال عَلَى وَجْهِ التَّشَدُّدِ وَالتَّنَطُّعِ وَالتَّعَمُّقِ :

وَمِنْ ذَلِك ما جَاءَ فِي قِصَّةِ بَنِي إِسْرَئِيلَ فِي ذَبْحِ الْبَقَرَةِ .

## ٤. السُّؤال لِلْمُجَادَلَةِ وَالْمَرَاءِ وَالتَّعْجِيزِ :

وَكانَ مالِكٌ يَكْرَهُ الْمُجَادَلَةَ عَنِ السَّنَنِ ، قالَ الْهَيْثَمُ بْنُ جَمِيلٍ : قُلْتُ لِمَالِكٍ : يا أبا عَبْدِ اللَّهِ : الرَّجُلُ يَكُونُ عالِماً بِالسَّنَنِ : يُمَاجِدِلُ عَنْهَا ؟ قالَ : لا وَلَكِنْ يَخْبِرُ بِالسَّنَةِ ، فَان قُبِلَ مِنْهُ وإلا سَكَتَ .

وَقَالَ إِسْحاقُ بْنُ عِيسَى : كانَ مالِكٌ يَقولُ : الْمَرءُ وَالْجِدالُ فِي الْعِلْمِ يَذْهَبُ بِنُورِ الْعِلْمِ مِنْ قَلْبِ الرَّجُلِ .

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ : سَمِعْتُ مالِكاً يَقولُ : الْمَرءُ فِي الْعِلْمِ يَقْسِي الْقُلُوبَ ، وَيُورِثُ الضَّغْنَ .

وَقَدْ رَوَى عَنِ الصَّنَاجِحِيِّ عَنِ مَعَاوِيَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَى عَنِ الْأَغْلُوطَاتِ . أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ .

وَفَسَّرَهَا الْأَوْزَاعِيُّ بِقَوْلِهِ : هِيَ شِدَادُ الْمَسائِلِ . وَقَالَ عِيسَى بْنُ يُونُسَ : هِيَ ما لا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، مِنْ كَيْفٍ وَكَيْفٍ .

وَيُرَوَّى مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ : سَيَكُونُ أَقْوامٌ مِنْ أُمَّتِي يَغْلُطُونَ فَقَهَاءَهُمْ بَعْضُ الْمَسائِلِ ، أَوَّلُكَ شَرارُ أُمَّتِي .

وَقَالَ الْحَسَنُ : شَرارُ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ شَرارَ الْمَسائِلِ يُعْمُونَ بِها عِبادُ اللَّهِ .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : إِنْ اللَّهُ إِذا أَرادَ أَنْ يَحْرِمَ عَبْدَهُ بَرَكَةَ الْعِلْمِ ، أَلْقَى عَلَى لِسَانِهِ الْمَغالِيطَ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ أَقلَ النَّاسِ عِلْماً .

## ٥. السُّؤال عَنْ الْمَسائِلِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَخْبَرْ بِها الشَّرْعُ :

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ) .

وَمِنْ ذَلِكِ السُّؤالُ عَنْ كَيْفِيَّةِ صِفَاتِ اللَّهِ ، وَمِنْهُ ما جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ مَرْفُوعاً : يَأْتِي الشَّيْطانُ أَحَدَكُمْ فيَقولُ : مَنْ خَلَقَ كَذَا ،

وَكَذا ؟ حَتَّى يَقولَ لَهُ : مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ ؟ فإذا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلِيَنْتَه .

وَلْيَسْلَمْ : يَأْتِي الشَّيْطانُ أَحَدَكُمْ فيَقولُ : مَنْ خَلَقَ السَّماءَ ، مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ ..

## ٦. السؤال عن ما لم يقع :

ومن ذلك ما جاء عن زيد بن ثابت أنه كان إذا سئل عن الشيء يقول : كان هذا ؟ فإن قيل : لا . قال : دعوه حتى يكون . رواه الدرامي . وقد روي نحوه عن جمع من السلف .

وجاء عن عمر قال : أخرج عليكم أن تسألوا عما لم يكن ، فإن لنا فيما كان شغلاً . رواه الدرامي ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله .

وفي الصحيحين أنه ﷺ : نهي عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال<sup>(١)</sup> .

قال ابن رجب : ولم يكن النبي ﷺ يرخص في المسائل إلا للإعراب ونحوهم من الوفود القادمين عليه ، يتألفهم بذلك ، فأما المهاجرين والأنصار المقيمين في المدينة الذين رسخ الإيمان في قلوبهم ، فنهوا عن المسألة ، كما في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان قال : أقمت مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنة ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة ، كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل النبي ﷺ . وفيه أيضاً عن أنس قال : نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل ، فيسأله ونحن نسمع أ.هـ

قوله ( واختلافهم على أنبيائهم ) .

لعل المراد بالاختلاف هنا : المخالفة ، وعدم الاستجابة للأنبياء . لأنه ذكر قبل ذلك كثرة الأسئلة .

فأكثرنا الأسئلة ، ومع ذلك لم يستجيبوا .

وقيل : الاختلاف المراد به : الأسئلة المتكلفة .

ويُراجع تكملاً شرح هذا الحديث في ( جامع العلوم والحكم ) لابن رجب ، فقد أجاد وأفاد .

(١) قال ابن رجب : وقد انقسم الناس في هذا الباب أقساماً : فمن أتباع أهل الحديث من سد باب المسائل حتى قل فقهه وعلمه محدود ما أنزل الله على رسوله ، وصار حامل فقه غير فقيه ، ومن فقهاء أهل الرأي من توسع في توليد المسائل قبل وقوعها ، ما يقع في العادة منها وما لا يقع ، واشتغلوا بتكليف الجواب عن ذلك وكثرة الخصومات فيه والجدال عليه ، حتى يتولد من ذلك افتراق القلوب ويستقر فيها السببه الأهواء والشحناء والعداوة والبغضاء ، ويقتزن ذلك كثيراً بنية المغالبة وطلب العلو والمباهاة وصرف وجوه الناس ، وهذا مما ذمه العلماء الربانيون ، ودلت السنة على قبحه وتحريمه ، وأما فقهاء أهل الحديث العاملون به ، فإن معظم همهم البحث عن معاني كتاب الله عز وجل وما يفسره من السنن الصحيحة وكلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وعن سنة رسول الله ﷺ ومعرفة صحيحها وسقيمها ، ثم التفقه فيها وتفهمها والوقوف على معانيها ، ثم معرفة كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان في أنواع العلوم من التفسير والحديث ومسائل الحلال والحرام ، وأصول السنة والزهدي والرقائق وغير ذلك ، وهذا هو طريقة الإمام أحمد ومن وافقه من علماء الحديث الربانيين ، وفي معرفة هذا شغل شاغل عن التشاغل بما أحدث من الرأي مما لا ينتفع به ولا يقع ، وإنما يورث التجادل فيه الخصومات والجدال ، وكثرة القيل والقال ، وكان الإمام أحمد كثيراً إذا سئل عن شيء من المسائل المولدة التي لا تقع يقول : دعونا من هذه المسائل المحدثه ..... ومن سلك طريقة طلب العلم على ما ذكرناه تمكن من فهم جواب الحوادث الواقعة غالباً ، لأن أصولها توجد في تلك الأصول المشار إليها ، ولا بد أن يكون سلوك هذا الطريق خلف أئمة أهله المجمع على هدايتهم ودرابنتهم ، كالشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد ومن سلك مسلكهم ، فإن من ادعى سلوك هذا الطريق على غير طريقهم وقع في مفاز ومهلك ، وأخذ بما لا يجوز الأخذ به ، وترك ما يجب العمل به ، وملاك الأمر كله أن يقصد بذلك وجه الله والتقرب إليه ، بمعرفة ما أنزل على رسوله ، وسلوك طريقه والعمل بذلك ودعاء الخلق إليه ، ومن كان كذلك وفقه الله وسدده وألهمه رشده وعلمه ما لم يكن يعلم ، وكان من العلماء الممدوحين في الكتاب في قوله تعالى ( إنما يخشى الله من عباده العلماء ) ومن الراسخين في العلم ..... وفي الجملة فمن امتثل ما أمر به النبي ﷺ في هذا الحديث ، وانتهى عما نهي عنه ، وكان مشغولاً بذلك عن غيره ، حصل له النجاة في الدنيا والآخرة ، ومن خالف ذلك ، واشتغل بخواطره وما يستحسنه ، وقع فيما حذر منه النبي ﷺ من حال أهل الكتاب الذين هلكوا بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم ، وعدم انقيادهم وطاعتهم لرسولهم .

### بعض الآثار الواردة في لزوم اجتناب المحرمات :

روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال له : اتق الله تكن أعبد الناس . رواه أحمد والترمذي .  
 وقالت عائشة : من سره أن يسبق الدائب المجتهد ، فليكنف عن الذنوب . وروي عنها مرفوعاً .  
 وقال الحسن : ما عبد العابدون بشيء أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه .  
 وقال سهل بن عبد الله التستري : أعمال البر يعملها البر والفاجر ، وأما المعاصي فلا يتركها إلا صديق .  
 وقال ميمون بن مهران : ذكر الله باللسان حسن ، وأفضل منه أن يذكر الله العبد عند المعصية فيمسك عنها .  
 وعن بعض السلف : ترك دائق مما يكره الله أحب إلي من خمسمائة حجة .  
 وروى أبو نعيم في الحلية : عن زيد بن ميسرة قال : يقول الله في بعض الكتب : أيها الشاب التارك شهوته ، المتبذل شبابه لأجلي : أنت عندي كبعض ملائكتي .

### ما يستفاد من الحديث :

- ١ . وجوب ترك المحرمات ، والحث على الابتعاد عنها بترك وسائلها ومقدماتها .
- ٢ . كل أوامر الشرع معلقة بالاستطاعة .
- ٣ . ذم الاختلاف في الدين .
- ٤ . النهي عن كثرة المسائل التي لا تورث العمل .
- ٥ . أن مخالفة نهج الأنبياء سبب للهلاك .

## الحديث العاشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى طيب ، لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى ( يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ) وقال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ) ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث ، أغبر ، يمد يديه إلى السماء ( يا رب ، يا رب ) ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذّي بالحرام<sup>(١)</sup> ، فأني يستجاب لذلك . رواه مسلم

تخرجه : رواه مسلم ، وفي أوله ( أيها الناس ) .

موضوعه : الحث على أكل الحلال الطيب والتحذير من الحرام .

شرحه :

قوله ( إن الله تعالى طيب ، لا يقبل إلا طيباً ) .

قوله ( طيب ) المعنى أنه تعالى مقدس منزّه عن النقائص والعيوب ، متصف بصفات الجلال والكمال .

فهو سبحانه طيب في ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأحكامه .

وقوله ( لا يقبل إلا طيباً ) من طيبه سبحانه أنه لا يقبل إلا الطيب من الأقوال ، والأعمال ، والاعتقادات ، فهو سبحانه لا يقبل ما فيه شرك ، أو رياء ، أو خبث .

قال تعالى ( إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ) .

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه . رواه مسلم

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يريها لصاحبها كما يري أحدكم فُلُوهُ<sup>(٢)</sup> حتى تكون مثل الجبل . متفق عليه

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى ، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد النبي ﷺ عليه السلام فقال : ارجع فصل فإنك لم تصل . فصلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال : ارجع فصل فإنك لم تصل . ثلاثاً الحديث متفق عليه

قوله ( وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى ( يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ) وقال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ) .

المراد أن الله أمر المرسلين بأكل الطيبات ، وكذلك أمر المؤمنين ، وليس المراد أنه أمر المؤمنين بكل ما أمر به المرسلين .

(١) تقرأ بالتخفيف لا بالتشديد على الصحيح ، وقيل يصح التشديد ويكون المراد غذاه غيره ، كما في حال صغره ، وبالتخفيف يكون هو غذى نفسه .

(٢) الفلو : هو مهر الخيل الصغير .

قوله ( ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث ، أغبر ، يمد يديه إلى السماء ( يا رب ، يا رب ) ) .

في هذه الجملة بيان لبعض أسباب إجابة الدعاء ، وهي :

١. **حصول السفر** : قال ﷺ : ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على ولده . رواه أبو داود ، والترمذي ، وحسنه الألباني .

والأظهر أن حال السفر حال إجابة للدعاء ، لما فيه من الضعف ، والتعب ، والبعد عن ملاهي الدنيا ، ولا ينبغي تقصد السفر للدعاء ، والله أعلم .

٢. **الشعث ، والغبر** : قال ﷺ : رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره . رواه مسلم والأظهر أن هذه الحال يكون فيها القلب أقرب إلى الله ، وأبعد عن الدنيا ، وهذا هو السبب .

ولا ينبغي تقصد ذلك للدعاء ، لأن العبرة بما يقوم بالقلب من الانكسار ، لا بظاهر الحال ، والله أعلم .

وإن كان جاء عن مطرف بن عبد الله أنه حُبس له ابن أخ ، فلبس خُلُقان ثيابه ، وأخذ عكازاً بيده ، فقيل له : ما هذا ؟ قال : استكين لربي لعله أن يشفعني في ابن أخي .

٣. **رفع اليدين عند الدعاء** : قال ﷺ : إن الله حيي كريم ، يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين . رواه أحمد ، والترمذي ، وصححه الألباني .

وقد تضافرت الأحاديث على مشروعية رفع اليدين عند الدعاء ، لأن هذه الصفة تدل على الفقر والحاجة والطلب ، فالرافع كالمستجدي الطالب .

**مسألة** : رفع اليدين عند الدعاء له ثلاثة أحكام :

١. ما ورد فيه رفع اليدين :

مثل : الاستسقاء ، والقنوت في النوازل ، ودعاء عرفة ، والدعاء على الصفا والمروة ، وهذه يسن رفع اليدين فيها .

٢. ما ورد فيه عدم الرفع :

مثل : أدعية الصلاة ، كالدعاء بين السجدين ( رب اغفر لي ، رب اغفر لي ) أو الدعاء في السجود ، أو آخر التشهد . وهذه لا يشرع رفع اليدين فيها .

٣. ما لم يرد فيه شيء :

مثل : الدعاء بين الأذان والإقامة ، وعند نزول المطر ، وفي عموم الأوقات التي لم ينص فيها على رفع اليدين .

يقال : الأصل في الدعاء رفع اليدين ، وعليه يسن رفع الأيدي في ذلك .

**مسألة** : رفع اليدين في الدعاء ورد بثلاث صفات :

أ. الإشارة بالإصبع فقط : وهذا ورد عنه ﷺ في خطبة الجمعة إشارة إلى توحيد الله ، كما في صحيح مسلم من حديث عمارة بن رؤيبة : أنه رأى بشر بن مروان على المنبر رافعاً يديه ، فقال : قبح الله هاتين اليدين ، لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد أن يقول بيده هكذا ، وأشار بإصبعه المسبحة .

ب. المبالغة في رفعهما ، حتى ورد أنه جعل ظهورهما إلى السماء ، والتحقيق أنه لشدة المبالغة في الرفع صارت ظهورهما إلى السماء ، وليس المعنى أنه دعاء بظهور كفيه ، كما فهم ذلك بعضهم ، وهذه الصفة تكون عند الابتهاال ، وشدة الحاجة .

ج. رفعهما إلى الصدر : وهذا هو الغالب في الدعاء .

٤. الإلحاح في الدعاء ، وتكرار السؤال والطلب : لقوله ﷺ في هذا الحديث ( يا رب ، يا رب )<sup>(١)</sup>

وقال ابن مسعود عن النبي ﷺ : وكان إذا دعا دعا ثلاثاً ، وإذا سأل سأل ثلاثاً ، ثم قال : اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقريش . رواه مسلم وعليه فيسن تكرار الدعاء عدداً ، وموضعاً .

وأما ما جاء عنه ﷺ أن الله يحب الملحين في الدعاء . فلا يصح ، قال عنه الألباني : موضوع .

٥. الدعاء بلفظ الربوبية : والناظر في أدعية الأنبياء في القرآن على اختلاف مطالبهم يجدها بلفظ الربوبية ، لأن طلب العبد من ربه لا بد أن يستحضر فيه معنى الربوبية ، والتدبير ، والقدرة ، ويستشعر فيه الضعف ، والمسكنة ، والحاجة . قال السعدي : ولهذا تجد أسئلة الأنبياء وأتباعهم في القرآن بلفظ الربوبية غالباً ، فإن مطالبهم كلها داخلية تحت ربوبيته الخاصة ، فملاحظة هذا المعنى نافعة أعظم النفع للعبد أ.هـ

ومن أسباب إجابة الدعاء وآدابه أن يتوسل العبد بأسماء الله وصفاته المناسبة لحاجته ، فيقول : يا رحمن ارحمني ، يا غفور اغفر لي ، وهكذا .

وليس من الحسن أن يقول : اللهم أهلك الظالمين يا غفور يا رحيم ، أو اللهم ارحمني يا شديد العقاب .

قال ابن القيم : كما تقول ( اغفر لي ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ) ولا يحسن : إنك أنت السميع البصير ، فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته أ.هـ

ومن لطيف ما ذكر ابن القيم أن بعض العرب سمع قارئاً يقرأ ( والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله ) والله غفور رحيم . قال : ليس هذا بكلام الله !

فقال القاريء : أتكذب بكلام الله تعالى ؟

فقال : لا ، ولكن ليس هذا بكلام الله تعالى .

فعاد إلى حفظه وقرأ ( والله عزيز حكيم ) .

فقال الأعرابي : صدقت : عز ، فحكم ، فقطع ، ولو غفر ، ورحم ، لما قطع .

وقوله ( ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأني يستجاب لذلك ) .

في هذه الجملة بيان لسبب من أسباب منع إجابة الدعاء ، وهو أكل الحرام ، والتلبس به .

ومعنى قوله ( فأني يستجاب لذلك ) : استفهام على وجه التعجب والاستبعاد ، والمعنى : يبعد أن يستجاب له .

وإن كان من الممكن أن يستجاب له ، خاصة إذا كان هناك شدة تعلق القلب بالله ، وانقطاع كل الأسباب ، كما قال تعالى عن

الكفار ( فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ) .

(١) يجوز قول ( يا رب ) على حذف الياء ، أو ( يا ربي ) على القطع .

## بعض الآثار الواردة في النور عن المحرمات :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي ، فأرفعها لأكلها ، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها . متفق عليه

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال أمن الحلال ، أم من الحرام . وعن أبي بكر أنه تقياً مرة كل ما في بطنه لما أخبره غلامه أن ما أكله كان من مال تكهن فيه في الجاهلية ، ولم يعطه صاحبه المال إلا بعد الإسلام ، وقال : لو لم يخرج إلا ومعه روعي لفعلت .

وعن عمر بن الخطاب قال : بالورع عما حرم الله يقبل الله الدعاء والتسبيح . وقال الليث : رأى موسى عليه السلام رجلاً رافعاً يديه وهو يسأل الله مجتهداً ، فقال موسى : أي رب عبدك دعاك حتى رحمته ، وأنت أرحم الراحمين ، فما صنعت في حاجته ؟ قال : يا موسى لو رفع يديه حتى ينقطع ما نظرت في حاجته حتى ينظر في حقي . وقال مالك بن دينار : أصاب بني إسرائيل بلاء فخرجوا مخرجاً ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسه وترفعون إلي أكفأ قد سفكتم بها الدماء ، وملائم بها بيوتكم من الحرام ، الآن اشتد غضبي عليكم ، ولن تزدادوا مني إلا بعداً .

وقال وهب بن الورد : لو قمت مقام هذه السارية لم ينفعك شيء حتى تنظر ما يدخل في بطنك حلال أو حرام . وقال بعض السلف : لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طرقها بالمعاصي . وقال الشاعر على ذلك :

نحن ندعوا الإله في كل ركب      ثم ننساه عند كشف الكروب  
كيف نرجو إجابة لدعاء      قد سددا طرقها بالذنوب

## ما يستفاد من الحديث :

- ١ . إطابة المطعم والملبس من أسباب إجابة الدعاء .
- ٢ . قال ﷺ لسعد : أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة . ضعفه الألباني .
- ٣ . وقال إبراهيم بن أدهم : أطب مطعمك ، ولا عليك ألا تقوم بالليل وتصوم بالنهار .
- ٤ . الحرص على الطيب من الأقوال ، والأعمال .
- ٥ . أن أكل الحلال والطيب يعين على العمل الصالح .
- ٦ . وجود أسباب لإجابة الدعاء ، ووجود موانع تمنع إجابته .
- ٧ . إثبات علو الله تعالى على خلقه .
- ٨ . الحذر من الوقوع في الحرام ، إذ التساهل فيه يؤدي إلى التوسع في ذلك .

## الحديث الحادي عشر

عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله ﷺ وريحانته رضي الله عنهما قال : حفظت من رسول الله ﷺ : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . رواه الترمذي ، والنسائي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

تخرجه : رواه الترمذي ، والنسائي ، وصححه الألباني .  
ولفظه عند الترمذي : عن أبي الحوراء السعدي قال : قلت للحسن بن علي : ما حفظت من رسول الله ﷺ ؟ قال : حفظت من رسول الله ﷺ : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، وإن الكذب ريبة .  
مكانته : قال ابن حجر الهيتمي : هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الدين ، وأصل في الورع الذي عليه مدار المتقين ، ومنجي من ظلم الشكوك والأوهام المانعة من نور اليقين .  
موضوعه : البعد عن الأمور المشكوك فيها ، والأخذ بالأمور المتقين منها ، حفظاً للنفس والدين .  
والكلام عن هذا الحديث كالكلام عن حديث النعمان ( الحلال بين ، والحرام بين ) لكن في حديث النعمان حث وترغيب في ترك المشتبهات ، أما في هذا الحديث فتصرح بترك ذلك .  
شرحه :

قوله ( عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله ﷺ وريحانته رضي الله عنهما ) .  
الحسن بن علي بن أبي طالب ، وهو ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وهو أفضل من أخيه الحسين كما قال شيخنا ابن عثيمين .  
والسبط : واحد الأسباط ، وهم الأحفاد . وقيل : أحفاد الأولاد دون البنات . ويرده ما اشتهر من كون الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ . والأسباط بمنزلة القبائل .  
قال ابن الأثير : والأسباط في أولاد إسحاق بن إبراهيم الخليل بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل ، واحدهم سبط ، فهو واقع على الأمة ، والأمة واقعة عليه ، ومنه الحديث الآخر ( الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ ) أي طائفتان وقطعتان منه . وقيل الأسباط خاصة : الأولاد . وقيل أولاد الأولاد . وقيل أولاد البنات أ.هـ .  
وقال ابن الجوزي : قال الزجاج : السبط في اللغة الجماعة الذين يرجعون إلى أب واحد ، والسبط في اللغة الشجر ، فالسبط الذين هم من شجرة واحدة ، وقال غيره : الأسباط من ولد إسحاق بمنزلة القبائل من ولد إسماعيل أ.هـ .  
قوله ( وريحانته ) لأن النبي ﷺ أخبر أن الحسن والحسين ريحانته ، كما في صحيح البخاري : هما ريحانتي من الدنيا .  
وشبههما بذلك لسروره بهما ، وإقباله عليهما ، كما تستميل رائحة الريحان النفوس الطيبة .  
وفي المستدرك للحاكم عن عروة بن الزبير ، عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قبل حسناً وضمه إليه ، وجعل يشمه ، وعنده رجل من الأنصار ، فقال الأنصاري : إن لي ابناً قد بلغ ، ما قبلته قط ، فقال رسول الله ﷺ : أرأيت إن كان الله نزع الرحمة من قلبك فما ذنبي . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي .



قوله ( دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ) .

يريبك : بفتح الياء الأولى وضمها ، والفتح أفصح .

قال ابن حجر : يريبك بفتح أوله ويجوز الضم ، يقال رابه يريبه بالفتح ، وأرابه يريبه بالضم ريبة وهي الشك والتردد .

والمعنى : اترك الشيء الذي يريبك وتشك فيه إلى الشيء الواضح الجلي المتيقن الذي لا شك فيه .

قال ابن حجر : والمعنى إذا شككت في شيء فدعه ، وترك ما يشك فيه أصل عظيم في الورع .

**مسألة : مراتب الورع :**

١ . الورع الواجب : وهو اجتناب المحرم .

٢ . الورع المندوب : وهو اجتناب المكروه ، والمشتبه فيه .

٣ . الورع الفاضل : وهو اجتناب المباحات التي يخشى أن تجره إلى المكروهات أو المحرمات .

وهذه المرتبة لا يؤمر بها كل أحد ، بل هي مرتبة المتقين الذين طابت نفوسهم بترك المحرمات والشبهات .

قال ابن رجب : وها هنا أمر ينبغي التفطن له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها

وتشابهت أعماله بالتقوى والورع ، فأما من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبه ، فإنه لا

يحتمل له ذلك ، بل ينكر عليه ، كما قال ابن عمر لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق : يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا

الحسين ، وسمعت النبي ﷺ يقول : هما ريجانتي من الدنيا .

وسأل رجل بشر بن الحارث عن رجل له زوجة ، وأمه تأمره بطلاقها ، قال : إن كان بر أمه في كل شيء ، ولم يبق من برها إلا

طلاق زوجته فليفعل ، وإن كان يبرها بطلاق زوجته ثم يقوم بعد ذلك إلى أمه فيضربها فلا يفعل .

وسئل الإمام أحمد عن رجل يشتري بقالاً ويشترط الخوصة - يعني التي تربط بها جزيرة البقل - فقال أحمد : أيش هذه المسائل ؟!

قيل له : إنه إبراهيم بن أبي نعيم ، فقال أحمد : إن كان إبراهيم بن أبي نعيم ، فنعم هذا يشبه ذاك .

وقد كان الإمام أحمد نفسه يستعمل هذا الورع ، فإنه أمر من يشتري له سمناً فجاء به على ورقة ، فأمر برد الورقة إلى البائع .

وكان أحمد لا يستمد من محابر أصحابه ، وإنما يخرج معه محبرة يستمد منها ، واستأذنه رجل أن يكتب من محبرته ، فقال له :

اكتب فهذا ورع مظلم . واستأذنه آخر في ذلك فتبسم ، فقال : لم يبلغ ورعي ولا ورعك هذا . وهذا قاله على وجه التواضع وإلا

فهو كان في نفسه يستعمل هذا الورع ، وكان ينكره على من لم يصل إلى هذا المقام ، بل يتسامح في المكروهات الظاهرة ويقدم

على الشبهات من غير توقف . هـ

وينبغي التنبيه إلى أن بعض الناس قد تجنح به نفسه إلى ترك ما أباحه الله ويظن أن ذلك من باب الورع .

**ما يستفاد من الحديث :**

١ . وجوب اجتناب الحرام .

٢ . البعد عن مواطن الريب .

٣ . جواز التمتع بالحلال الذي لا ريبة فيه .

٤ . ترك الشبهات يحفظ القلب من القلق والشك .

٥ . النفوس المؤمنة يصيبها الريب والقلق من المحرمات وما يقرب إليها ، بخلاف من أنس بالمحرمات والمكروهات .

## الحديث الثاني عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . حديث حسن ، رواه الترمذي وغيره هكذا .

تخریجه : رواه الترمذي ، وابن ماجه مسنداً من حديث أبي هريرة ، وحسنه النووي هنا ، وصححه الألباني .

والحديث روي مرسلاً عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

مكانته : هذا الحديث من أحاديث الآداب العظيمة .

قال ابن رجب : وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الأدب ، وقد حكى الإمام أبو عمرو بن الصلاح عن أبي محمد بن أبي زيد إمام المالكية في زمانه أنه قال : جماع آداب الخير وأزمته تتفرع من أربعة أحاديث : قول النبي ﷺ : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت . وقوله ﷺ : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . وقوله ﷺ للذي اختصر له في الوصية : لا تغضب . وقوله ﷺ : المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

موضوعه : بيان أدب من آداب الإسلام التي تحفظ دين الإنسان ، وتطهر قلبه من أن يلتاث بما لا فائدة فيه .

شرحه :

يبين النبي ﷺ في هذا الحديث الوجيز أن الأمور قسمان :

١ . أمور تعني الإنسان : وهذه ينبغي أن يشتغل بها الإنسان لما فيها من العائدة النافعة عليه .

وكل ما يعني الإنسان ويفيده فقد جاء به الإسلام وحث عليه أو رخص فيه ، من أنواع العبادات والمعاشات .

٢ . أمور لا تعني الإنسان : وهذه ينبغي ألا يشتغل بها الإنسان ، ولا يتعرض لها ، وهي على درجات من حيث الحكم .

فكل ما لا يعني الإنسان من الاعتقادات ، والأقوال ، والأعمال ، والعلاقات فالمنبغي اجتنابه .

١ . الاعتقادات : كالتفكير في من خلق الله ، أو بعض البدع المحدثّة في صفات الله ، كالبحث في مسألة خلو العرش عند النزول الإلهي ، أو مماسة الله للعرش ، ونحو ذلك ، من الأمور التي لم تكن عند السلف .

والمراد البحث فيها ابتداءً ، أما رداً على أهل البدع فهو من الأمور الواجبة .

٢ . الأقوال : كل قول لا يقرب إلى الله ، ولا ينفع في الدنيا فهو من الفضول المذموم .

وأكثر اشتغال الناس بما لا يعنيه يكون عن طريق اللسان ، ولذا قال ﷺ لمعاذ : وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم .

قال ابن رجب : وأكثر ما يراد بترك ما لا يعني : حفظ اللسان من لغو الكلام ... وفي المسند من حديث الحسين عن النبي ﷺ قال : إن من حسن إسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه .

وخرج الخرائطي من حديث ابن مسعود قال : أتى النبي ﷺ رجل فقال : يا رسول الله : إني مطاع في قومي فما أمرهم ؟ قال له : مرهم بإفشاء السلام ، وقلة الكلام إلا فيما يعنيه .

وخرج الترمذي من حديث أنس قال : توفي رجل من أصحابه - يعني النبي ﷺ - فقال رجل : أبشر بالجنة . فقال رسول الله ﷺ : أولاً تدري فلعله تكلم بما لا يعنيه ، أو بخل بما لا يغنيه . وقد روي معنى هذا الحديث من وجوه متعددة عن النبي ﷺ وفي بعضها أنه قتل شهيداً أ.هـ

٣. الأعمال : كل عمل لا يقرب إلا الله ، ولا ينفع في الدنيا ، فهو من الفضول المذموم .  
قال ابن القيم : وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة فقال : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . فهذا يعم الترك لما لا يعني من : الكلام ، والنظر ، والاستماع ، والبطش ، والمشى ، والفكر ، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة ، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع أ.هـ

### بعض الآثار الواردة في حفظ اللسان عما لا يعني :

خرج العقيلي من حديث أبي هريرة مرفوعاً : أكثر الناس ذنباً أكثرهم كلاماً فيما لا يعنيه .  
وقال عمر بن عبد العزيز : من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه .  
وقال مورك العجلي : أمرٌ أنا في طلبه منذ كان كذا وكذا سنة لم أقدر عليه ، لست بتارك طلبه أبداً . قالوا : وما هو ؟ قال : الكف عما لا يعني . رواه ابن أبي الدنيا .  
وروى أبو عبيدة عن الحسن قال : من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه .  
وقال سهل بن عبد الله التستري : من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق .  
وقال معروف : كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله عز وجل .  
وقال النخعي : يهلك الناس في فضول المال والكلام .  
وقال وهب بن منبه : أجمعت الحكماء على أن رأس الحكيم : الصمت .  
وقال معروف الكرخي : كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله تعالى .  
وقال مالك بن دينار : إذا رأيت قساوة في قلبك ، وضعفاً في بدنك ، وحرماناً في رزقك ، فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك .  
وقال الشافعي : ثلاثة تزيد في العقل : مجالسة العلماء ، ومجالسة الصالحين ، وترك الكلام فيما لا يعني .  
وقال أيضاً : من أراد أن ينور الله قلبه فليترك الكلام فيما لا يعنيه .

## ما يستفاد من الحديث :

١. مَنْ حَسُنَ إِسْلَامُهُ تَرَكَ مَا لَا يَعْنِيهِ .
٢. مَنْ تَرَكَ مَا لَا يَعْنِيهِ حَسُنَ إِسْلَامُهُ .
٣. مَنْ انْشَغَلَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ نَقَصَ إِسْلَامُهُ .
- قال ابن تيمية : فإذا خاض فيما لا يعنيه نقص من حسن إسلامه .
٤. مَنْ انْشَغَلَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ حَرَّمَ مَا يَعْنِيهِ .
٥. الحرص على الأمور النافعة ، كما قال ﷺ : احرص على ما ينفعك .
٦. الحرص على الوقت .
٧. الحث على علو الهمة ، وطلب المعالي .

## الحديث الثالث عشر

عن أبي حمزة أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه خادم رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ قال : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . رواه البخاري ومسلم .

تخریجه : متفق عليه ، ولفظ مسلم : حتى يحب لأخيه أو قال : لجاره .

مكانته : عده أبو زيد القيرواني من الأحاديث الأربعة التي هي قاعدة في الآداب كما سبق .

موضوعه : إرادة الخير للمؤمنين من دلائل الإيمان .

شرحه :

يخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن من علامات الإيمان أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه من أمور الدين والدنيا ، وأن من لم يكن كذلك نقص إيمانه بقدره .

قال ابن رجب : والمقصود أن من جملة خصال الإيمان الواجبة : أن يحب المرء لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكرهه لنفسه ، فإذا زال ذلك عنه فقد نقص إيمانه بذلك .

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويأتي إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه .

قال الكرماني : من الإيمان أيضاً أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه ، ولم يذكره لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه فترك التنصيص عليه اكتفاءً ، والله أعلم .

ونفي الإيمان هنا يراد به نفي كمال الإيمان ، لا نفي أصل الإيمان .

وقد جاء في مسند الإمام أحمد : لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير .

وقد ذكر العلماء أنه كلما جاء نفي الإيمان عن أمر دل ذلك على أن ذلك الأمر واجب .

قال ابن تيمية : وكذلك من لا يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه لم يكن معه ما أوجبه الله عليه من الإيمان ، فحيث نفى الله الإيمان عن شخص فلا يكون إلا لنقص ما يجب عليه من الإيمان ، ويكون من المعرضين للوعيد ، ليس من المستحقين للوعد المطلق .

وقال شيخنا ابن عثيمين : إذ لا يُنفى الإيمان إلا لفوات واجب فيه ، أو وجود ما ينفيه .

## بعض الآثار الواردة في ذلك :

في المعجم الكبير للطبراني عن ابن بريدة الأسلمي قال : شتم رجل ابن عباس فقال ابن عباس : إنك لتشتمني وفي ثلاث خصال :  
إني لآتي على الآية من كتاب الله عز وجل فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم منها ، وإني لأسمع بالحكام من حكام  
المسلمين يعدل في حكمه فأفرح به ، ولعلي لا أقاضي إليه أبداً ، وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح ،  
وما لي به من سائمة .

وقال الفضيل : إن كنت تحب أن يكون الناس مثلك فما أديت النصيحة لربك ، كيف وأنت تحب أن يكونوا دونك .

وقال الشافعي : وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولم ينسب إلي منه شيء .

وكان عتبة الغلام إذا أراد أن يفطر يقول لبعض إخوانه المطلعين على أعماله : أخرج إلي ماء ، أو تمرات أفطر عليها ليكون لك  
مثل أجري .

## ما يستفاد من الحديث :

١ . حرص الإسلام على سلامة الصدور ، وسعيه لكل ما يحقق الألفة بين المسلمين .

٢ . محبة الخير للآخرين من دلائل الإيمان .

٣ . تحريم الحسد .

وقد عرف العلماء الحسد بأنه : تمنى زوال النعمة عن الغير ، ويرى ابن تيمية أنه : كراهة ما ينعم الله به على الغير ، حتى لو لم  
يتمن زواله .

٤ . أن الإيمان يزيد وينقص .

## الحديث الرابع عشر

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ : لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة . رواه البخاري ومسلم .

تخریجه : متفق عليه .

ولفظ البخاري : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والمارق من الدين التارك للجماعة .

ولفظ مسلم : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة .

مكانته : قال ابن حجر الهيتمي : وهو من القواعد الخطيرة لتعلقه بأخطر الأشياء وهو الدماء .  
موضوعه : بيان عصمة دم المسلم .

شرحه :

يبين النبي ﷺ أنه لا يجوز الاعتداء على نفس المسلم ، لأن نفسه محترمة ، بل هي أعظم النفوس المحترمة<sup>(١)</sup> ، وقد ذكر النبي ﷺ في أعظم مجمع في الإسلام ، في حجة الوداع أن دم المسلم ، وماله ، وعرضه حرام ، فقال ﷺ : فإن دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليبلغ الشاهد الغائب . متفق عليه

وهذا هو الأصل في نفس المسلم ، لكن قد يصدر منه ما يوجب العقوبة بالقتل ، وهذا على قسمين :

١ . يقتل كافراً : وهذا إذا قال أو فعل ما يوجب رده ، ولم يتب من ذلك ، وهو معنى قوله ﷺ هنا : والتارك لدينه .

٢ . يقتل مسلماً : وهذا إذا كان موجب قتله لا يصل إلى الكفر ، وهو معنى قوله ﷺ هنا : النفس بالنفس ، والثيب الزاني .

فالمسلم إن قتل مسلماً قُتل به ، وإن زنا وكان محصناً فإنه يُقتل رجماً ، وتفصيل ذلك في كتب الفقه .

وإنما استباح دمه في هذه الأحوال وغيرها<sup>(٢)</sup> تغليبا للمصلحة العامة .

## ما يستفاد من الحديث :

١ . حرمة الاعتداء على المسلم في نفسه وماله وعرضه .

٢ . ضرر المعصية على الإنسان في الدنيا والآخرة .

٣ . وجوب لزوم الجماعة ، وكراهية الفرقة ، وهذا من أهم مقاصد الدين .

(١) والنفوس المحترمة أربعة : نفس المسلم ، والذمي ، والمعاهد ، والمستأمن .

(٢) وسبق ذكر بعض الأحوال التي يستباح فيها دم المسلم ، وقد ذكر ابن رجب في شرحه لهذا الحديث بعض تلك الصور .

## الحديث الخامس عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه . رواه البخاري ومسلم

تخریجه : متفق عليه ، واللفظ لمسلم ، ولفظ البخاري : فلا يؤذ جاره .  
موضوعه : الحث على بعض الآداب .  
شرحه :

قوله ( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ) .

في هذه الجملة يحث النبي ﷺ على فضيلة قول الخير ، وعلى فضيلة السكوت عما لا خير فيه ، لأن الحديث على مرتبتين :  
١ . قول الخير : وهذا هو الأولى بالمسلم أن يحرص عليه ، وأن يثبت الخير بين الناس ، كما قال تعالى ( ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ) .  
وتذاكروا عند الأحنف بن قيس : أيما أفضل الصمت أو النطق ؟ فقال قوم : الصمت أفضل . فقال الأحنف : النطق أفضل ، لأن فضل الصمت لا يعدو صاحبه ، والمنطق الحسن ينتفع به من سمعه .  
٢ . السكوت عما لا خير فيه : ويشمل المحرم ، وما لا فائدة منه .  
وهناك كلام مباح ، ككلام المؤانسة ، وكلام ما فيه مصلحة دنيوية ، فهذا لا بأس به ، والأصل فيه الإباحة إلا نوى به قربة ، فله ما نوى .

قال ابن رجب : فمن هنا يعلم أن ما ليس بخير من الكلام فالسكوت عنه أفضل من التكلم به ، اللهم إلا ما تدعوا الحاجة مما لا بد منه .

وقال شيخنا ابن عثيمين : والخير نوعان : خير في المقال نفسه ، وخير في المراد به .

أما الخير في المقال فأن يذكر الله عز وجل ، ويسبح ، ويحمد ، ويقرأ القرآن ، ويعلم العلم ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فهذا خير بنفسه .

وأما الخير لغيره فأن يقول قولاً ليس خيراً في نفسه ، ولكن من أجل إدخال السرور على جلسائه ، فإن هذا خير لما يترتب عليه من الأُنس وإزالة الوحشة ، وحصول الألفة .



وقوله ( ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ) .

في هذه الجملة يحث النبي ﷺ على حسن الجوار .

وقد عظمت الشريعة حق الجار ، حتى قال النبي ﷺ : ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . متفق عليه

ولأجل هذه الوصية المتكررة من جبريل للنبي ﷺ كان ﷺ أحسن الناس جواراً مع المسلم وغير المسلم .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال : إن خليلي ﷺ أوصاني : إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : يا نساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ، ولو فرسن شاة<sup>(١)</sup> .

والمراد أن الإنسان لا يحتقر هدية لجاره ولو كانت صغيرة ، لأن العبرة في الهدية معناها لا قدرها .

وقوله ( فليكرم جاره ) يشمل جميع أنواع الإكرام بالقول والفعل .

قال ابن حجر في فتح الباري : وقد ورد تفسير الإكرام والإحسان للجار وترك أذاه في عدة أحاديث أخرجهما الطبراني من حديث

بهر بن حكيم عن أبيه عن جده ، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وأبو الشيخ في

كتاب التوبيخ من حديث معاذ بن جبل : قالوا يا رسول الله : ما حق الجار على الجار ؟ قال : إن استقرضك أقرضته ، وإن

استعانك أعنته ، وإن مرض عدته ، وإن احتاج أعطيته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن أصابه خير هنيئته ، وإن أصابته مصيبة عزيتته

، وإذا مات اتبعت جنازته ، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذيه بريح قدرك إلا أن تغرف له ، وإن

اشتريت فاكهة فأهد له ، وإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا تخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده .

والفاظهم متقاربة ، والسياق أكثره لعمر بن شعيب ، وفي حديث بهز بن حكيم ( وإن أعوز سترته ) وأسانيدهم واهية لكن

اختلاف مخارجهم يشعر بأن للحديث أصلاً . ثم الأمر بالإكرام يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، فقد يكون فرض عين ،

وقد يكون فرض كفاية ، وقد يكون مستحباً ، ويجمع الجميع أنه من مكارم الأخلاق أ.هـ

وكلما كان الجار أقرب منزلاً ، أو رحماً كان حقه أعظم .

فعن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله : إن لي جارين فإلى أيهما أهدي ؟ قال : إلى أقربهما منك باباً . رواه البخاري

وقال تعالى ( والجار ذي القربى والجار الجنب ) وقد اختلف العلماء في المقصود بالآية :

١ . الجار ذي القربى : الجار من ذوي القرابة ، والجار الجنب : الجار من غير القرابة .

٢ . الجار ذي القربى : الجار القريب من الدار ، والجار الجنب : الجار البعيد من الدار .

وقد وردت بعض الآثار في حد الجوار ، فليل : سبعة بيوت ، وقيل : أربعين بيتاً ، كما جاء في الأدب المفرد عن عائشة .

ثم اختلفوا هل هي أربعين بيتاً من كل جهة ، أم عشرة من كل جهة .

وحده بعضهم بمن يصلي معك في المسجد صلاة الصبح ، وبعضهم بمن يسمع النداء ، وبعضهم قصره على الملاصق .

والصحيح أنه يرجع فيه للعرف كما اختار ذلك ابن قدامة ، وشيخنا .

(١) قال النووي : قال أهل اللغة : هو بكسر الفاء والسين ، وهو الظلف ، قالوا : وأصله في الإبل ، وهو فيها مثل القدم في الإنسان ، قالوا : ولا يقال إلا في الإبل ، ومرادهم أصله مختص

بالإبل ، ويطلق على الغنم استعارة .

وهذا النهي عن الاحتقار نهي للمعطية المهدية ، ومعناه : لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها لاستقلالها واحتقارها الموجود عندها ، بل تجود بما تيسر وإن كان قليلاً كفرسن شاة ،

وهو خير من العدم .

والجيران من حيث الحق على مراتب :

١. الجار المسلم القريب . وهذا له ثلاثة حقوق : حق الإسلام ، وحق الجوار ، وحق القرابة .
  ٢. الجار المسلم غير القريب : وهذا له حقان : حق الإسلام ، وحق الجوار .
  ٣. الجار الكافر<sup>(١)</sup> : وهذا له حق واحد وهو حق الجوار ، وقد كان النبي ﷺ يكرم جاره اليهودي ، ويهدي إليه من طعامه .
- قال الإمام أحمد : الجيران ثلاثة : فجار له حق ، وهو الجار الذمي ، وجار له حقان ، وهو الجار المسلم ، وجار له ثلاثة حقوق ، وهو الجار المسلم القريب .

**مسألة :** قال ابن رجب : وعند أحمد ومالك أنه يمنع الجار أن يتصرف في خاص ملكه بما يضر بجاره ، فيجب عندهما كف الأذى عن الجار بمنع إحداث الانتفاع المضر به ، ولو كان المنتفع إنما ينتفع بخاص ملكه ، ويجب عند أحمد أن يبذل لجاره ما يحتاج إليه ولا ضرر عليه في بذله ، وأعلى من هذين أن يصبر على أذى جاره ولا يقابله بالأذى . قال الحسن : ليس حسن الجوار كف الأذى ، ولكن حسن الجوار احتمال الأذى .

**وقوله ( ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ) .**

الضيف هو من يقدم من خارج البلد .

وقد أجمع أهل العلم على مشروعية إكرام الضيف ، وأنه من مكارم الأخلاق وجميل الخلال ، ولكنهم اختلفوا في حكمه على قولين :

فذهب الجمهور من الحنفية والمالكية والشافعية إلى استحبابها ، لأنها من باب المكارم والآداب .

وذهب الإمام أحمد ، والليث بن سعد إلى وجوبها يوماً وليلة ، وما زاد فهو مستحب ، واختاره ابن حزم ، وابن رجب ، والشوكاني ، وهو أقرب لقول الرسول ﷺ : ليلة الضيف حق واجب على كل مسلم ، فمن أصبح بفنائهم فهو دين عليه ، فإن شاء اقتضاه ، وإن شاء تركه . رواه البخاري في الأدب المفرد ، وصححه الألباني .

وعن عقبة بن عامر قال : قلنا : يا رسول الله : إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقروننا ، فما ترى ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا ، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم . متفق عليه

قال ابن رجب : وهذه النصوص تدل على وجوب الضيافة يوماً وليلة ، وهو قول الليث وأحمد ، وقال أحمد : له المطالبة بذلك إذا منعه ، لأنه حق له واجب ، وهل يأخذ بيده من ماله إذا منعه ، أو يرفعه إلى الحاكم ؟ على روايتين منصوصتين عنه .

وقال ابن حزم في المحلى : الضيافة فرض على البدوي والحضري ، والفقيه والجاهل : يوم وليلة مبرة وإتحاف ، ثم ثلاثة أيام ضيافة ولا مزيد ، فإن زاد فليس قراه لازماً ، وإن تمادى على قراه فحسن ، فإن منع الضيافة الواجبة فله أخذها مغالبة ، وكيف أمكنه ، ويقضى له بذلك .

وقال الشوكاني : والحق وجوب الضيافة لأمرين :

الأول : إباحة العقوبة بأخذ المال لمن ترك ذلك ، وهذا لا يكون في غير واجب .

والثاني : التأكد البالغ بجعل ذلك فرع الإيمان بالله واليوم الآخر ، ويفيد أن فعل خلافه فعل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومعلوم أن فروع الإيمان مأمور بها ، ثم تعليق ذلك بالإكرام وهو أخص من الضيافة فهو دال على لزومها بالأولى .

(١) ولا يقال : الكافر القريب ، لأن الإسلام قطع العلاقة بين المسلم والكافر .

والثالث : قوله ( فما كان وراء ذلك فهو صدقة ) فإنه صريح أن ما قبل ذلك غير صدقة ، بل واجب شرعاً .

والرابع : قوله ﷺ ( ليلة الضيف حق واجب ) فهذا تصريح بالوجوب لم يأت ما يدل على تأويله .

والخامس : قوله ﷺ في حديث المقدم الذي ذكرناه ( فإن نصره حق على كل مسلم ) فإن ظاهر هذا وجوب النصرة ، وذلك فرع وجوب الضيافة .

إذا تقرر هذا تقرر ضعف ما ذهب إليه الجمهور ، وكانت أحاديث الضيافة مخصصة لأحاديث حرمة الأموال إلا بطيبة الأنفس ، ولحديث ( ليس في المال حق سوى الزكاة ) .

ومن التعسفات حمل أحاديث الضيافة على سد الرق ، فإن هذا مما لم يقم عليه دليل ، ولا دعت إليه حاجة .

قال في تحفة الأحوذى بعد أن نقل كلام الشوكاني : وجوب الضيافة هو الظاهر الراجح عندي ، والله تعالى أعلم .

وأما الجمهور فحملوا هذه النصوص التي ظاهرها الوجوب على عدة أوجه :

فمنهم من جعل هذه الأحاديث محمولة على أول الإسلام ، ثم نسخت <sup>(١)</sup> .

ومنهم من حملها على حال الضرورة التي لا طريق للضيف إلا بالضيافة .

ومنهم من فرق بين الضيف النازل ، وبين الضيف المار ، فأوجب الضيافة للثاني ، واستحبها للأول .

وقد لخص النووي أقوال العلماء في المسألة بقوله : والضيافة من آداب الإسلام ، وخلق النبيين ، والصالحين . وقد أوجبها الليث ليلة واحدة . واحتج بالحديث ( ليلة الضيف حق واجب على كل مسلم ) وبحديث عقبة ( إن نزلتم بقم فأمروا لكم بحق الضيف فاقبلوا ، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم ) .

وعامة الفقهاء على أنها من مكارم الأخلاق ، وحجتهم قوله ﷺ ( جائزته يوم ليلة ) والجائزة العطية والمنحة والصلة ، وذلك لا يكون إلا مع الاختيار .

وقوله ﷺ ( فليكرم ، وليحسن ) يدل على هذا أيضاً ، إذ ليس يستعمل مثله في الواجب ، مع أنه مضموم إلى الإكرام للجار والإحسان إليه ، وذلك غير واجب .

وتأولوا الأحاديث أنها كانت في أول الإسلام ، إذ كانت المواساة واجبة .

واختلفوا هل الضيافة على الحاضر والبادي ، أم على البادي خاصة ؟ فذهب الشافعي رضي الله عنه ، ومحمد بن الحكم إلى أنها عليهما . وقال مالك ، وسحنون : إنما ذلك على أهل البوادي ، لأن المسافر يجد في الحضر المنازل في الفنادق ، ومواضع النزول ، وما يشتري من المأكّل في الأسواق . وقد جاء في حديث ( الضيافة على أهل الوبر ، وليست على أهل المدر ) ولكن هذا الحديث عند أهل المعرفة موضوع .

وقد تتعين الضيافة لمن اجتاز محتاجاً ، وخيف عليه ، وعلى أهل الذمة إذا اشترطت عليهم . هذا كلام القاضي أ.هـ.

(١) قال أبو عمر ابن عبد البر : وهذا يحتمل أن يكون في أول الإسلام ، إذ كانت المواساة واجبة ، ثم أتى الله تعالى بالخير والسعة ، فصارت الضيافة جائزة وكرماً مندوباً إليها ، محموداً فاعلها عليها .

**مسألة :** يكره في حق الضيف الإقامة أكثر من ثلاث ليالٍ إذا كان يخرج صاحب البيت بذلك ، كما قال ﷺ : ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يؤثمه . متفق عليه

وفي رواية لمسلم : قالوا : يا رسول الله وكيف يؤثمه ؟ قال : يقيم عنده ولا شيء له يقره به .

قال الخطابي : لا يحل للضيف أن يقيم عنده بعد ثلاثة أيام من غير استدعاء حتى يضيق صدره فيبطل أجره .

وأما في حق المضيف فيستحب إضافته بحسب القدرة ، لقوله ﷺ : الضيافة ثلاثة أيام ، وجائزته يوم وليلة ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه . رواه مسلم

قال الشوكاني : قوله ( حتى يجره ) أي يوقعه في الحرج وهو الإثم ، لأنه قد يكدره فيقول : هذا الضيف ثقیل ، أو ثقل علينا بطول إقامته ، أو يتعرض له بما يؤذيه ، أو يظن به ما لا يجوز .

قال النووي : وهذا كله محمول على ماذا أقام بعد الثلاث بغير استدعائه ، وأما إذا استدعاه وطلب منه إقامته ، أو علم أو ظن منه محبة الزيادة على الثلاث ، أو عدم كراهته ، فلا بأس بالزيادة ، لأن النهي إنما جاء لأجل كونه يؤثمه ، فلو شك في حال المضيف هل تكره الزيادة ويلحقه بها حرج أم لا ، لم يحل له الزيادة على الثلاث لظاهر الحديث .

**مسألة :** من صور إكرام الضيف :

١ . استقبله بالبشر ، والكلام الطيب ، وإظهار الفرح به .

وقد أخذ بعض العلماء من حديث وفد عبد القيس ، استحباب الترحيب بالضيف ، من قوله ﷺ ( مرحباً بالوفد ) .

٢ . إكرامه بما يناسبه من الطعام ، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ( فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ) .

وقد تكلم ابن القيم على هذه الآية في كتابه ( الرسالة التبوكية ) بكلام فائق يحسن الرجوع .

وقال عبد الله بن عمرو : من لم يضيف فليس من محمد ولا من إبراهيم .

٣ . القيام بخدمته فيما يحتاجه ، قال علي بن الحسين : من تمام المروءة : خدمة الرجل ضيفه ، كما خدمهم أبونا إبراهيم بنفسه وأهله .

٤ . الخروج مع الضيف إلى باب الدار ، وقد جاء عن ابن عباس أنه قال : إن من السنة إذا دعوت أحداً إلى منزلك أن تخرج معه حتى يخرج . رواه ابن عبد البر .

وذكر ابن مفلح في كتابه ( الآداب الشرعية ) أن أبا عبيد القاسم بن سلام زار الإمام أحمد ، قال أبو عبيد : فلما أردت القيام قام معي ، قلت : لا تفعل يا أبا عبد الله . فقال : قال الشعبي : من تمام زيارة الزائر أن تمشي معه إلى باب الدار وتأخذ بركابه .

## ما يستفاد من الحديث :

١ . الحرص على الكلام النافع .

٢ . فضيلة السكوت في موضعه .

٣ . من دلائل الإيمان ، ومن صفات المؤمنين : الإحسان إلى الجار .

٤ . من دلائل الإيمان ، ومن صفات المؤمنين : إكرام الضيف .

٥ . حث الشريعة على الأخلاق الفاضلة .

## الحديث السادس عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أوصني . قال : لا تغضب ، فردد مراراً . قال : لا تغضب . رواه البخاري

تخریجه : رواه البخاري .

موضوعه : النهي عن الغضب وأسبابه .

شرحه :

نهی النبي ﷺ في هذا الحديث عن الغضب ، وهو : حالة تمر بالإنسان تغير من طبعه المعتاد ، وهو على نوعين :

١ . غضب محمود : وهو الذي يكون عند تعدي حدود الله ، وانتهاك حرمانه .

وقد جاء في السنة عنه ﷺ في مواضع ، ذكر طرفاً منها ابن رجب في شرحه الماتع .

ويشترط في ذلك أن لا يخرج غضبه إلى فعل ما لا يليق ، أو ترك ما يجب .

٢ . غضب مذموم : وهو ما كان على أمور الدنيا .

وهو المراد في هذا الحديث ، وإنما أطلق لأنه الغالب من حال الناس .

قوله ( أوصني ) الوصية : العهد إلى الشخص بأمر هام .

قوله ( لا تغضب ) يحتمل عدة أمور :

١ . لا يصدر منك الغضب .

٢ . لا تتعرض لأسباب الغضب .

٣ . إذا غضبت فتمالك نفسك ولا يصدر منك ما يقبح ، كالضرب ، أو القتل ، أو الطلاق ، أو نحو ذلك ، كما قال تعالى ( والكاظمين الغيظ ) وقال تعالى ( وإذا ما غضبوا هم يغفرون ) وقال ﷺ : ليس الشديد بالصُّرْعَة ، إنما الشديد الذي يمسك نفسه عند الغضب . رواه البخاري

قوله ( فردد مراراً ) ردد الطلب بالوصية .

وقد أرشد الشارع الحكيم إلى عدة أمور لعلاج الغضب ، وهي :

- ١ . التعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، كما جاء في الصحيحين عن سليمان بن صرد قال : استب رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير ، فقال النبي ﷺ : إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد ، فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي ﷺ وقال : تعوذ بالله من الشيطان . فقال : أترى بي بأس ، أجنون أنا ؟ اذهب . متفق عليه .
- ٢ . الوضوء ، لقوله ﷺ : إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ . رواه أحمد ، وأبو داود .

٣ . تغيير الهيئة ، كما في حديث أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضجع . رواه أحمد ، وأبو داود ، وصححه الألباني .

قال ابن رجب : وقد قيل : إن المعنى أن القائم متهيء للانتقام ، والجالس دونه في ذلك ، والمضطجع أبعد عنه ، فأمره بالتباعد عن حالة الانتقام .

ويمكن أن يكون لذلك علاقة بفوران الدم ، والله أعلم .

٤ . السكوت ، لقوله ﷺ : إذا غضب أحدكم فليسكت . رواه أحمد ، والبخاري في الأدب المفرد ، وصححه الألباني .

قال ابن رجب : وهذا دواء عظيم للغضب ، لأن الغضبان يصدر منه حال غضبه من القول ما يندم عليه في حال زوال غضبه ، كالسباب وغيره مما يعظم ضرره ، فإذا سكت زال هذا الشر كله .

٥ . كظم الغيظ ، كما في حديث معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه ، دعاه الله سبحانه على رؤوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين يزوجه منها ما شاء . رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وصححه الألباني .

٦ . عدم التعرض لأسباب الغضب ومواطنه .

### آثار واردة عن السلف في ذم الغضب :

قيل لابن المبارك : اجمع لنا حسن الخلق في كلمة . قال : ترك الغضب .

وقال عمر بن عبد العزيز : قد أفلح من غُصم من : الهوى ، والغضب ، والطمع .

وقال مورك العجلي : ما امتلأت غيظاً قط ، ولا تكلمت في غضب قط بما أندم عليه إذا رضيت .

وقال الحسن : أربع من كن فيه عصمه الله من الشيطان ، وحرمه على النار : من ملك نفسه عند : الرغبة ، والرغبة ، والشهوة ، والغضب .

قال ابن رجب : فهذه الأربع التي ذكرها الحسن هي مبدأ الشر كله .

وقال بعضهم : إياك والغضب فإنه يصيرك على ذلة الاعتذار .

### ما يستفاد من الحديث :

١ . الحرص على تعلم الخير ، واكتساب المعالي .

٢ . طلب الوصية من الفضلاء .

٣ . النهي عن الغضب وأسبابه ومواطنه .

٤ . أن كل إنسان يُرشد بما يناسبه ، وقد تنوعت وصايا النبي ﷺ لأصحابه ، فقال لهذا : لا تغضب ، وقال لغيره : لا يزال

لسانك رطباً من ذكر الله ، وقال لآخر : أعني على نفسك بكثرة السجود .

٥ . الاختصار في الوصية بقدر المستطاع .

٦ . الصفات الجبلية يمكن التخلص منها ، وذلك بعد عون الله يكون بالدربة ، كما قال ﷺ : إنما الحلم بالتحلم .

### الحديث السابع عشر

عن أبي يعلى شداد بن أوس عن رسول الله ﷺ قال : إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته . رواه مسلم

تخریجه : رواه مسلم .

ولفظه : عن شداد بن أوس قال : ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال : إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته .  
مكانته : قال النووي : وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام ، وذلك لأن هذا الحديث يدل على عموم الإحسان في كل شيء ، ولعله أمر بإحسان القتلة ، وإحسان الذبيحة على سبيل المثال ، أو الحاجة البيان لذلك .  
موضوعه : وجوب الإحسان في كل أمر .

شرحه :

هذا الحديث يقوم على أمرين :

- ١ . قاعدة : وهو قوله ﷺ : إن الله كتب الإحسان على كل شيء .
- ٢ . مثال : وهو قوله ﷺ : فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته .  
قوله ( إن الله كتب الإحسان على كل شيء ) .  
كتابة الله نوعان :

١ . كتابة قدرية : وهذه لا بد أن تقع .

ومنها قوله تعالى ( كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ) وقوله ( ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ) .

٢ . كتابة شرعية : وهذه قد تقع من المكلفين وقد لا تقع .

ومنها قوله تعالى ( كتب عليكم الصيام ) وقوله ( كتب عليكم القتال ) .

والأقرب أن المراد بالكتابة هنا في الحديث : الكتابة الشرعية التي يؤمر بها المكلف .

والمراد بالإحسان هنا : ضد الإساءة .

وقوله ( على كل شيء ) أي ( في كل شيء ) كما في قوله ﷺ حين سئل عن أحب الأعمال إلى الله ، فقال ( الصلاة على وقتها ) والمراد ( في وقتها ) .

ومعنى الحديث : أن الله كتب الإحسان في الأمور كلها ، كما قال تعالى ( إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى )

وقوله ( وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ) .

وهذه النصوص العامة تقتضي العموم ، فينبغي للمسلم أن يحسن إلى نفسه ، وإلى والديه ، وجيرانه ، وإلى الحيوان ، والنبات ،

يحسن القول والفعل .

و درجات الإحسان تختلف باختلاف الجهة ، فكلما كانت الجهة أقرب كانت أعظم إحساناً ، فالإحسان إلى الوالدين أعظم من الإحسان إلى الأخوة ، وهكذا .

قوله ( فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته ) .

قال النووي في شرح مسلم : أما القتلة فبكسر القاف ، وهى الهيئة والحالة ، وأما قوله ﷺ ( فأحسنوا الذبح ) فوقع في كثير من النسخ أو أكثرها ( فأحسنوا الذبح ) بفتح الذال بغيرها ، وفي بعضها ( الذبحة ) بكسر الذال وبالهاء كالقتلة ، وهى الهيئة والحالة أيضاً ..... ( وليرح ذبيحته ) بإحداد السكين ، وتعجيل امرارها ، وغير ذلك ، ويستحب أن لا يحد السكين بحضرة الذبيحة ، وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى ، ولا يجرها إلى مذبحها ..... وقوله ﷺ ( فأحسنوا القتلة ) عام في كل قتل من الذبائح ، والقتل قصاصاً ، وفي حد ، ونحو ذلك أ.هـ

وهذا مثال على وجوب الإحسان في التعامل مع الحيوان ، وفي هذا المثال بيان لروعة الإسلام حيث أمر بالإحسان إلى الحيوان حتى في القتل ، فظهر أن الإحسان مع الحيوان في حال الحياة أعظم ، كما ثبت أن امرأة دخلت النار في هرة لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ، وثبت أن امرأة بغى دخلت الجنة بإحسانها إلى كلب وسقيها له .  
وأن الإحسان إلى الإنسان أعظم وأعظم ، في حال الموت بتغسيله وتطيبه وتكفينه والصلاة عليه ، وفي حال الحياة بالحقوق التي حفظها له الإسلام ، فالحمد لله على نعمة الإسلام .

وذكر في الحديث من أمثلة الإحسان إلى الحيوان عند الذبح :

- ١ . أن تحد الشفرة حتى لا يتألم الحيوان بذلك ، ولذا نهي عن الذبح بالعظم والظفر كما في الصحيحين .
- ٢ . أن تراح الذبيحة عند الذبح .

وجاء عن ابن عباس أن رجلاً أضجع شاة وهو يحد شفرته فقال النبي ﷺ : أتريد أن تميتها موتتان ؟ هلا أهددت شفرتك قبل أن تضجعها . صححه الألباني .

وقد جاء في الصحيحين عن أنس أن النبي ﷺ نهي أن تصبر البهائم .

وعند مسلم من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه نهي أن يتخذ شيئاً فيه روح غرضاً . والغرض : هو الهدف الذي يُرمى بالسهم وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه مر يقوم نصبوا دجاجة يرمونها فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا .

وفي مسند الإمام أحمد عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها . فقال النبي ﷺ : والشاة إن رحمتها رحمك الله .

قال الإمام أحمد : تقاد إلى الذبح قوداً رفيقاً ، وتوارى السكين عنها ، ولا تظهر السكين إلا عند الذبح .

وقال مطرف بن عبد الله : إن الله يرحم برحمة العصفور .

### ما يستفاد من الحديث :

١ . الحث على الإحسان في الأمور كلها .

٢ . وجوب الإحسان إلى الحيوان .

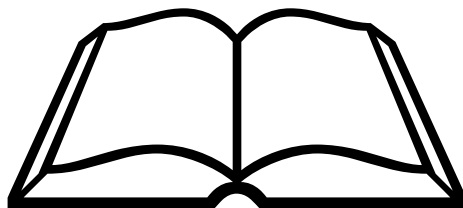
٣ . بيان روعة دين الإسلام .



# فتح المُعين في شرح الأربعين

آخر نسخة ١٤٤١هـ

عبد الله محمد الجهنّي



### الحديث الثامن عشر

عن أبي ذر جندب بن جنادة ، وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن . وفي بعض النسخ : حسن صحيح .

تخریجه : رواه أحمد ، والترمذي وحسنه ، وحسنه الألباني<sup>(١)</sup> .

قال ابن رجب : وقد حسن الترمذي هذا الحديث ، وما وقع في بعض النسخ عن تصحيحه فبعيد .

مكانته : قال ابن رجب : فهذه الوصية وصية عظيمة جامعة لحقوق الله ، وحقوق عباده .

موضوعه : وجوب تقوى الله في جميع الأحوال ، والحث على فعل الطاعات ليحصل بذلك تكفير ما قد يحصل من السيئات المخالفة للتقوى ، والحث على حسن الخلق مع عباد الله .

والوصيتان الأوليان في معاملة الخلق ، والثالثة في معاملة الخلق .

شرحه :

قوله ( اتق الله حيثما كنت ) .

في هذه الجملة أمر بتقوى الله في جميع الأحوال ، في أي مكان ، وأي زمان ، لأن كلمة ( حيث ) تكون ظرفاً للمكان وللزمان . فعلى العبد أن يتقي الله في حال الصحة وحال المرض ، وفي حال الغنى وحال الفقر ، وفي حال السراء وحال الضراء ، وفي حال السفر وحال الحضر ، وفي حال السر وحال العلانية .

والتقوى عرفها السلف بتعريفات كثيرة لا خلاف بينها ، وكلها راجعة إلى : أن يمثل العبد ما أمره الله به ، ليجعل بينه وبين عذاب الله وسخطه وقاية . أو يجعل بينه وبين المعصية وقاية ، وهو تقوى الله وخوفه .

وكلمة التقوى من الكلمات الجامعة ، ولذا وصى الله بها الأولين والآخرين بقوله ( ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ) .

وهي الكلمة التي صدر الأنبياء بها دعوتهم لأقوامهم ، كما قال تعالى في سورة الشعراء ( إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ) وكذا قال هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب .

وقد كان ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو صاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً . رواه مسلم وقد رتب الشارع عليها من الثمار في الدنيا والآخرة ما لا يحصى ، ومن ذلك :

١. أنها سبب لمحبة الله للعبد ، قال تعالى ( بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ) .
٢. أنها سبب لمعية الله للعبد ، قال تعالى ( إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ) .
٣. أنها خير زاد العبد في الدنيا والآخرة ، قال تعالى ( وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ) .
٤. أنها من أسباب تكفير السيئات ومضاعفة الحسنات ، قال تعالى ( ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ) .

(١) ورود الحديث عن أبي ذر ثابت ، وأما عن معاذ فبعض أهل العلم يجعل إضافته إلى معاذ من باب الخطأ ، وبعضهم يضعفه .

٥. الجنة يرثها المتقون ، قال تعالى ( تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ) وقال تعالى ( إن التقين في جنات وعيون ) .
٦. أنها من أسباب النجاة في الآخرة ، قال تعالى ( ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ) .
٧. أنها سبب من أسباب الرزق ، قال تعالى ( ومن يتق الله يجعل له من أمره مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ) .
٨. بها تفتح بركات السماوات والأرض ، قال تعالى ( ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ) .
٩. أنها سبب تيسير الأمور في الدنيا والآخرة ، قال تعالى ( ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ) وقال تعالى ( ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ) .
١٠. العاقبة الطيبة في الدنيا والآخرة للمتقين ، قال تعالى ( والعاقبة للمتقين ) .

### قوله ( وأتبع السيئة الحسنة تمحها ) .

في هذه الجملة بيان أن الإنسان مهما كان حرصه على تقوى الله فإنه قد يحصل منه ما يخالف ذلك فيقع في بعض المعاصي والذنوب ، فحثة هنا على علاج هذا الخلل ، وهو إتباع السيئة بالحسنة فإن ذلك كفارة لتلك السيئة .  
وقد اختلف أهل العلم في المراد بالحسنة هنا :

١. المراد بها التوبة : والمعنى : أتبع السيئة التوبة تمحها .
  ٢. المراد بها الأعمال الصالحة : والمعنى : أتبع السيئة عملاً صالحاً يمحوها .
- وهذا أقرب لما جاء في الصحيحين عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فأنزلت عليه ( وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ) قال الرجل : ألي هذه ؟ قال : لمن عمل بها من أمتي .  
وإتباعها بالتوبة أكمل .

والسيئة سميت بذلك ، لأنها تسوء صاحبها ، وتعود عليه بالسوء في الدنيا والآخرة ، فتسوؤه في الدنيا بأنواع الهموم والغموم ، وبالصد عن الحق ، وغير ذلك من آثار المعاصي ، وأما في الآخرة فما يحصل له من الخزي والنار ، أو التأخر عن الخير .  
وقد اختلف أهل العلم في حقيقة المحو في قوله ( تمحها ) على أقوال :

١. الحسنة تمحو أثر الذنب ، فلا يحاسب عليه .
٢. الحسنة تمحو أثره من صحيفة العمل أيضاً ، فلا يذكر به<sup>(١)</sup> .
٣. الحسنة تمحو أثره من القلب أيضاً . ولعل هذا يكون في بعض الأحوال ، على قدر ما يقوم في قلب العبد ، والله أعلم .

(١) اختلف العلماء في العبد إذا تاب من الذنب هل يمحي من ديوان الحفظة ، أم أنه يبقى ليطلع عليه يوم القيامة ، وإن كان لا يحاسب عليه :

١. يمحي من صحيفته بالتوبة ، لقوله ﷺ : ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط . رواه مسلم .

٢. لا يمحي من صحيفته ، بل لا بد أن يوقف عليه ، ويقرأه ، ثم يتجاوز الله عنه .

وفي صحيح البخاري مرفوعاً : إن الله يديني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره ، فيقول : أعترف ذنب كذا . أعترف ذنب كذا . فيقول : نعم أي رب ، حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك قال : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته ، وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين .

ولكن ليس فيه أنه من الذنوب التي تاب منها ، والله أعلم .  
وجاء عن الحسن في العبد يذنب ثم يتوب ويستغفر : يغفر له ، ولكن لا يمحوه من كتابه دون أن يقف عليه ، ثم يسأله عنه ، ثم بكى الحسن بكاءً شديداً ، وقال : لو لم نبك إلا للحياء من ذلك المقام لكان ينبغي لنا أن نبكي .

قال في تحفة الأحوذى : والمراد يمحو الله بها آثارها من القلب ، أو من ديوان الحفظه ، وذلك لأن المرض يعالج بضده فالحسنات يذهبن السيئات أ.هـ

وأعظم ما يمحو الله به الخطايا أداء الفرائض ، كما جاء عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر . رواه مسلم

**مسألة :** اتفق أهل العلم على أن العمل الصالح يكفر الصغائر ، واختلفوا هل يكفر الكبائر أيضاً أو لا ؟

فذهب الجمهور إلى أن العمل الصالح لا يكفر إلا الصغائر ، وأن الكبائر لا بد لها من توبة .

وقد نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك ، ونصره ابن رجب في الجملة في شرحه للأربعين النووية<sup>(١)</sup> .

وذهب طائفة من أهل الحديث وغيرهم إلى أن العمل الصالح يكفر الكبائر ، لعموم النصوص ، واختاره ابن حزم .

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن العمل الصالح لا يكفر كل الكبائر ، بل ذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، والأحوال ، فلا

يصح إطلاق أن العمل الصالح يكفر الكبائر ، ولا أنه لا يكفرها ، بل ربما كفرها ، وربما لم يكفرها ، على اعتبارات .

وقد وردت نصوص بالإطلاق ، وأخرى بشرط اجتناب الكبائر .

ومما ورد بالإطلاق : ما جاء في الصحيحين عن عثمان أنه توضأ ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم قال :

من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه .

وفيهما أيضاً واللفظ للبخاري عن أنس قال : كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل ، فقال : يا رسول الله : إني أصبت حداً فأقمه

علي ، قال : ولم يسأله عنه ، فحضرت الصلاة فصلى مع النبي ﷺ فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قام إليه الرجل فقال : يا رسول

الله : إني أصبت حداً فأقم في كتاب الله ، قال : أليس قد صليت معنا ؟ قال : نعم . قال : فإن الله قد غفر لك ذنبك ، أو قال

: حدك .

وفيهما أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : رأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه

شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا .

وفي صحيح مسلم عن عثمان عن النبي ﷺ قال : من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت

أظفاره .

وفيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ،

قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه . ومن صام رمضان

إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه .

وفيهما عن أبي هريرة : من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه

وفيهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : من حج هذا البيت ، فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

(١) قال ابن رجب : والأظهر والله أعلم في هذه المسألة - أعني مسألة تكفير الكبائر بالأعمال - أنه إن أريد أن الكبائر تمحى بمجرد الإتيان بالفرائض ، وتقع الكبائر مكفرة بذلك كما تكفر الصغائر باجتناب الكبائر ، فهذا باطل ، وإن أريد أنه قد يوازن يوم القيامة بين الكبائر وبين بعض الأعمال ، فتمحى الكبيرة بما يقابلها من العمل ، ويسقط العمل ، فلا يبقى له ثواب ، فهذا قد يقع .

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال : إن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وإن الهجرة تخدم ما كان قبلها ، وإن الحج يهدم ما كان قبله .

وفيه من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ قال في صوم عاشوراء : أحْتَسِبُ على الله أن يكفر السنة التي قبله . وقال في صوم يوم عرفة : أحْتَسِبُ على الله أن يكفر السنة التي قبله والتي بعده .

ومما ورد بشرط اجتناب الكبائر : قوله ﷺ : الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر<sup>(١)</sup> .

(١) قال شيخنا يوسف الغفيص : جاء عن النبي ﷺ كما هو مشهور في السنة أن من الأعمال الصالحة ما يكفر الذنوب ، كقوله ﷺ ( الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ) وكقوله ( أرايتُم لو أن نحرًا بباب أحدكم يغتسل منه خمس مرات.. ) كما في الصحيح من حديث أبي هريرة في الصحيح ، إلى غير ذلك من النصوص ، فهنا المشهور في كلام أهل السنة أن هذه الأعمال الصالحة ، سواء كانت واجبة ، أو كانت مستحبة ، إذا ذكر تكفيرها للذنوب ، فإن المقصود بذلك أنها تكفر الصغائر ، وقد حكى أبو عمر ابن عبد البر إجماع أهل السنة على أنها تكفر الصغائر دون الكبائر . وهذا الإجماع الذي ذكره أبو عمر ابن عبد البر ينبغي فقهه ، فإنه قد يفقه على أحد وجهين : الأول : أن يفقه أن السلف أجمعوا على أن الأعمال الصالحة ، كالصلاة ، والحج ، وغيرها ، لا يمكن أن تكفر ، أو أن تمحو ما هو كبيرة . ولا شك أن هذا الوجه من الفقه غلط ، وإن أضافه من أضافه من بعض المتأخرين للسلف ، فهو إضافة غلط .

الوجه الثاني من الفقه : أن يفهم منه أن هذه الأعمال الصالحة قد تكفر ما هو من الكبائر ، ولكن ذلك لا يطرد ، إنما يطرد في الصغائر ، وفقه الإجماع على هذا الوجه هو الفقه الصحيح ، وهو مذهب السلف ولا شك ، وهذا هو الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تقريراً مفصلاً ، وقرر أنه هو المذهب المعروف عن سلف الأمة ، ويكون هذا الفهم وسطاً بين قول من يقول : إن هذه الأعمال الصالحة تكفر الكبائر باطراد ، كما تكفر الصغائر ، فإن هذا خلاف كثير من النصوص ، وخلاف الإجماع ، وبين قول من يقول : إنما لا تكفر إلا الصغائر ، ولا يمكن أن تكفر الكبائر ، ويجزم بذلك ، فهذا غلط أيضاً ، ولا يقوله أحد من السلف ، وإن نقل بعض المتأخرين في هذا الإجماع ، فهو إجماع غلط ، كما يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

والدلائل النبوية صريحة في هذا ، ففي حديث عمرو بن العاص الذي أخرجه مسلم وغيره من طريق عبد الرحمن بن شماس المهرقي المصري عن عبد الله بن عمرو عن أبيه عمرو بن العاص ، وفيه قول عمرو لما أتى النبي ﷺ ليبياعه على الإسلام ، قال : فبسط النبي ﷺ يده لأبياعه ، قال : فقبضت يدي ، فقال : ما لك يا عمرو ؟ قلت : أردت أن أشتري . قال : تشتري ماذا ؟ قلت : أشتري أن يغفر لي . قال : أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تخدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله . فتأمل قوله ( يهدم ما كان قبله ) فإنه من سياق العموم ، ولا شك أن هذا يمنع معه أن يقال : إن الحج لا يمكن أن يكفر ما هو كبيرة . ومثله قوله ﷺ ( أرايتُم لو أن نحرًا بباب أحدكم.. ) وقوله ( من أتى هذا البيت فلم يرفث ، ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.. ) ولا يمكن أن يجتمع السلف على أن أتى هذا البيت فقام قيام السنة ، واقتدى برسول الله ﷺ فما رَفَث ، ولا فسق ، وتعبد لله ، ووجل قلبه ، وأدى الأركان على سنة رسول الله ﷺ مع تمام الإخلاص ، وتمام المتابعة ، ولكن عنده بعض الكبائر السالفة أن كبائر لا تغفر ، فهذا تضيق لرحمة الله سبحانه وتعالى ، ولا يمكن أن يفقه السلف يقف مع هذا ، والرسول ﷺ يقول ( رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه ) .

والذي أشكل على أكثر المتأخرين هو الذي جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وغيره ( الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر ) قالوا : فهذا يدل على أن الكبائر لا تغفر ، ولا شك أن هذا الاستدلال ليس استدلالاً صحيحاً ، فإن الصلاة ، وسائر الأعمال الظاهرة ، وحتى الأعمال الباطنة يقع فيها تفاضل ، وليست صلاة النبي ﷺ كصلاة أصحابه ، مع أنهم كانوا يصلون معه ، وليست صلاة أبي بكر كصلاة آحاد الصحابة ، وليست صلاة الصحابة كصلاة من بعدهم . فتكون الصلاة باعتبار أصل القيام بها مكفرة للصغائر إذا اجتنبت الكبائر ، أما الكبائر فلا يتعلق تكفيرها بإقامة الصلاة حتى ولو لم تكن الإقامة التامة الموافقة لهدي النبوة من كل جهة ، والتي ذكر الله عن أهلها أنهم في صلاحهم خاشعون ، فلا يلزم أن كل عمل ذكره الشارع واجباً كان أو مستحباً يكفر الكبائر باطراد كما يكفر الصغائر . فإنه لو قيل : إن التكفير يقع بمجرد إقامة الصلاة ولو غير تامة ، لصح الاعتراض عليه بهذا الحديث ، فإن الحديث معارض لهذا الفهم تماماً . ولكن إذا قيل : إن الأعمال المكفرة تقع بها تكفير بعض الكبائر في بعض الأحوال ، فإن هذا لا يكون معارضاً ، ويمكن أن يقال : إن هذه الأعمال باعتبار أصولها تكفر الصغائر ، ولكن من حققها على وجه التمام ، وكانت حالته في الجملة على قدر من الاستقامة والانقياد ، ولكن كان معه يسير من الذنوب والكبيرة ، فإن هذه الأعمال تكون سبباً للتكفير .

ومن إجماع السلف أن الله قد يغفر لأهل الكبائر بغير سبب من العبد ، فمن باب أولى أن يكفر عنه ، وأن يغفر له بسبب منه وهو الحسنه ، فإن الله قال ( إن الحسنات يذهبن السيئات ) وقال النبي ﷺ ( وأتبع السيئة الحسنة تمحها ) . وإذا كان الله يغفر لبعض أهل الكبائر بسبب من غيرهم ، وهو دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب ، أو بشفاعته الشافعين ، فيمكن أيضاً أن يغفر له بسبب من أعماله الصالحة . ومن عرف مقام الصلاة ، ومقام الحج ، ومقام الجهاد ، ومقام الصيام عند الله سبحانه وتعالى ، عرف أنه يمكن أن يغفر بما هو من الكبائر ، ألم يقل الله سبحانه كما في الحديث القدسي ( الصوم لي وأنا أجزى به ) .

فتعليق هذه الأمور على التوبة لا شك أنه تعليق ضيق ، بل يقال : إن هذه الأعمال كفارات للصغائر ، وقد يقع في هذه الأعمال كأصول الواجبات من الحج ، والجهاد ، والصيام ، والصلاة ، ما هو مكفر لبعض الكبائر ، وهذه أحوال لا تطرد ، وإنما يختص الله سبحانه وتعالى برحمته وتوفيقه من يشاء من عباده أ.هـ.

**مسألة :** الصحيح أن الأعمال الصالحة مكفرة للصغائر مطلقاً ، ولو لم تجتنب الكبائر ، لعموم الأحاديث ، وإن كان بعض أهل العلم ذهب إلى أنها لا تكفر إلا إذا اجتنبت الكبائر ، واستغرب هذا القول ابن رجب .

**فائدة :** ذكر ابن تيمية رحمه الله عشرة أسباب تُمحي بها السيئات فقال : والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب : أن يتوب فيتوب الله عليه ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، أو يستغفر فيغفر له ، أو يعمل حسنات تحوها ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويستغفرون له حياً وميتاً ، أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به ، أو يشفع فيه نبيه محمد ﷺ أو يتلييه الله تعالى في الدنيا بمصائب تكفر عنه ، أو يتلييه في البرزخ بالصعقة فيكفر بها عنه ، أو يتلييه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه ، أو يرحمه أرحم الراحمين ، فمن أخطأته هذه العشر فلا يلومنّ إلا نفسه .

**قوله ( وخالق الناس بخلق حسن ) .**

في هذه الجملة بيان لعمل من الأعمال الصالحة العظيمة التي يحصل بها تكفير السيئات ، وهو معاملة الناس بالخلق الحسن . واختلفت عبارات أهل العلم في تعريف حسن الخلق ، ولا تعارض بينها لأن كلاً منهم ذكر صوراً له . قال الشعبي : حسن الخلق : البذلة ، والعطية ، والبشر الحسن .

وعن ابن المبارك قال : حسن الخلق هو بسط الوجه ، وبذل المعروف ، وكف الأذى . وقال الإمام أحمد : حسن الخلق هو أن لا تغضب ولا تحتد ، وأن تحتمل ما يكون من الناس . ومما ورد من الأحاديث في فضيلة حسن الخلق :

قوله ﷺ : خياركم : أحاسنكم أخلاقاً . متفق عليه

وقوله ﷺ : إن من أكمل المؤمنين إيماناً : أحسنهم خلقاً . رواه أحمد ، والترمذي وحسنه ، وضعفه الألباني .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة : من خلق حسن ، وإن الله ييغض الفاحش البذيء . قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وصححه الألباني .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ فقال : تقوى الله ، وحسن الخلق . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال : الفم ، والفرج . رواه الترمذي ، وحسنه الألباني .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله يقول ﷺ : إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم . رواه أحمد ، وأبو داود ، وصححه الألباني .

وعن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إن من أحبكم إليّ ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقاً . رواه الترمذي ، وصححه الألباني .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : أنا زعيم<sup>(١)</sup> ببیت في ریح الجنة<sup>(٢)</sup> لمن ترك المرء وإن كان محققاً ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه . رواه أبو داود ، وحسنه الألباني .

(١) زعيم : ضامن كما في قوله تعالى ( وأنا به زعيم ) أي : كفيل وضامن .

(٢) قال ابن الأثير : هو بفتح الباء : ما حولها خارجاً عنها ، تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع .

قال ابن القيم : فجعل البيت العلوي جزءاً لأعلى المقامات الثلاثة ، وهي حسن الخلق ، والأوسط لأوسطها ، وهو ترك الكذب ، والأدنى لأدناها ، وهو ترك المماراة وإن كان معه حق ، ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله أ.هـ

### بعض الآثار المتعلقة بالحديث :

قال ابن رجب : وفي الجملة فتقوى الله في السر هو علامة كمال الإيمان ، وله تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الثناء في قلوب المؤمنين . وفي الحديث : ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . روي هذا مرفوعاً ، وروي عن ابن مسعود من قوله .

قال أبو الدرداء : ليتق أحدكم أن تلغنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر ، يخلو بمعاصي الله فيلقي الله له بغض في قلوب المؤمنين . وقال سليمان التيمي : إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته .

وقال غيره : إن العبد ليزنّب الذنب فيما بينه وبين الله ، ثم يجيء إلى إخوانه ، فيرون أثر ذلك عليه .

وقال عمر بن عبد العزيز : ليس تقوى الله بصيام النهار ، ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله ، وأداء ما افترض الله ، فمن رزق بعد ذلك خيراً ، فهو خير إلى خير .

وقال موسى بن أعين : المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام ، فسماهم الله متقين .

وقال أبو سليمان : الخاسر من أبدى للناس صالح عمله ، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد .

وكان وهيب بن الورد يقول : خف الله على قدر قدرته عليك ، واستحي منه على قدر قربه منك .

وقال له رجل : عظمي . فقال : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

وسئل الجنيد بما يستعان على غض البصر ؟ قال : بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى ما تنظره .

وكان الإمام أحمد ينشد : إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل : خلوت . ولكن قل : علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفي عليه يغيب

### ما يستفاد من الحديث :

١ . حرص النبي ﷺ على تعليم أمته ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة .

٢ . وجوب تقوى الله في كل الأحوال .

٣ . الحرص على فعل الطاعات واجتناب المنكرات .

٤ . وجوب التوبة وتكرارها .

٥ . الحث على حسن الخلق .

## الحديث التاسع عشر

عن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال : يا غلام ، إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

وفي رواية غير الترمذي : احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً .

تخریجه : رواه أحمد ، والترمذي ، وصحح الألباني الروایتين .

ولفظ الرواية الثانية في مسند أحمد : كنت رديف رسول الله ﷺ فقال : يا غلام ، أو يا غليم ، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن . فقلت : بلى . فقال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا عليه ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً .

وليس في المسند ولا في غيره ( واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ) في سياق هذا الحديث . مكانته : قال ابن رجب : هذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة ، وقواعد كلية من أهم أمور الدين ، حتى قال بعض العلماء<sup>(١)</sup> : تدبرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيئ ، فوا أسفاً من الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه .

موضوعه : ذكر بعض الوصايا العظيمة التي تربط القلوب بخالقها عز وجل ، وتقطع الطمع في المخلوقين . شرحه :

قوله ( يا غلام إني أعلمك كلمات ) .

الغلام هو من لم يبلغ الحلم ، وقد كان ابن عباس كذلك .

وقوله ( كلمات ) الكلمة في لسان الشرع تعني الجملة ، كما قال تعالى ( كلا إنها كلمة هو قائلها ) والمراد قوله ( رب ارجعون لعلني أعمل صالحاً فيما تركت ) وقال ﷺ : أصدق كلمة قالها شاعر : قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل . متفق عليه والمراد أنها كلمات وجمل قليلة ، لكنها تحمل معان كثيرة ، وهذا هو الأنسب في الكلام ، والأصلح للسامع ، بخلاف الكلام الكثير الذي فائدته قليلة ، وينسي آخره أوله .

(١) يعني به ابن الجوزي رحمه الله .



وهكذا ينبغي أن تكون المواعظ والخطب : عناية بالأصول بعبارات واضحة وقليلة ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ .  
قوله ( احفظ الله يحفظك ) .

والمعنى : احفظ الله في نفسك بحفظ حدوده ، من إتباع أوامره على أكمل وجه ، واجتناب نواهيه ، يحفظك الله في نفسك ، وأهلك ، ومالك ، ويحفظك في دنياك وآخرتك ، لأن قوله ( يحفظك ) نكرة فتشمل كل حفظ .  
وأعظم الحفظ حفظ الدين ، بأن يعصم الله العبد من البدع والأهواء المضلة ، والتردي في المعاصي .  
قال ابن عباس في قوله تعالى ( واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ) قال : يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجره إلى النار .  
وكلما كان الإنسان أعظم حفظاً لحدود الله ، كان الله أشد له حفظاً ( فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ) .  
وفي صحيح البخاري : قال تعالى في الحديث القدسي : وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه .  
وقد حفظ الله أنبياءه وأوليائه بأنواع الحفظ ، لأنهم حفظوا حدوده .  
فالله تعالى حفظ يوسف من كيد إخوته الأولى ، وحفظه في الجب ، وحفظه في القافلة ، وحفظه في بيت العزيز من فتنة الدنيا ، وخاصة فتنة امرأة العزيز ، وحفظه من كيد النسوة ، وحفظه في السجن ، وحفظه من فتنة الملك ، إلى أنواع الحفظ التي لا يعلمها إلا الله ، وكل هذا لأنه من ذرية حفظت الله ، ولأنه حفظ الله في نفسه ، قال تعالى ( كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ) فالله حفظه لأنه من المخلصين .  
كما حفظ الله يونس في بطن الحوت ، كما قال تعالى ( فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ) .  
وحفظ الله إبراهيم من كيد قومه ، وجعل النار عليه برداً وسلاماً ، وحفظ موسى من كيد فرعون في صغره وكبره ، وحفظ محمداً ﷺ في مواقف شتى ، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .  
وقوله ( احفظ الله يحفظك ) معناه : أن من لم يحفظ حدود الله لم يحفظه الله الحفظ التام<sup>(١)</sup> ، كما قال تعالى ( نسوا الله فأنساهم أنفسهم ) ولذا لما قال فرعون عند موته ( آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل ) لم تنفعه .  
وكان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة وهو ممتع بقوته وعقله ، فوثب يوماً وثبة شديدة فعوتب في ذلك ، فقال : هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر .  
وعكس هذا أن بعض السلف رأى شيخاً يسأل الناس فقال : إن هذا ضيع الله في صغره فضيعه الله في كبره .  
وقال الحسن في أهل المعاصي : هانوا عليه فعصوه ، ولو عزوا عليه لعصمهم .  
وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته كما قيل في قوله تعالى ( وكان أبوهما صالحاً ) إنهما حفظا بصلاح أبيهما .  
قال ابن كثير : فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة .  
وقال سعيد بن مسيب لابنه : لأزیدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك ، ثم تلا هذه الآية ( وكان أبوهما صالحاً ) .  
وقال عمر بن عبدالعزيز : ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه .  
وقال ابن المنذر : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده ، وولد ولده ، والدويرات التي حوله ، فما يزالون في حفظ من الله وستر .

(١) وإن كان الله يحفظه الحفظ العام ، فما من مخلوق إلا هو قائم بحفظ الله له ، والحفظ العام من مقتضيات الربوبية ، ولا يلزم منه المحبة .

وقال عبدالرحمن السلمي قبل موته : كيف لا أرجو ربي ، وقد صمت له ثمانين رمضاناً .

وقال أبو بكر بن عياش لابنه عند موته : أترى الله يضيع لأبيك أربعين سنة يختتم القرآن كل ليلة .

قوله ( احفظ الله تجد نُجَاهَكَ ) .

هذه الجملة هي معنى قوله ﷺ في الرواية الأخرى ( احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ) . والمعنى أن من حفظ حدود الله حفظه الله في كل أحواله ، خاصة وقت الشدة التي يكون العبد أحوج إلى عون الله ورعايته ، كما سبق في حال الأنبياء قبل .

وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء . وروى ابن أبي الدنيا عن أنس قال : إن يونس لما دعا في بطن الحوت قالت الملائكة : يا رب هذا صوت معروف ، من بلاد غريبة . فقال الله : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : ومن هو ؟ قال : عبدي يونس . قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ، ودعوة مستجابة ؟ قال : نعم . قالوا : يا رب أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيهِ من البلاء . قال : بلى فأمر الله الحوت بطرحه في العراء .

ولذا كان السلف يستحبون أن يكون للعبد خبيثه من عمل صالح أوقات الرخاء تنفعه أوقات الشدائد ، سواء قبل الموت أو عند السكرات .

قوله ( إذا سألت فسأل الله ) .

والمراد بذلك : الدعاء والطلب ، فلا ينبغي للعبد أن يسأل غير الله ، لأن الله هو الذي بيده خزائن السماوات والأرض ، وهو الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأما غيره فلا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

قوله ( وإذا استعنت فاستعن بالله ) .

والمعنى أن العبد ينبغي له أن يستعين في جميع أموره بالله جل وعلا ، قال تعالى ( إياك نعبد وإياك نستعين ) . والاستعانة قد تكون عبادة إذا كان في أمر لا يقدر عليه إلا الله ، وهنا لا يجوز أن تطلب إلا من الله ، وقد تكون جائزة كأن يستعين بمخلوق فيما يقدر عليه .

قوله ( واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ) .

في هذه الجملة تجلية لمعنى التوكل الذي هو من أعظم مقامات القلوب ، حيث يبين النبي ﷺ لهذا الغلام ويغرس في نفسه حقيقة التوكل ، وأن النفع والضرر بيد الله ، وأن الله إذا أراد بعبد خيراً فإن الأمة كلها لا تستطيع دفعه ولا رفعه ، وإذا أراد به ضراً فإن الأمة كلها لا تستطيع دفعه ولا رفعه .

وقد اجتمع أهل الأرض كلهم على الخليل إبراهيم عليه السلام فنجاه الله منهم ، وجند فرعون جنوده لقتل موسى صغيراً ، فرباه الله في بيته وتحت رعايته ، وحشد حشوده لقتله كبيراً فأطبق الله عليه البحر فأغرقه ، واجتمعت قريش لقتل النبي ﷺ أكثر من مرة فأنجاه الله منهم .

قال قتادة : من يتق الله يكن معه ، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب ، والحارس الذي لا ينام ، والهادي الذي لا يضل . وكتب بعض السلف إلى أخ له : أما بعد فإن كان الله معك فمن تخاف ؟ وإن كان عليك فمن ترجو ؟! .

قال ابن رجب رحمه الله : واعلم أن مدار هذه الوصية على هذا الأصل ، وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه ، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ، ونفع وضر ، وأن اجتهد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة ، علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع ، المعطي المانع ، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل ، وإفراده بالطاعة وحفظ حدوده .

قوله ( رفعت الأقلام ، وجفت الصحف ) .

المعنى أن الله قدر كل ما على الإنسان قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، فلا تغيير .

قوله ( واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ) .

سبق أن هذه الجملة ليست واردة في سياق وصية النبي ﷺ لابن عباس ، ولكنها جاءت في أحاديث أخرى . وفي هذه الجملة بيان لعقيدة الإيمان بالقدر ، وأن كل ما يحصل للإنسان من خير أو شر فهو من الله وحده ، لا دافع له ولا مانع إلا الله . قال تعالى ( قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ) .

فلا ينبغي للعبد التحسر على فوات شيء ، أو وقوع شيء ، لأن الأمور مقضية في الأزل .

قوله ( واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً ) .

في هذه الجملة بيان لفضل الصبر وأهميته ، وقد قال ﷺ : ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر . رواه مسلم وأن الأمور تحمد وتكون عاقبتها محمودة إذا صبر الإنسان عليها .

وأنه إذا ضاقت الأمور كان ذلك دليل على قرب الفرج ، وكلما عسرت كان ذلك دليل على قرب اليسر ، قال تعالى ( فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ) وقال تعالى ( سيجعل الله بعد عسر يسراً ) وقال تعالى ( وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ) .

قال ابن رجب : ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب ، واليسر بالعسر : أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى ، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين ، وتعلق قلبه بالله وحده ، وهذا هو حقيقة التوكل على الله ، وهو من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج ، فإن الله يكفي من توكل عليه ، كما قال تعالى ( ومن يتوكل على الله فهو حسبه ) .

## ما يستفاد من الحديث :

- ١ . استخدام أساليب التشويق في التعليم .
- ٢ . الحرص على تربية الأبناء ، وملاطفتهم في الخطاب .
- ٣ . تربية الأبناء على العقيدة الصحيحة ، وربطهم بالله عز وجل منذ الصغر .
- ٤ . الحرص على حفظ حدود الله .
- ٥ . الجزاء من جنس العمل .
- ٦ . العناية بمقام ( التوكل ) .
- ٧ . الإيمان بالقدر .
- ٨ . ضعف المخلوقين .
- ٩ . عبادة انتظار الفرج والنصر .
- ١٠ . تواضع النبي ﷺ .

## الحديث العشرون

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البصري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحي فاصنع ما شئت . رواه البخاري

تخرجه : رواه البخاري .

موضوعه : الحث على خلق الحياء .

شرحه :

قوله ( إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ) .

معنى هذه الجملة أن هذا القول - الحث على خلق الحياء - مما توارثه الأجيال عبر القرون ، وانتشر بينهم من كلام أنبيائهم . وفي هذه المقدمة بيان لأهمية هذا الخلق الذي أجمع عليه صفوة خلق الله من الأنبياء والمرسلين .

قوله ( إذا لم تستحي فاصنع ما شئت ) .

قوله ( تستحي ) فعل مضارع سبقه حرف جزم فجزمه بحذف أحد يائيهِ ، إذ أصل الكلمة ( يستحيي ) كقوله تعالى ( إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ... ) ويجوز حذف الياء فيقال ( إذا لم تستح ) .

واختلف العلماء في توجيه هذه الجملة على قولين :

١ . أن الإنسان إذا قل حيائه أو عُدْم ، فإنه لا يبالي بمن حوله : فيقدم على أي عمل وإن كان مشيناً ، ويترك أي عمل وإن كان عظيماً ، دون النظر إلى نظر الناس إليه ، وازدراءهم له .

فالحياء هو المانع من فعل القبائح فإذا ذهب انطلقت النفس في القبائح .

وعلى هذا المعنى يكون الأمر في قوله ( فاصنع ) للتهديد والوعيد ، كقوله تعالى للمشركين ( اعملوا ما شئتم ) والمعنى : فإنكم ستجازون وتعاقبون عليه .

قال الخطابي : الحكمة في التعبير بلفظ الأمر دون الخبر في الحديث : أن الذي يكف الإنسان عن موافقة الشر هو الحياء ، فإذا تركه صار كالمأمور طبعاً بارتكاب كل شر .

٢ . أن العمل إذا لم يكن يُستحي منه فإنه ينبغي على الإنسان أن يصنعه ولا يبالي بنقد الناس له .

وعلى هذا المعنى يكون الأمر في قوله ( فاصنع ) للإباحة .

قال ابن القيم في توجيه الحديث : وفيه تفسيران :

أحدهما : أنه على التهديد والوعيد ، والمعنى : من لم يستح فإنه يصنع ما شاء من القبائح ، إذ الحامل على تركها الحياء ، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح فإنه يواقعها ، وهذا تفسير أبي عبيدة .

والثاني : أن الفعل إذا لم تستح منه من الله فافعله ، وإنما الذي ينبغي تركه هو ما يستحي منه من الله ، وهذا تفسير الإمام أحمد في رواية ابن هانئ .

فعلى الأول يكون تهديداً ، كقوله ( اعملوا ما شئتم ) وعلى الثاني يكون إذناً وإباحة .

فإن قيل : فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين ؟

قلت : لا ، ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه ، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة ، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر .

والمقصود أن الذنوب تضعف الحياء من العبد ، حتى ربما انسلخ منه بالكلية ، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه ، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل ، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء ، وإذا وصل العبد إلى هذه الحالة لم يبق في صلاحه مطمع .

وذكر في موضع أن الأول أصح ، وهو قول الأكثرين .

والحياء من الأخلاق الفطرية ، وقد يكتسب بالممارسة ، والفطري أقوى وأمنع .

وهو من الصفات الحمودة في ذاتها ، الحمودة في عواقبها ، ولذا قال ﷺ : الحياء لا يأتي إلا بخير . متفق عليه

وهو من شعب الإيمان التي خصها النبي ﷺ بالذكر حيث قال : والحياء شعبة من الإيمان . متفق عليه

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة : وخلق الحياء من أفضل الأخلاق ، وأجلها ، وأعظمها قدراً ، وأكثرها نفعاً ، بل هو خاصة الإنسانية ، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة ، ولولا هذا الخلق لم يُقر الضيف ، ولم يوف الوعد ، ولم تؤد الأمانة ، ولم تقض لأحد حاجة ، ولا تحرى الرجل الجميل فأثره ، والقبیح فتجنبه ، ولا ستر له عورة . وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئاً من الأمور المفترضة عليه ، ولم يرع لمخلوق حقاً ، ولم يصل له رحماً ، ولا بر له والداً ، فإن الباعث لهذه الأشياء إما ديني وهو رجاء عاقبتهم الحميدة ، وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلمها من الخلق أ.هـ وأعظم من يُستحي منه : العظيم سبحانه عز وجل ، المطلع على المرء في جميع أحواله ، وقد كان بعض السلف يستحي من الخاطرة تمر عليه .

وكذا الحياء من الملائكة الحافظين الكاتبين الشاهدين .

والحياء من النفس ولو كان وحده .

والحياء من عموم الناس ، الأعلى فالأعلى .

والحياء صفة من صفات الله تليق بجلاله ، كما في الحديث : إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم ، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً خائبين . رواه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وصححه الألباني .

وهو من صفات الملائكة الأخيار ، كما في قصة عثمان حين قال النبي ﷺ : ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة . رواه مسلم

وقد كان من حياء جبريل أنه لا يدخل على النبي ﷺ إذا وضعت عائشة ثيابها .

والحياء من صفات الأنبياء الأنقياء ، كما في الصحيحين في قصة موسى أنه كان لا يغتسل مع بني إسرائيل ، وكان حياءً ستيراً ، في قصته المعروفة .

وقد كان محمد ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها .

مسألة : يقسم بعض العلماء الحياء إلى نوعين :

١. حياء محمود : وهو الذي لا يمنع صاحبه من القيام بالواجب .

٢. حياء مذموم : وهو الذي يمنع من أداء الواجب ، أو يوقع في المحرم .

كأن يجره الحياء إلى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو ترك النصيحة الواجبة ، أو تعلم العلم والسؤال الواجب ، ولذا قالت عائشة رضي الله عنها : نعم النساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين . متفق عليه  
والحق أن الحياء كله محمود ، كما قال ﷺ في الصحيحين : الحياء خير كله ، وقال : الحياء لا يأتي إلا بخير .  
وأما ما ذكر من الحياء المذموم فإنه لا يسمى حياء ، وإنما يسمى خجلاً وخوراً .

قال القاضي عياض رحمه الله : والحياء الذي ينشأ عنه الإخلال بالحقوق ليس حياءً شرعياً ، بل هو عجز ومهانة ، وإنما يطلق عليه حياءً لمشابته للحياء الشرعي .

وقال ابن رجب رحمه الله : إن الحياء الممدوح في كلام النبي ﷺ إنما يريد به الخلق الذي يحث على فعل الجميل وترك القبيح ، فأما الضعف والعجز الذي يوجب التقصير في شيء من حقوق الله ، أو حقوق عباده فليس هو من الحياء ، وإنما هو ضعف وخور وعجز ومهانة أ.هـ

قال البخاري في الصحيح : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أبي السوار العدوي ، قال سمعت عمران بن حصين قال : قال النبي ﷺ : الحياء لا يأتي إلا بخير . فقال بشير بن كعب : مكتوب في الحكمة : إن من الحياء وقاراً ، وإن من الحياء سكينه . فقال له عمران : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحديثي عن صحيفتك !  
والأظهر أن إنكار عمران بن حصين إنما هو في مقابلة عموم قول النبي ﷺ بما ظاهره المعارضة ، كما عند مسلم : ألا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه !

وقال مسلم في الصحيح : حدثنا يحيى بن حبيب الحارثي ، حدثنا حماد بن زيد ، عن إسحاق - وهو ابن سويد - أن أبا قتادة حدث قال : كنا عند عمران بن حصين في رهط منا ، وفيما بشير بن كعب ، فحدثنا عمران يومئذ قال : قال رسول الله ﷺ : الحياء خير كله . قال أو قال : الحياء كله خير . فقال بشير بن كعب : إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة أن منه سكينه ووقاراً لله ، ومنه ضعف . قال فغضب عمران حتى احمرتا عيناه ، وقال : ألا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه !  
قال فأعاد عمران الحديث ، قال فأعاد بشير ، فغضب عمران ، قال : فما زلنا نقول فيه : إنه منا يا أبا نجيذ إنه لا بأس به . قال النووي : وأما إنكار عمران رضي الله عنه ، فلكونه قال ( منه ضعف ) بعد سماعه قول النبي ﷺ أنه خير كله .  
ومعنى ( تعارض ) تأتي بكلام في مقابلته ، وتعارض بما يخالفه .

وقولهم ( إنه منا ، لا بأس به ) معناه : ليس هو ممن يتهم بنفاق ، أو زندقه ، أو بدعة ، أو غيرها مما يخالف به أهل الاستقامة أ.هـ

## أَقْوَال مَأْثُورَةٌ فِي الْحَيَاءِ :

قال بعضهم : تركت الذنوب حياء أربعين سنة ، ثم أدركني الورع .  
وقال بعض السلف وقد سُئِلَ عن المروءة فقال : أن لا تعمل في السر شيئاً تستحي منه في العلانية .  
وقال سليمان بن عبد الملك : إذا أراد الله بعبد هلاكاً نزع منه الحياء ، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقبلاً ممقلاً .  
وقال الشاعر :

وإني لتنهاني خلائق أربع      عن الفحش فيها للكريم روادع  
حياء وإسلام وشيب وعفة      وما المرء إلا ما حبه الطبايع

## ما يستفاد من الحديث :

- ١ . الحث على خلق الحياء ، وبيان لأهميته ، إذ إنه مما توارثه الأجيال عبر القرون .
- ٢ . أن الحياء يمنع الإنسان من ردى الأخلاق .
- ٣ . أن الإسلام يدعو إلى معالي الأخلاق .



### الحديث الحادي والعشرون

عن أبي عمرو - وقيل : أبي عمرة - سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله : قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال : قل آمنت بالله ثم استقم . رواه مسلم

تخرجه : رواه مسلم ، وفي رواية له : لا أسأل عنه أحداً بعدك .

موضوعه : الأمر بالاستقامة على دين الله .

شرحه :

قوله ( قلت : يا رسول الله : قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحد غيرك ) .

في هذا السؤال دليل على فقه هذا الصحابي رضي الله عنه ، حيث طلب من النبي ﷺ علماً جامعاً يكتفي به ، ولا يحتاج معه إلى سؤال غيره .

ومن هذا السؤال العميق تتجلى أهمية الجواب .

قوله ( قل آمنت بالله ثم استقم ) .

هذا الجواب مطابق لقوله تعالى ( إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ) .

وقوله تعالى ( إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) .

وللسلف عبارات كثيرة في معنى الاستقامة ، قال القرطبي : وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها : اعتدلوا على طاعة الله عقداً ، وقولاً ، وفعلاً ، وداوموا على ذلك .

فلفظ ( الاستقامة ) يشمل أمرين :

١ . سلوك الطريق القويم ، والمنهج المستقيم ، دون الزيادة عليه .

وفي هذا يقول تعالى لنبيه ﷺ ( فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ) . أي : لا تتجاوزوا ما أمرتم به .

وقال تعالى ( فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ) .

ومنه أيضاً قوله تعالى ( وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ) .

وقوله تعالى ( وألوا استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً ) .

٢ . الثبات على الطريق المستقيم ، وعدم الحيدة عنه .

وفي هذا يقول تعالى ( إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا... ) ومنه هذا الحديث .

وعند النسائي عن أنس أن النبي ﷺ قال ( إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا... ) فقال : قد قالها الناس ثم كفروا ، فمن مات عليها فهو من أهل الاستقامة .

وروى ابن المبارك في كتاب الزهد ، وكذا أحمد في كتاب الزهد عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية على المنبر ( إن الذين قالوا

ربنا الله ثم استقاموا ) فقال : لم يروغوا روغان الثعلب .

وعليه فالأمور ثلاثة : معرفة الحق ، ثم سلوكه ، ثم الثبات عليه ، فمن فرط في ذلك فقد ناله من الخسران بحسبه .  
فكم من قائل ( آمنت بالله ) ولكنه لم يصب الطريق القويم ، فابتدع في دين الله ، أو ارتكب ما نهى الله عنه ، وفرط في ما أمر الله به ، واتبع هواه .

وكم من قائل ( آمنت بالله ) وأصاب الطريق القويم ثم نكص عنه وعاد القهقري ، والسعيد من ثبته الله ، والمخذول من تخلى الله عنه ، ووكله إلى عقله وقلبه الضعيف .

فمن لقي الله بالاستقامة فقد فاز بخيري الدنيا والآخرة ، قال تعالى ( إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا و أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ) ففيها بشارة للمؤمن أنه عند الموت تتلقاه الملائكة قائلة له ( ألا تخافوا ) لأن المقبل على المجهول يخافه ( ولا تحزنوا ) على ما خلفتم من الذرية ، ونحو ذلك ( وأبشروا بالجنة ) دار النعيم ، ففي ذلك تأمين للحاضر ، وتطمين للماضي ، وتشويق للمستقبل .

فاللهم ثبتنا على دينك وشرعك حتى نلقاك ، ولا تكلنا إلى غيرك يا رحمن .

قال ابن رجب : الاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم ، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه بمنة ولا يسرة ، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة ، وترك المنهيات كلها كذلك ، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها .

وفي قوله عز وجل ( فاستقيموا إليه واستغفروه ) إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها ، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع للاستقامة .

وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس لن يطيقوا الاستقامة حق الاستقامة ، كما خرج الإمام أحمد وابن ماجه من حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال ( استقيموا ولن تُحصوا ) وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال ( سدّدوا وقاربوا ) .

فالسداد هو حقيقة الاستقامة ، فهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد ، كالذي يرمي إلى غرض فيصيبه ، فقد أمر النبي ﷺ علياً أن يسأل الله عز وجل السداد والهدى ، وقال له : اذكر بالسداد تسديدك السهم ، وبالهدى هدايتك الطريق . رواه مسلم والمقاربة أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه ، ولكن بشرط أن يكون مصمماً على قصد السداد وإصابة الغرض ، فتكون مقارنته عن غير عمد أهـ بتصرف

وقد كان ﷺ يعلم أصحابه الاستقامة قولاً وعملاً ، فعند مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئِلت عن الركعتين اللتين كان يركعهما ﷺ بعد العصر ، فقالت : كان يركعهما قبل العصر ، ثم إنه شغل عنهما أو نسيهما فصلاهما بعد العصر ، ثم أثبتهما ، وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً أحب أن يثبته <sup>(١)</sup> .

وذكرت عائشة رضي الله عنها أيضاً أن عمل النبي ﷺ كان ديمة .

وقال ﷺ مرة لعبد الله بن عمرو : يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل . متفق عليه

وقد بوب البخاري على ذلك بقوله : باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه .

(١) قال ابن القيم : وقضاء السنن الرواتب في أوقات النهي عام له ولأمته ، وأما المداومة على تلك الركعتين في وقت النهي فمختص به .

وقال البيهقي : الذي اختص به ﷺ المداومة لا أصل القضاء ، وأما ما روي عن ذكوان عن أم سلمة في هذه القصة أنها قالت : فقلت : يا رسول الله : أفنقضها إذا فاتتا ؟ فقال : لا . فهي رواية ضعيفة لا تقوم بها حجة .

وقال ابن حجر : أما مواظبته ﷺ على ذلك فهو من خصائصه ، والدليل عليه رواية ذكوان مولى عائشة أنها حدثته أن رسول الله ﷺ كان يصلي بعد العصر وينهى عنها ، ويواصل وينهى عن الوصال .

وفي الصحيحين أن ابن عمرو رضي الله عنهما كان يسرد الصيام ، ويواصل القيام وقراءة القرآن ، فأرشده النبي ﷺ إلى التخفيف حتى لا تمل النفس ، فلما كبر ثقل عليه ذلك ، ولكنه لم يتركه ، بل كان يفطر الأيام ثم يواصل ورده ، وكذا في قراءة القرآن ، وكل هذا حتى لا يدع عملاً كان يعمل به .

وجاء في الصحيحين من حديث أم حبيبة أنه ﷺ قال : من صلى ثنتي عشرة ركعةً تطوعاً غير فريضة بنى الله له بيتاً في الجنة . قالت أم حبيبة : فما برحت أصليهن بعد<sup>(١)</sup> .

عند مسلم : قالت أم حبيبة : فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ . وقال عنبسة : فما تركتهن منذ سمعتهن من أم حبيبة . وقال عمرو بن أوس : ما تركتهن منذ سمعتهن من عنبسة . وقال النعمان بن سالم : ما تركتهن منذ سمعتهن من عمرو بن أوس . ومن جميل كلام ابن القيم قوله : مشيهم على الصراط في السرعة والبطء بحسب سرعة سيرهم وبطئه على صراط الله المستقيم في الدنيا ، فأسرعهم سيراً هنا أسرعهم هناك ، وأبطأهم هنا أبطأهم هناك ، وأشدهم ثباتاً على الصراط المستقيم هنا أثبتهم هناك ، ومن خطفته كالاليب الشهوات ، والشبهات ، والبدع المضلة هنا خطفته الكاليب التي كأنها شوك السعدان هناك ، ويكون تأثير كالاليب الشهوات ، والشبهات ، والبدع فيه هاهنا ، فجاج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومخدول ، أي : مقطع بالكاليب ، مكردس في النار ، كما أثر فيهم تلك الكاليب في الدنيا ، جزاء وفاقاً ، وما ربك بظلام للعبيد .

### ما يستفاد من الحديث :

- ١ . من فقه السؤال أن يكون : جامعاً ، ومحددًا ، ومختصراً .
- ٢ . الحرص على الأسئلة النافعة .
- ٣ . لا بد من العمل المصدق للقول .
- ٤ . فضل الثبات والاستقامة على العمل الصالح ، ولذا يقول ابن تيمية : أفضل الكرامة لزوم الاستقامة .
- ٥ . الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة .

(١) وفي رواية للترمذي والنسائي فسر هذه الركعات : أربع ركعات قبل الظهر ، وركعتين بعد الظهر ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل الفجر . قال ابن باز : بإسناد حسن .

### الحديث الثاني والعشرون

عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال : أرأيتَ إذا صليتُ المكتوبات ، وصمت رمضان ، وأحللت الحلال ، وحرمت الحرام ، ولم أزد على ذلك شيئاً ، أَدْخَلَ الجنة ؟ قال : نعم . رواه مسلم  
ومعنى : حرمت الحرام : اجتنبته .  
ومعنى : أحللت الحلال : فعلته معتقداً حله .

تخرجه : رواه مسلم ، بزيادة ( صليت الصلوات المكتوبات ) وفي آخره قال ( والله لا أزيد على ذلك شيئاً ) .  
وفي رواية أخرى عند مسلم وغيره أن الرجل السائل هو النعمان بن قوقل .  
موضوعه : أن الاقتصار على الفرائض مع اجتناب المحرمات سبب لدخول الجنة .  
شرحه :

في هذا الحديث وغيره أن من أدى الفرائض بأنواعها ، وابتعد عن المحرمات استحق دخول الجنة .  
ودخول الجنة درجات ومراتب :

١ . من يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب . وهؤلاء أسعد الناس .

٢ . من يدخل الجنة بحساب من غير عذاب .

٣ . من يدخل الجنة بعد أن يعذب في النار بقدر ما يتطهر من ذنوبه .

قوله ( وأحللت الحلال ، وحرمت الحرام ) .

قال النووي : ومعنى حرمت الحرام : اجتنبته ، ومعنى أحللت الحلال : فعلته معتقداً حله .

وقال ابن الصلاح : الظاهر انه أراد بقوله ( حرمت الحرام ) أمرين : أحدهما أن يعتقد كونه حراماً ، والثاني ألا يفعله ، بخلاف تحليل الحلال فإنه يكفي فيه مجرد اعتقاده حلالاً .

ويرى ابن رجب أن المعنى : فعل الحلال ، واجتناب الحرام ، فقال رحمه الله : وقد فسر بعضهم تحليل الحلال باعتقاد حله ، وتحريم الحرام باعتقاد حرمة مع اجتنابه ..... والمراد بالتحليل والتحريم : فعل الحلال ، واجتناب الحرام ، كما ذكر في هذا الحديث ، وقد قال الله تعالى في حق الكفار الذين كانوا يغيرون تحريم الشهور الحرم ( إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلون عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ) والمراد : أنهم كانوا يقاتلون في الشهر الحرام عاماً ، فيحلونه بذلك ، ويمتنعون من القتال فيه عاماً ، فيحرمونه بذلك .

قوله ( ولم أزد على ذلك شيئاً ) .

فيه إشكال إذ انه لم يذكر الحج والزكاة ، وقد أجاب العلماء على ذلك بعدة أجوبة منها :

- ١ . أنه لم يكن ذا مال ، فلا تجب عليه الزكاة والحج ، وربما لم يفرض الحج بعدُ .
- ٢ . أن ترك الحج والزكاة من المحرمات ، وهي داخله في قوله ( وحرمت الحرام ) وأما اقتصاره على الصلاة والصيام فمراده المثال على بقية المفروضات المرادة بقوله ( أحللت الحلال ) .

ويمكن أن يقال : القاعدة العامة أن أحكام الشريعة تؤخذ من عموم نصوص الشريعة ، ولا يقتصر على بعضها ، لدخول احتمالات كثيرة على أفراد النصوص .

ويكون خلاصة القول : أن من اقتصر على أداء الفرائض ، واجتنب المحرمات ، استحق دخول الجنة بذلك ، والله أعلم .

### ما يستفاد من الحديث :

- ١ . حرص الصحابة على العلم .
  - ٢ . حرص الصحابة على السؤال النافع ، وترك ما لا نفع فيه .
  - ٣ . لا بد من العمل لتحقيق الإيمان .
  - ٤ . تطلع الصحابة دوماً إلى الدار الآخرة . كقول بعضهم ( أسألك مرافقتك في الجنة ) ( أي الأعمال أحب إلى الله ) ( دلي على عمل إذا عملته أحبني الله ) ونحو ذلك .
  - ٥ . فيه رد على بعض المتصوفة الذين يقولون : نحن لا نعبد الله طمعاً في جنته ، ولا خوفاً من ناره .
  - ٦ . أن السنن غير واجبة ، وإن كان في تركها تفويتاً عظيماً للأجر .
  - ٧ . تفاوت هم الناس ، فمنهم من يسأل ( أي العمل أحب الله ) و ( أسألك مرافقتك في الجنة ) ومنهم من يسأل دون ذلك ، وقد جاء في الصحيحين : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فإذا هو يسأله عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : خمس صلوات في اليوم والليلة . فقال : هل علي غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع . فقال رسول الله ﷺ : وصيام رمضان . قال هل علي غيره ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع . قال وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة ، قال هل علي غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع . فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ، ولا أنقص . قال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق .
  - ٨ . تيسير الدين ، وتقريبه للناس ، خاصة من ضعفت همته ، أو كان حديث عهد .
- وفي كتاب ( المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ) : وإنما سكّ النبي ﷺ لهؤلاء السائلين عن ذكر التطوعات ، ولم يذكرها لهم كما ذكرها في حديث طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه ، لأن هؤلاء - والله أعلم - كانوا حديثي عهد بإسلام ، فاكتفى منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحال ، لئلا يثقل ذلك عليهم فيملوا ، أو لئلا يعتقدوا أن السنن والتطوعات واجبة ، فتركهم إلى أن تنشرح صدورهم بالفهم عنه ، والحرص على تحصيل ثواب تلك المندوبات فتسهل عليهم .

## الحديث الثالث والعشرون

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه ، فمعتقها أو موبقها . رواه مسلم

تخرجه : رواه مسلم ، وفيه ( ما بين السماوات ) بدل ( السماء ) .

مكانته : قال النووي في شرح صحيح مسلم : هذا حديث عظيم ، وأصل من أصول الاسلام ، قد اشتمل على مهمات من قواعد الاسلام .

موضوعه : الحث على بعض أعمال البر ، وذكر بعض فضائلها وآثارها .  
شرحه :

قوله ( الطهور )<sup>(١)</sup> شطر الإيمان ) .

الشرط هو النصف<sup>(٢)</sup> ، واختلف العلماء في معنى هذه الجملة على أقوال أشهرها<sup>(٣)</sup> :

- ١ . أن الإيمان إما فعل ، وإما ترك ، فترك الذنوب نصف ، وفعل المأمورات نصف .  
وعليه فالمقصود بالطهور : المعنى العام الذي هو الترك ، كما في قوله تعالى ( وثيابك فطهر ) يعني من الشرك ، وقوله تعالى ( إنهم أناس يتطهرون ) يعني من الفواحش .  
ولكن يرد على هذا أنه جاء في بعض روايات الحديث ( الوضوء شطر الإيمان ) ورواية ( إسباغ الوضوء شطر الإيمان ) .
- ٢ . أن الوضوء للصلاة شطر الصلاة .  
لأن الصلاة يُطلق عليها : إيمان ، كما في قوله تعالى ( وما كان الله ليضيع إيمانكم ) يعني صلاتكم قَبْلَ بيت المقدس .  
واختار هذا القول النووي ، وقال : وهذا القول أقرب الأقوال .

(١) الطهور ، والفطور ، والسحور بالضم يراد بها الفعل نفسه ، من التطهر ، والإفطار ، والتسحر ، وبالفتح يراد به ما يُفعل به ، وهو الماء المتطهر به ، والطعام المفطر به أو المتسحر به . قال شيخنا في الشرح الممتع : السحور : بالضم ، لأن سَحوراً بالفتح اسم لما يتسحر به ، وسُحور بالضم اسم للفعل ، ولهذا نقول : وَضوءاً بفتح الواو اسم للماء ، وَضوءاً بضم الواو اسم للفعل ، ونقول : طَهُور اسم لما يتطهر به ، وطُهور بضم الطاء اسم لفعل الطهارة ، وهذه قاعدة مفيدة تعصم الإنسان من الخطأ في مثل هذه الكلمات .

(٢) وذكر ابن رجب رحمه الله فائدة لطيفة ، وهو أن النصفين لا يلزم أن يكونا متساويين في كل موضع ، فقال : كل شيء كان تحته نوعان ، فأحدهما نصف له ، وسواء كان عدد النوعين على السواء ، أو أحدهما أزيد من الآخر ، ويدل على هذا حديث : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين . والمراد : قراءة الصلاة ، ولهذا فسرها بالفاصلة ، والمراد أنها مقسومة للعبادة ، والمسألة ، فالعبادة حق الرب ، والمسألة حق العبد ، وليس المراد قسمة كلماتها على السواء . وقد ذكر هذا الخطأ ، واستشهد بقول العرب : نصف السنة سفر ، ونصفها حضر ، قال : وليس على تساوي الزمانين فيهما ، لكن على انقسام الزمانين لهما ، وإن تفاوتت مدتهما ، ويقول شريح - وقيل له : كيف أصبحت ؟ - قال : أصبحت ونصف الناس علي غضبان ، يريد أن الناس بين محكوم له ، ومحكوم عليه ، فالحكوم عليه غضبان ، والمحكوم له راض عنه ، فهما حزبان مختلفان .

ويقول الشاعر : إذا مت كان الناس نصفين : شامت بموتي ومثني بالذي كنت أفعل

ومراده أنهم ينقسمون قسمين .

قلت : ومن هذا المعنى : حديث أبي هريرة المرفوع في الفرائض : إنما نصف العلم . خرج ابن ماجه ، فإن أحكام المكلفين نوعان : نوع يتعلق بالحياة ، ونوع يتعلق بما بعد الموت أ.هـ

(٣) وقد اختلفوا في معنى ( الطهور ) وفي معنى ( الشطر ) وفي معنى ( الإيمان ) في هذا الحديث .

٣. أن الطهور جزء من الإيمان ، قال ابن رجب : وهذا فيه ضعف ، لأن الشطر إنما يعرف استعماله لغة في النصف ، ولأن في حديث الرجل من بني سليم ( الطهور نصف الإيمان ) .

قال ابن رجب بعد أن ذكر هذه الأقوال وغيرها : والله أعلم بمراده ، ومراد رسوله في ذلك كله أهـ .  
وعلى كل حال فالأقرب أن المراد بالطهور هنا : الوضوء ، للروايات السابقة ، وتكون هذه الجملة فيها بيان لمكانة الوضوء ، وعلو قدره ، وفضله ، سواء كان المراد به ( الإيمان ) المعنى العام الذي هو الدين ، أو كان المراد به ( الصلاة ) والله أعلم .  
وقد ورد في فضل الوضوء أحاديث كثيرة ، منها :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء - ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجليه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقياً من الذنوب . رواه مسلم

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله . إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء . رواه مسلم  
قوله ( والحمد لله تملأ الميزان ) .

والمعنى أن قول الإنسان ( الحمد لله ) تملأ ميزانه يوم القيامة بالحسنات وتثقله ، كما في قوله ﷺ : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم . متفق عليه  
قوله ( وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض ) .

والمعنى أن قول ( سبحان الله ) وقول ( الحمد لله ) يملأ الفضاء الذي بين السماء والأرض .  
فلو قدر ثوابهما جسماً ملأ ما بين السماء والأرض .

وهل يملآن بمجموعهما أو أن كلاً منهما يملأ ما بين السماء والأرض ؟

قال بعضهم : هذا بناء على ثبوت أحد اللفظين ، وهل النبي ﷺ قال ( تملآن ) أو قال ( تملأ ) .

ويمكن أن يكون معنى اللفظين واحد في كلا المعنيين ، وتورع الصحابي في أي اللفظين قال ﷺ والله أعلم .

وقد أخبر النبي ﷺ أن قول ( سبحان الله ) و ( الحمد لله ) من أحب الكلام إلى الله ، وذكر فضائل عديدة لهما ، ومن ذلك :  
ما جاء عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . لا يضرك بأيهن بدأت . رواه مسلم

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس . رواه مسلم

قوله ( والصلاة نور ) .

النور هو الضوء الذي لا شعاع له ، وتلمس فيه الطمأنينة .

قال تعالى عن القمر ( وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ) .

وذلك أن أداء الصلاة يجلب النور في قلب الإنسان ، وفي وجهه ، وفي قبره ، وفي المحشر .

**فالصلاة نور في القلب** ، تنشرح بها نفس المؤمن ، وتأنس بها ، وقد كان ﷺ يقول لبلال : أرحنا بالصلاة . رواه أحمد ، وأبو داود ، وصححه الألباني .

وفي المسند أنه ﷺ قال : وجعلت قرّة عيني في الصلاة . صححه الألباني .

وكان ﷺ إذا حزبه أمر صلى . رواه أبو داود ، وحسنه الألباني .

**وهي نور في الوجه** ، كما قال تعالى ( سيماهم في وجوههم من أثر السجود ) .

**وهي نور في القبر** ، كما قال أبو الدرداء : صلوا ركعتين في ظلم الليل لظلمة القبور .

**وهي نور يوم القيامة** ، كما قال تعالى ( يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ) بسبب أعمالهم الصالحة والتي من أعظمها الصلاة .

وفي حديث عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : من حافظ عليها كانت له نوراً ، وبرهاناً ، ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ، ولا برهان ، ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون ، وفرعون ، وهامان ، وأبي بن خلف . رواه أحمد .

وكلما كان العبد أكثر صلاة ، وأقوم لها كان أعظم نوراً في كل ما ذكر<sup>(١)</sup> .

**قوله ( والصدقة برهان )** .

اختلف أهل العلم في معنى ( برهان ) في هذه الجملة على قولين :

١ . دليل : والمعنى أن الصدقة دليل على إيمان المتصدق ، لأن المال محبوب إلى النفوس ، كما قال تعالى ( وتحبون المال حباً جماً ) فإذا أخرجه دل ذلك على محبته لله وإيمانه به .

٢ . البرهان هو الشعاع الذي يلي وجه الشمس .

قال ابن رجب : وأما الصدقة فهي برهان ، والبرهان هو الشعاع الذي يلي وجه الشمس ، ومنه حديث أبي موسى أن روح المؤمن تخرج من جسده لها برهان كبرهان الشمس . ومنه سميت الحجة القاطعة برهاناً لوضوح دلالتها على ما دلت عليه ، فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان .

**قوله ( والصبر ضياء )** .

قال النووي في شرح مسلم : ( والصبر ضياء ) فمعناه الصبر المحبوب في الشرع ، وهو الصبر على طاعة الله تعالى ، والصبر عن معصيته ، والصبر أيضاً على النائبات ، وأنواع المكار في الدنيا ، والمراد أن الصبر محمود ، ولا يزال صاحبه مستضيئاً ، مهتدياً ، مستمراً على الصواب . قال إبراهيم الخواص : الصبر هو الثبات على الكتاب والسنة أ.هـ. وفي هذه الجملة بشارة أن عاقبة الصبر محمودة .

وإنما عبر عن الصلاة بالنور ، وعن الصبر بالضياء ، لأن النور إشراق بلا إحراق ، كنور القمر ، بينما الضياء إشراق بإحراق ، كضيء الشمس ، قال تعالى ( هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ) فدل أن الصبر فيه نوع مشقة ، وهذا من بلاغته ﷺ .

(١) قال النووي في شرح مسلم : وأما قوله ﷺ ( والصلاة نور ) فمعناه أنها تمنع من المعاصي ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتؤدي إلى الصواب ، كما أن النور يستضاء به .

وقيل : معناه أنه يكون نوراً لصاحبها يوم القيامة .

وقيل : لأنها سبب لإشراق أنوار المعارف ، وانشرح القلب ، ومكاشفات الحقائق لفرغ القلب فيها ، واقباله إلى الله تعالى بظاهره وباطنه ، وقد قال الله تعالى ( واستعينوا بالصبر والصلاة ) .

وقيل : معناه أنها تكون نوراً ظاهراً على وجهه يوم القيامة ، ويكون في الدنيا أيضاً على وجهه البهاء ، بخلاف من لم يصل ، والله أعلم أ.هـ.



قال ابن رجب : والضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق كضياء الشمس ، بخلاف القمر فإنه نور محض فيه إشراق بغير إحراق ، قال تعالى ( هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ) .

**قوله ( والقرآن حجة لك أو عليك ) .**

أنزل الله القرآن وجعله من أكبر المنن ، وأعظم النعم على هذه الأمة ، فمن هجر القرآن فلم يقرأه ولم يشتغل به ، ولم يعمل به ، أو قصر في ذلك كان حجة عليه يوم القيامة .

ومن قرأه واشتغل به ، وعمل بما فيه كان القرآن حجة له ، وقائداً ، وشاهداً ، وشافعاً له يوم القيامة .

فمن قرأ ( وأقيموا الصلاة ) فأقامها كان له شاهداً ، ومن لم يقيمها كان عليه شاهداً ، وهكذا .

قال بعض السلف : ما جالس أحد القرآن فقام عنه سالماً ، بل إما أن يربح أو أن يخسر ، ثم تلا ( ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ) .

**قوله ( كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ) .**

الغدو : هو السعي في الصباح الباكر ، وهو ما بين طلوع الفجر وشروق الشمس .

ومعنى معتقها : مخلصها . ومعنى موبقها : مهلكها .

والمعنى أن كل الناس يسعون في هذه الدنيا ويعملون ولا بد ، فمنهم من يعمل لإعتاق نفسه من موجبات النار ، ومنهم من يعمل في الأمور الموجبة للنار والعياذ بالله ، وهذا كقوله تعالى ( إن سعيكم لشتى ) .

قال الحسن : المؤمن في الدنيا كالأسير يسعى في فكاك رقبتة ، لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله عز وجل .

وقال : ابن آدم إنك تغدو أو تروح في طلب الأرباح ، فليكن همك نفسك فإنك لن تريح مثلها أبداً .

وقال أبو بكر بن عياش : قال لي رجل مرة وأنا شاب : خلص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رق الآخرة ، فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبداً . قال : فوالله ما نسيتها بعد .

وكان بعض السلف يبكي ويقول : ليس لي نفسان إنما لي نفس واحدة إذا ذهبت لم أجد أخرى .

وقال محمد بن الحنفية : من كرمته نفسه عليه لم يكن للدنيا عنده قدر .

وأنشد بعضهم :

أثامن بالنفس النفيسة ربها      وليس لها في الخلق كلهم ثمن

بها تملك الأخرى فإن أنا بعته      بشيء من الدنيا فذاك هو الغبن

لئن ذهبت نفسي بدنيا أصيبها      لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن

## ما يستفاد من الحديث :

١. بيان فضل الوضوء ، وعلو منزلته في الشريعة .
٢. بيان فضل قول ( سبحان الله ) و ( الحمد لله ) .
٣. إثبات ميزان الأعمال يوم القيامة .
٤. دقة الصحابة وأمانتهم في نقل الحديث ، يظهر ذلك في قوله ( تملآن أو تملأ ) والمعنى واحد لا يتغير ، وسبق فيه القول .
٥. بيان فضل الصلاة ، وأنها نور للمسلم في الدنيا والآخرة .
٦. بيان فضل الصدقة ، وأنها برهان على صدق إيمان العبد .
٧. الحث على الصبر ، والإشارة إلى جميل عاقبته .
٨. بلاغة النبي ﷺ وحسن اختياره للألفاظ المناسبة .
٩. عظم قدر القرآن ، إذ انه يكون حجة لقارئه ، وشافع له ، وذلك في حال الإخلاص في تلاوته ، وحفظه ، والحرص على اتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وإما يكون حجة عليه ، وذلك في حال مخالفته لشيء مما ذكر .
١٠. كل إنسان في هذه الدنيا فإنما هو ساعٍ في اعتناق نفسه من عذاب الله وناره ، أو موبقها ومهلكها بالمعاصي الموجبة لغضب الله وعقابه .

## الحديث الرابع والعشرون

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن ربه عز وجل أنه قال :

يا عبادي : إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا .

يا عبادي : كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم .

يا عبادي : كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم .

يا عبادي : كلكم عارٍ إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم .

يا عبادي : إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم .

يا عبادي : إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني .

يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً .

يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر .

يا عبادي : إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . رواه مسلم

تخریجه : رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

مكانته : هذا الحديث عظيم القدر ، وكان أبو إدريس الخولاني الذي رواه عن أبي ذر إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه ، كما ذكر ذلك مسلم في صحيحه .

موضوعه : هذا حديث عظيم جمع أموراً عديدة أعظمها : حاجة العباد إلى رحمهم ، وفقرهم إليه ، وغناه عنهم سبحانه وتعالى .

(١) روى الإمام النووي هذا الحديث في آخر كتابه الأذكار بإسناده ثم قال : هذا حديث صحيح ، رويناه في صحيح مسلم وغيره ، ورجال إسناده مني إلى أبي ذر رضي الله عنهم كلهم دمشقيون ، ودخل أبو ذر رضي الله عنه دمشق ، فاجتمع في هذا الحديث جمل من الفوائد ، منها : صحة إسناده ومثنته ، وعلوه ، وتسلسله بالدمشقيين رضي الله عنهم ، وبارك فيهم . ومنها : ما اشتمل عليه من البيان لقواعد عظيمة في أصول الدين وفروعه ، والآداب ، ولطائف القلوب وغيرها ، والله الحمد . رويناه عن الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله ورضي عنه قال : ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث أ.هـ

شرحه :

قوله ( عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ربه عز وجل أنه قال ) .

هذه الصيغة من الأحاديث تسمى ( الحديث القدسي ) وهو الحديث الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه عز وجل ، وله عدة صيغ منها :

١ . عن النبي ﷺ قال : قال الله تعالى .

٢ . عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ، أو فيما يبلغه عن ربه ، أو فيما ينميه عن ربه عز وجل .

٣ . عن النبي ﷺ في الحديث القدسي .

وسمي بذلك ، لأنه من كلام القدوس سبحانه وتعالى ، ولأنه كلام مقدس عن كلام البشر .

قوله ( يا عبادي : إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ) .

في هذه الجملة بيان لحزمة الظلم بأنواعه : ظلم النفس بأنواع المعاصي وأعظمها الشرك ، وظلم الغير بالتعدي عليه أو التفريط في حقه .

وفي قوله ( حرمت الظلم على نفسي ) بيان أن الله سبحانه يحرم على نفسه أشياء ، ويوجب على نفسه أشياء ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة .

وهو سبحانه لا يجب عليه شيء ، ولا يحرم عليه شيء من قبيل العباد ، أما هو سبحانه فقد أوجب على نفسه أشياء ، كما في

قوله ﷺ في الصحيحين : وحق العباد على الله : أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً . فهو حق أحقه الله على نفسه .

وحرم على نفسه أشياء ، كما في هذا الحديث : إني حرمت الظلم على نفسي .

وهو سبحانه قادر على الظلم لا يمنعه منه أحد ، ولكن الظلم صفة نقص ، والله تعالى منزّه عن كل نقص سبحانه .

والله تعالى إنما يعامل عباده بالفضل أو بالعدل .

قوله ( يا عبادي : كلّم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ) .

طلب الهداية أعظم المطالب ، وأعلى الحاجات ، وسعادة الدنيا والآخرة مرتبطة بحصولها .

قال ابن تيمية : والذنوب من لوازم النفس ، وهو محتاج إلى الهداية كل لحظة ، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب .

والموفق من هداه الله ، ويسر له سبل الهداية ، والمخذول من أضله الله أو تخلى عنه سبحانه .

قال تعالى ( من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ) .

ومن كتب الله عليه الضلال فلن تنفع فيه موعظة ، ولن ترشده نصيحة ، قال تعالى ( ومن يضلل الله فما له من هاد ) وقال تعالى

( ومن يضلل الله فما له من سبيل ) وقال تعالى ( من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ) وقال تعالى ( ومن

يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ) وقال تعالى ( إن الذين حقن عليهم كلمة ربك لا

يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ) .

ولذا كان لزاماً على العبد التذلل لله بسؤال الهداية في كل حين ، والخوف من أن يكون من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم

يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، والمعيّار في ذلك لزوم الكتاب والسنة ، والاسترشاد بما كان عليه السلف ، والله موفق سبحانه .

وعند مسلم أنه ﷺ كان يقول في دعاء الليل : اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهديني من تشاء إلى صراط مستقيم .

قوله ( يا عبادي : كلکم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمکم ) .

ومعنى ذلك أن الرزق لا يكون إلا من الله ، فلا ينبغي أن يطلب من غيره ، قال تعالى ( فابتغوا عند الله الرزق ) وقال تعالى ( وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ) وقال تعالى ( ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ) .

وفي الحديث دليل على أن الله يحب من العباد أن يسألوه حاجاتهم الدنيوية والأخروية ، كما يحب منهم أن يسألوه الهداية ، كما في الحديث : ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع . رواه ابن حبان ، وضعفه الألباني .

وكان بعض السلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه حتى ملح عجينه ، وعلف شاته . قال ابن رجب : فإن كل ما يحتاج العبد إليه إذا سأل من الله فقد أظهر حاجته فيه وافتقاره إلى الله ، وذلك يحبه الله ، وكان بعض السلف يستحي من الله أن يسأله شيئاً من مصالح الدنيا ، والافتداء بالسنة أولى أ.هـ

قوله ( يا عبادي : كلکم عارٍ إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسکم ) .

الكسوة نوع من الرزق فهي داخلة فيما سبق ، وأن الإنسان إن لم يرزقه الله ما يكسوه بقي عارياً ، فينبغي طلب الكسوة من الله ، وحمده عليها ، إذ هي منه سبحانه .

وفي هذه الجملة الثلاثة بيان لحاجة العباد إلى ربهم في كل أمورهم ، وأنهم لا يمكن أن يستغنوا عنه طرفة عين ، إذ مصالحهم الدنيوية والأخروية لا تقوم لهم إلا بالله عز وجل .

قوله ( يا عبادي : إنکم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم ) .

المراد بقوله ( تخطئون ) تعملون الخطايا ، وليس المراد الخطأ المقابل للعمد ، لأنه معفو عنه ، كما في قوله ﷺ : رفع عن أمتي الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه .

وفي هذه الجملة بيان من الله لحال العباد ، وأنهم كثيرو الزلل والوقوع فيما حرم الله ، وترك ما أوجب الله ، وبين لهم كفارة ذلك وهو الاستغفار الصادق بشروطه ، وفي الحديث الآخر : ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي .

وعند أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه من حديث أنس عن النبي ﷺ قال : كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون . ولذا كان ﷺ يكثر من الاستغفار ، جاء في البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة .

وعند مسلم من حديث الأغر المزني أنه سمع النبي ﷺ يقول : يا أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة . والاستغفار يكون للوقوع في الحرم ، ويكون أيضاً للتقصير في الواجب ، أو التقصير في حق الله ، ولا ينفك عبد عن كل هذا . وانظر في قوله تعالى ( والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ) فإن فيه إشارة إلى أن المذنبين ليس لهم من يلجؤون إليه ، ويعولون عليه في مغفرة ذنوبهم غيره ، وكذلك في حق الثلاثة الذين خلفوا ( وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ) وكان ﷺ يقول في دعائه : لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك . متفق عليه

ويقول : أعوذ برضاك من سخطك ، وبغفوك من عقوبتك ، وبك منك . رواه مسلم

قوله ( يا عبادي : إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ) .

وذلك أن الله هو النافع الضار ، وهو الغني الحميد ، فلن يبلغ الخلق كلهم مهما بلغوا كثرة ، وقوة ، وغنى من نفع الله ، أو الإضرار به سبحانه .

تنبيه : هناك فرق بين الضر ، والإيذاء ، وقد ثبت في الحديث القدسي : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر . فالمنفي هو الحاق الضرر بالله العظيم ، كما قال تعالى ( لن يضروكم إلا أذى ) والاستثناء هنا منقطع ، والمعنى لن يضروكم لكن أذى .

قوله ( يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ) .

يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ) . وفي هذا دليل على أن الطاعات لا تنفع إلا أصحابها ، وأن الله لا يتنفع بطاعة الطائعين ، وأن المعاصي لا تضر إلا أصحابها ، وأن الله لا تضره معصية العاصين .

وأن ملك الله كامل لا تزيده طاعة الطائعين ، ولا تنقصه معصية العاصين ، فالله غني بذاته عن مخلوقاته ، كما أن الخلائق مفتقرون بذاتهم إلى خالقهم عز وجل .

قوله ( يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر ) .

في هذه الجملة بيان لسعة ملك الله ، وتمام غناه ، فلو أن الخلق من آدم إلى أن تقوم الساعة أنسهم وجنهم قاموا في مكان واحد ، وطلب كل واحد منهم كل ما يريد ، فأعطاهم الله ذلك ، فإنه لا ينقص ذلك من ملك الله شيئاً ، وإنما قال ( إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر ) من باب التشبيه ، لأنه من المعلوم أن الإبرة لا تنقص من ماء البحر شيئاً يذكر أو يؤثر . وجاء في رواية الترمذي لهذا الحديث : فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته .

وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : يد الله ملأى لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أفرأيت ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ؟ فإنه لم يغيض<sup>(١)</sup> ما في يمينه .

وفي قوله ( على صعيد واحد ) إشارة إلى عظمة الله ، حيث يسمع الجميع ، ويحييهم ، ولا يثقله ذلك ، ولا ينقص خزائنه ، وصدق الله ( وما قدروا الله حق قدره ) .

قوله ( يا عبادي : إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ) .

الله عز وجل خلق الخلق لعبادته ، ولم يتركهم هملاً ، بل كلفهم بأوامر ، ونواه ، وكلف بذلك ملائكة تكتب ما يعمل الإنسان من خير وشر . قال تعالى ( وكل صغير وكبير مستطر ) وقال تعالى ( وقالوا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها

(١) ومعنى يغيض : ينقص .

ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ) وقال تعالى ( أحصاه الله ونسوه ) وقال تعالى ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) .

فمن وجد خيراً فليحمد الله على أن وفقه لذلك ( وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ) ويحمده على أن أثابه هذا الثواب العظيم الذي لا يقابل العمل .

ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، لأن الله لم يظلمه ، بل أرسل إليه الرسل ، وأنزل الكتب ، وشرع التوبة ، وأمهله ، وجعل له مكفريات ومطهرات ، فمن جاوز ذلك كله كان اللوم عليه ، وبيا حسرة من فرط .

قال تعالى ( وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ) .

جاء عن عامر بن عبد قيس أنه قال : والله لأجتهدن ، ثم لأجتهدن ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإلا لم ألم نفسي .

وكان مطرف بن عبد الله يقول : اجتهدوا في العمل ، فإن يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجات في الجنة ،

وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحذر لم نقل ( ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ) نقول : قد عملنا فلم ينفعنا

ذلك .

### ما يستفاد من الحديث :

١ . بيان خطورة الظلم ، والنهي عنه .

٢ . حاجة العباد إلى ربهم في كل أمورهم : الهداية ، والمطعم ، والكساء ، وغيرها .

٣ . سعة رحمة الله تعالى ، حيث شرع الاستغفار ، ورغب فيه ، لعلمه سبحانه بطبيعة البشر ، ولزوم وقوع الخطأ منهم .

٤ . كمال غنى الله تعالى .

٥ . كمال حلم الله على العباد ، حيث إن خطايا العباد تصعد إليه بالليل والنهار ، وفضله ينزل عليهم بالليل والنهار .

٦ . هذا الحديث يورث العبد المراقبة لأعماله ، لأن جميع الأعمال يحصيها الله تعالى ، كما قال تعالى ( وكل شيء أحصيناه كتاباً ) .

٧ . هذا الحديث يورث محبة الله ، والحياء منه سبحانه .

٨ . أن الجن مكلفون .

## الحديث الخامس والعشرون

عن أبي ذر رضي الله عنه أيضاً أن أناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ : ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم . قال : أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة .

قالوا : يا رسول الله : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟! قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر . رواه مسلم

تخرجه : رواه مسلم .

موضوعه : بيان كثرة طرق الخير ، وتنوعها .

شرحه :

قوله ( أن أناساً من أصحاب النبي ﷺ )<sup>(١)</sup> قالوا للنبي ﷺ : ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم .

الدثور هي الأموال الكثيرة ، وهؤلاء القوم سألوا النبي ﷺ هذا السؤال ، وأن الأغنياء يشاركونهم في العبادات ، ويزيدون عليهم بالصدقة التي لا يملكونها ؟

وهذا السؤال ليس من باب الاعتراض ، ولا الحسد ، ولكن من باب المنافسة والمسابقة في الخيرات التي أمروا بها ، كما قال تعالى ( وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ) وقال تعالى ( فاستبقوا الخيرات ) .

قوله ( أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ) .

في هذه الجملة يبين النبي ﷺ أن مفهوم الصدقة أوسع من كونه إخراج المال ، بل كل عمل صالح ، وقول صالح فهو صدقة يؤجر عليه الإنسان .

(١) ذهب بعض أهل العلم إلى أن هؤلاء القوم هم فقراء المهاجرين ، والصحيح أن روايات الحديث لم تذكر ذلك ، والأحاديث التي فيها ذكر فقراء المهاجرين ليست في هذا السياق ، بل في سياق مشابه .

فقد جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى ، والنعيم المقيم ، فقال : وما ذاك؟ قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نعتق . فقال رسول الله ﷺ : أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : تسبحون ، وتكبرون ، وتحمدون ، دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة . قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ورواية البخاري ليس فيها ذكر فقراء المهاجرين ، ونصها : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء الفقراء إلى النبي ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلا ، والنعيم المقيم ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل من أموال يحجون بها ، ويعتصرون ، ويجاهدون ، ويتصدقون . قال : ألا أحدثكم إن أخذتم أدركتم من سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم ، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله؟ تسبحون ، وتحمدون ، وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين . فاختلفنا بينها ، فقال بعضنا : نسبح ثلاثاً وثلاثين ، ونحمد ثلاثاً وثلاثين ، ونكبر أربعاً وثلاثين ، فرجعت إليه فقال : تقول : سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، حتى يكون منهن كلهن ثلاثاً وثلاثين .



جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل على دابته فتحمل له عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة .

وعن أبي ذر قلت : يا رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله والجهاد في سبيله . قلت : فأبي الرقاب أفضل ؟ قال : أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : تعين صانعاً أو تصنع لأخرق . قلت : يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل . قال : تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك . متفق عليه

وفي الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو دابة إلا كان له صدقة . وجاء في البخاري : ودل الطريق صدقة .

وروى الترمذي عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال : تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وإمطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة . صححه الألباني .

بل إن الذكر من أعظم العبادات التي ترفع الدرجات : إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة .

بل قال ﷺ : كل معروف صدقة . متفق عليه

بل قال ﷺ : وتكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك . متفق عليه

قوله ( وفي بضع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول الله : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ ! قال : أرأيتم إذا وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر ) .

قوله ( بضع ) : يعني بعض ، والمراد الفرج ، وهذا من علو هذه اللغة ، حيث كنوا بما يستحيا منه بما يدل عليه بلا منافاة للأدب . والمعنى أن كل ما يأتيه الإنسان من الأمور المباحة وينوي فيه الأجر فإنه يحصل له .

فإذا نوى بإتيان أهله العفاف ، أو إحصان الزوجة ، وحسن عشرتها ، أو تكثير أمة محمد ﷺ أو غير ذلك من المقاصد الشرعية فإنه يؤجر على ذلك ، وكذلك جميع المباحات .

## ما يستفاد من الحديث :

١. حرص الصحابة على المنافسة في الخيرات ، وحزنهم لفوات ما لا يقدرُونَ عليه من العمل .
٢. كثرة طرق الخير وتنوعها .
٣. أن مفهوم الصدقة في الإسلام أعم من الصدقة بالمال .
٤. سهولة طريق الجنة ، وأن أعظم الأعمال مما يستطيعه كل أحد ، فأعظم شيء في الميزان وأعلى منازل الجنة تنال بحسن الخلق ، وأعظم الأعمال ذكر الله ، وهذا من رحمة الله .
٥. على الداعي إلى الله أن يعدد وينوع طرق الخير على الناس ، لأن النفوس تختلف في ميلها ورغبتها وتحملها .
٦. أن المباحات تنقلب إلى عبادات بالنية الصالحة .
٧. حجية القياس كما هو مذهب جماهير العلماء خلافاً لأهل الظاهر .

## الحديث السادس والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كل سُلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة . رواه البخاري ومسلم .

تخریجه : متفق عليه ، واللفظ أقرب لرواية مسلم .

موضوعه : بيان كثرة طرق الخير ، وتنوعها .

شرحه :

يبين النبي ﷺ أن الله خلق الإنسان وله ثلاثمائة وستون سلامى ، وهو المفصل بين كل عظمين ، كما جاء عند مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : إنه خُلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل ، فمن كبر الله ، وحمد الله ، وهلل الله ، وسبح الله ، واستغفر الله ، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس ، وأمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، عدد تلك الستين والثلاثمائة السلامى ، فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار . قال أبو توبة : وربما قال : يمشي . وأن على الإنسان أن يتصدق عن كل مفصل بصدقة ، والصدقة كما سبق تشمل كل معروف نوى فيه العبد التقرب إلى الله ، وقد ذكر النبي ﷺ هنا عدة أعمال من أعمال الخير والبر ، وذكر في أحاديث أخرى غيرها ، كما في حديث عائشة السابق ، وقال البخاري : حدثنا مسدد ، حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا الأوزاعي ، عن حسان بن عطية ، عن أبي كبشة السلولي ، سمعت عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنهما يقول : قال رسول الله ﷺ : أربعون خصلة أعلاهن منيحة العنز ، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها ، وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة . قال حسان : فعددت ما دون منيحة العنز من : رد السلام ، وتشميت العاطس ، وإمالة الأذى عن الطريق ، ونحوه ، فما استطعنا أن نبلغ خمس عشرة خصلة .

وضابطها كما سبق : كل معروف نوى الإنسان به التقرب إلى الله ، كما في الحديث : كل معروف صدقه . متفق عليه وهذه الصدقة تكون مقابل لنعمة تلك المفاصل ، فهي كالشكر لله على تلك النعمة .

وأعظم الشكر أن تُحفظ تلك المفاصل عن معصية الله تعالى .

قال بعض السلف : الشكر ترك المعاصي .

وللشكر ثلاث محال :

- ١ . شكر القلب : وهو الاعتراف بالنعمة وأنها من الله .
- ٢ . شكر اللسان : وهو الثناء على المنعم وحمده عليها .
- ٣ . شكر الجوارح : وهو الاستعانة بها على طاعته ، والبعد عن مساخطه ، كما قال تعالى ( اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ) .

وجاء عند مسلم من حديث أبي ذر : ويجزئ من ذلك ركعتين يركعهما من الضحى .  
قال ابن رجب : وإنما كانتا مجزئتين عن ذلك كله ، لأن في الصلاة استعمالاً للأعضاء كلها في الطاعة والعبادة ، فتكون كافية في  
نعمة سلامة هذه الأعضاء ، وبقيّة هذه الخصال المذكورة أكثرها استعمال لبعض أعضاء البدن خاصة ، فلا تكمل الصدقة بها  
حتى يأتي منها بعدد سلامى البدن ، وهي ثلاثمائة وستون ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها .  
لطيفة : في هذا الحديث تعداد لطرق الخير ، وكل هذه الطرق فعلية إلا واحدة ، والحديث الذي قبله تعداد لطرق الخير ، وكلها  
قولية إلا واحدة .

### ما يستفاد من الحديث :

- ١ . بيان آية من آيات النبي ﷺ حيث بين أن عدد مفاصل الإنسان ثلاثمائة وستون مفصلاً ، وهذا ما أثبتته الطب الحديث مؤخراً .
- ٢ . الحث على شكر النعم .
- ٣ . بيان تعداد طرق الخير وتنوعها .
- ٤ . عدم احتقار أي عمل ولو كان صغيراً .
- قال ابن حجر في فتح الباري : فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه ، ولا في قليل من الشر أن يجتنبه ، فإنه لا يعلم  
الحسنة التي يرحمها الله بها ، ولا السيئة التي يسخط عليه بها .
- ٥ . بيان روعة الإسلام ، وبث روح الأخوة والتعاون بين أفرادهِ .

## الحديث السابع والعشرون

عن النّوأس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس . رواه مسلم

وعن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقال : جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت : نعم . قال : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك .

حديث حسن رويناه في مسندي الإمامين أحمد بن حنبل ، والدارمي بإسناد حسن .

تخریجه : حديث النّوأس رواه مسلم من طريقين .

عن النّوأس بن سمعان الأنصاري قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال : البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس .

عن نّوأس بن سمعان قال : أقمت مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنة ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة ، كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، قال : فسألته عن البر والإثم ، فقال رسول الله ﷺ : البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس .

وحديث وابصة رواه أحمد ، والدارمي ، وابن أبي شيبة ، وفيه مقال ، لكن معناه دل عليه حديث النّوأس .  
ولفظ أحمد : أتيت رسول الله ﷺ وأنا أريد أن لا أدع شيئاً من البر والإثم إلا سألته عنه ، وحوله عصابة من المسلمين يستفتونه ، فجعلت أخطأهم فقالوا : إليك يا وابصة عن رسول الله ﷺ فقلت : دعوني فأدنو منه ، فإنه أحب الناس إلي أن أدنو منه ، قال : دعوا وابصة ، ادن يا وابصة - مرتين أو ثلاثاً - قال : فدنوت منه حتى قعدت بين يديه فقال : يا وابصة أخبرك أم تسألني ؟ قلت : لا ، بل أخبرني ، فقال : جئت تسألني عن البر والإثم . فقال : نعم . فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري ويقول : يا وابصة استفت قلبك ، واستفت نفسك - ثلاث مرات - البر : ما اطمأنت إليه النفس ، والإثم : ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك .

موضوعه : معرفة البر والإثم عند عدم الدليل .

شرحه :

في هذا الحديث يبين النبي ﷺ ضابط البر ، وضابط الإثم .

فالبر كلمة جامعة تجمع أبواباً كثيرة من أبواب الخير .

والإثم كلمة جامعة تجمع أبواباً كثيرة من أبواب الشر .

ولذا قال تعالى ( وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ) .

وفي الحديث الأول ذكر النبي ﷺ مثلاً على البر ، وهو حسن الخلق ، وذكر ضابط الإثم .

وفي الحديث الثاني ذكر ضابط البر والإثم ، وهو أن النفس المطمئنة ، المقبلية على الله ، المحبة لله ، الطامعة في مرضاته ، تطمئن إلى عمل البر ، وتسكن إليه .

كما أنها تعرف الإثم إذا كان الأمر ليس عليه دليل الإباحة ، وكانت النفس تتردد في قبوله ، أو كانت تكره أن تفعله ويعلم الناس بذلك ، ويكون أقل أحواله أنه من باب الشبهات التي ترفضها النفس المطمئنة .

ولذا جاء في بعض ألفاظ الحديث : إذا حاك في صدرك شيء فدعه . رواه أحمد ، وابن المبارك في الزهد ، وصححه ابن حبان ، وقال ابن رجب : إسناده جيد على شرط مسلم .

**تنبيه :** معرفة البر والإثم إذا لم يكن دليل ، أما إذا وجد الدليل عمل به ، وكان تركه من التنطع المذموم .

كما أن هذا الحكم ، وهو إرجاع الإنسان إلى نفسه في معرفة ذلك ، إنما هو في حق المتقين الذين يتخرجون من الإثم ، أما من كان دون ذلك ، فإنه لا يأخذ هذا الحكم ، لأن نفسه لن تقوده إلى الورع ، وإلى إصابة الحق ، والله أعلم .

ومن نفائس كلام ابن تيمية قوله : فإن الله فطر عباده على الحق ، فإذا لم تستحل الفطرة شاهدت الأشياء على ما هي عليه ، فأكثر منكراً ، وعرفت معروفها . قال عمر : الحق أبلج لا يخفى على فطن .

فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة ، منورة بنور القرآن ، تجلت لها الأشياء على ما هي عليه في تلك المزايا ، وانتفت عنها ظلمات الجهالات ، فرأت الأمور عياناً مع غيبها عن غيرها .

وفي السنن والمسند عن النواس بن سمعان الأنصاري عن رسول الله ﷺ قال : ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبي

الصراط سوران ، فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا

الصراط جميعاً ، ولا تتفرجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه ،

فإنك إن تفتحه تلجه . والصراط الإسلام ، والسوران حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى ، وذلك الداعي على

رأس الصراط كتاب الله عز وجل ، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم .

فقد بين في هذا الحديث العظيم - الذي من عرفه انتفع به انتفاعاً بالغاً إن ساعده التوفيق ، واستغنى به عن علوم كثيرة - أن في

قلب كل مؤمن واعظاً ، والوعظ هو الأمر والنهي ، والترغيب والترهيب .

وإذا كان القلب معموراً بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت ، بخلاف القلب الخراب المظلم .

قال حذيفة بن اليمان : إن في قلب المؤمن سراجاً يزهو .

وفي الحديث الصحيح عن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس رضي الله عنهما فذكروا الدجال ، فقال : إنه مكتوب بين عينيه (

كافر ) وقال ابن عباس : لم أسمع قال ذاك ، ولكنه قال : أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم جعد ، على

جمل أحمر مخطوم بخلبة ، كأني أنظر إليه إذ انحدر في الوادي يلي .

فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره ، ولا سيما في الفتنة ، وينكشف له حال الكذاب الوضاع على الله ورسوله ، فإن

الدجال أكذب خلق الله ، مع أن الله يجري على يديه أموراً هائلة ، ومخاريق مزلفة ، حتى إن من رآه افتتن به ، فيكشفها الله

للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها .

وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له ، وعرف حقائقها من بواطنها ، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف ، وذلك مثل السراج القوي ، والسراج الضعيف في البيت المظلم ، ولهذا قال بعض السلف في قوله ( نور على نور ) قال : هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر ، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور .

فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن ، فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم ، والظن أن هذا القول كذب ، وأن هذا العمل باطل ، وهذا أرجح من هذا ، أو هذا أصوب .

وفي الصحيح عن عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يقول : قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم . قال ابن وهب تفسير محدثون : ملهمون .

والمحدث : هو الملهم المخاطب في سره . وما قال عمر لشيء : إني لأظنه كذا وكذا إلا كان كما ظن ، وكانوا يرون أن السكينة تنطق على قلبه ولسانه .

وأيضاً فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لقوة إيمانه يقيناً وظناً ، فالأمور الدينية كشفها له أيسر بطريق الأولى ، فإنه إلى كشفها أحوج ، فالمؤمن تقع في قلبه أدلة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها في الغالب ، فإن كل أحد لا يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه ، فإذا تكلم الكاذب بين يدي الصادق عرف كذبه من فحوى كلامه ، فتدخل عليه نحوه الحياء الإيماني فتمنعه البيان ، ولكن هو في نفسه قد أخذ حذره منه ، وربما لوح أو صرح به خوفاً من الله ، وشفقة على خلق الله ليحذروا من روايته ، أو العمل به .

وكثير من أهل الإيمان والكشف يلقي الله في قلبه أن هذا الطعام حرام ، وأن هذا الرجل كافر ، أو فاسق ، أو ديوث ، أو لوطي ، أو خمار ، أو مغن ، أو كاذب ، من غير دليل ظاهر ، بل بما يلقي الله في قلبه .

وكذلك بالعكس يلقي في قلبه محبة لشخص وأنه من أولياء الله ، وأن هذا الرجل صالح ، وهذا الطعام حلال ، وهذا القول صدق ، فهذا وأمثاله لا يجوز أن يستبعد في حق أولياء الله المؤمنين المتقين .

وقصة الخضر مع موسى هي من هذا الباب ، وأن الخضر علم هذه الأحوال المعينة بما أطلعه الله عليه .

وهذا باب واسع يطول بسطه قد نهنا فيه على نكت شريفة تطلعك على ما وراءها أ.هـ.

## ما يستفاد من الحديث :

- ١ . بيان فضيلة حسن الخلق ، وسبق في الحديث الثامن عشر الكلام عن ذلك .
- ٢ . أن أعمال البر تجلب السعادة وراحة النفس ، وأعمال الإثم تجلب الحرج والشك والقلق .
- ٣ . الحث على الأعمال الصالحة ، والتزود من نوافل العبادات ، لأن ذلك من أعظم ما يجلب التقوى في قلب العبد ، والتي من أهم ثمارها : البصيرة ، كما قال تعالى ( إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ) قال السعدي : أي : علماً تفرقون به بين الحقائق ، والحق والباطل .
- ولما قربت وفاة الإمام أحمد قال له أصحابه : لمن تعهد إلينا ؟ فقال : عبد الوهاب الوراق . فقالوا : قليل العلم . فقال الإمام أحمد كلمة عظيمة تدل على فقهه رحمه الله ، قال : رجل صالح ، ومثله يوفق للصواب .

## الحديث الثامن والعشرون

عن أبي نجیح العرباض بن ساریة رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا . قال : أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة . رواه أبو داود والترمذي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

تخریجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وصححه الألباني .  
ولفظ أحمد : صلى لنا رسول الله ﷺ الفجر ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ، ذرفت لها الأعين ، ووجلّت منها القلوب ، قلنا أو قالوا : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فأوصنا . قال : أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً ، فإنه من يعش منكم يرى بعدي اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة .  
ولفظ أبي داود : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ، ووجلّت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا . فقال : أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة .  
موضوعه : الحث على إتباع السنة ، واجتناب المحدثات .  
شرحه :

قوله ( وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ) .

الموعظة : سميت بذلك لأنه يحصل بها العظة ، وهو الاعتبار والتفكير .

والموعظة : هي الكلام المرقق للقلب ، ولذا قال ( وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ) وقد كان ﷺ يعظ أصحابه ويذكرهم كثيراً ، ويربطهم بالآخرة ، ولذا سلمت قلوبهم ، وتوجهت إلى بارئها ، بخلاف ما يحدث اليوم من قلة الوعظ والتذكير ، والله المستعان .

قوله ( فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ) .

فيه بيان لحرص الصحابة على الخير ، وعلى تعلم العلم للعمل به ، كما فيه بيان لفقههم وفراسطهم رضي الله عنهم .

قوله ( قال : أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ) .

أوصى النبي ﷺ صحابته بتقوى الله ، وهي من أجمع الوصايا وأنفعها ، وسبق الكلام عنها ، كما أوصاهم بالسمع والطاعة لولادة الأمر ، وإنما خص هذه الوصية لما ذكر بعدها من أنه سيحصل اختلافاً كثيراً ، وتفرقاً كبيراً ، وقد حصل ذلك ولم يزل إلى اليوم .

ولذا أوصى النبي ﷺ بالسمع والطاعة لولاة الأمر ، لأن بهم تجمع الكلمة ، ويوحد الصف ، وإن احتمل في سبيل ذلك الظلم منهم ، أو فسقهم ، ونحو ذلك .

وقد تضافرت النصوص في الحث على هذا الأمر ، كما في قوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ) .

وقال ﷺ : من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني . متفق عليه

وقال ﷺ : من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية . متفق عليه وعن أبي ذر قال : إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً مجدع الأطراف . رواه البخاري

وطاعة ولادة الأمور تابعة لطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ فإذا أمروا بمعصية فلا سمع ولا طاعة ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وقد قال ﷺ : إنما الطاعة في المعروف . متفق عليه

ولذا لم يُعد الأمر ( أطيعوا ) في حق ولادة الأمر ، لأن طاعة الله طاعة مطلقة مستقلة ، وكذا طاعة رسوله ﷺ وأما طاعة ولادة الأمر فهي طاعة تابعة لا مطلقة .

قال ﷺ : على المرء المسلم : السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . متفق عليه

### وولاية الأمر يملكون بطريقتين :

١ . طريق السلم : وذلك بالشورى من أهل الحل والعقد ، أو بالعهد إليهم .

وعند هذا ينبغي أن تنطبق فيهم صفات الإمامة المعروفة في مواضعها .

٢ . طريق الظهور والقوة : وذلك بأن يتسلط ويظهر ويدعن له الناس .

وهنا إن استقر له الأمر وجبت طاعته مع هذا ، ولا يشترط طاعته توفر شروط الإمامة ، ولذا قال ﷺ : وإن تأمر عليكم عبد . مع إجماع أهل العلم على أن العبد لا ولاية له<sup>(١)</sup> .

قال ابن رجب : وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا ، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم ، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم ، كما قال علي رضي الله عنه : إن الناس لا يصلحهم إلا إمام بر أو فاجر ، إن كان فاجراً عبد المؤمن فيه ربه ، وحمل الفاجر فيها إلى أجله .

وقال الحسن في الأمراء : هم يلون من أمورنا خمساً : الجمعة ، والجماعة ، والعيد ، والثغور ، والحدود ، والله ما يستقيم الدين إلا بهم ، وإن جاروا وظلموا ، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون أ.هـ

قوله ( فإنه من يعيش منكم فسيروا ) .

وهذا التحذير منه ﷺ وقع ، وما يزال يقع ويكثر إلى اليوم ، وقد أعجب كل ذي رأي برأيه .

(١) وهناك عدة توجيهات لقول النبي ﷺ ( وإن تأمر عليكم عبد ) فقليل : هو من باب المبالغة في الطاعة ، وقيل : كان عبداً ثم عتق ، وقيل غير ذلك .



وقوله ( فعليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة ) .

بعد أن بين النبي ﷺ الداء ، وهو كثرة الآراء والخلافات ، لم يترك الناس بلا علاج ، بل أرشدهم إلى علاج واضح ناصع لمن عقل ، وهو التمسك بالسنة ، والاعتصام بها ، ونبذ الآراء المحدثه ، والطرق المستحدثه ، وأنه لا نجاة للمرء إلا بذلك . فمن أراد النجاة من الفتن ، والأقوال المضلة ، فلا يتقدم إلا بدليل واضح على فهم سلف الأمة ، وإلا فالضلال قرينه ، وإن ظن الهدى . قال تعالى ( ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين \* وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ) .

قال ابن مسعود : عمل قليل في سنة ، خير من عمل كثير في بدعة .  
وقال الفضيل : اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين ، وإياك وطرق الضلال ولا تغتر بكثرة الهالكين .  
وخير الأمور السالفات على الهدى وشر الأمور المحدثات البدائع

### ما يستفاد من الحديث :

- ١ . الاعتناء بالوعظ ، سماعاً ، وإسماعاً ، ومراعاة حسن الطرح فيه لقول العرياض ( موعظة بليغة ) .
- ٢ . بيان فضل الصحابة ، وحسن تعبدهم لله تعالى ، ورقة قلوبهم .
- ٣ . قيام النبي ﷺ بواجب الدعوة أتم القيام ، حيث غير نفوس الصحابة ، حتى أوصلها إلى هذه الدرجة من الرقة والخشية .
- ٤ . مشروعية طلب الوعظ من الغير .
- ٥ . البكاء أمام الناس لا يخالف الإخلاص .
- ٦ . طاعة ولاية الأمور بالمعروف من الواجبات الشرعية ، ومن أصول أهل السنة والجماعة .
- ٧ . حث الشريعة على الاجتماع ، ونبذ التفرق .
- ٨ . لزوم التمسك بالسنة ، والحرص عليها ، وإن شق ذلك على العبد ، ولذا قال ﷺ : عضوا عليها بالنواجذ . والنواجذ هي أقوى الأسنان .
- ٩ . الحذر من البدع المحدثه بأنواعها .
- ١٠ . معجزة النبي ﷺ حيث وقع ما ذكر .
- ١١ . فضل الخلفاء الراشدين الأربعة ، أصحاب السنة المتبعة .

## الحديث التاسع والعشرون

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله : أخبرني بعمل يدخلني الجنة ، ويباعدني عن النار؟ قال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت .

ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم تلا ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) حتى بلغ ( يعملون ) .

ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر ، وعموده ، وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله .

قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله .

ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه ، وقال : كف عليك هذا .

قلت : يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟

فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم ، أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

تخریجه : رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وقال الألباني في الإرواء : إسناده حسن . وقال في صحيح الجامع : صحيح .

وبداية الحديث : كنت مع النبي ﷺ في سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقلت : يا رسول الله أخبرني بعمل .... موضوعه : الكلام عن جملة من أبواب الخير .

شرحه :

قوله ( أخبرني بعمل يدخلني الجنة ، ويباعدني من النار ) .

في هذه الجملة بيان لفقه الصحابة ، وحرصهم على الخير ، فمُعَاذُ رضي الله عنه الذي هو أعلم الناس بالحلال والحرام لم يجعل العلم غاية مطلبه ، بل جعله سبيلاً لطلب مرضاة الله عز وجل ، وطلب مغفرته وجنته .

وفيه رد على بعض المتصوفة الذين يقولون : نحن لا نعبد الله طمعاً في جنته ، ولا خوفاً من ناره .

قوله ( لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه ) .

في هذه الجملة تشجيع من النبي ﷺ لمعاذ لطرح هذا السؤال العظيم ، وبيان أن دخول الجنة والبعد عن النار أمر عظيم ، قال تعالى ( فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ) ومع أنه أمر عظيم ، ومطلب عظيم إلا أنه يسير على من وفقه الله تعالى ، وذلك أن الله برحمته وفضله رتب على يسير الأعمال الحسنات الكثيرة .

قوله ( تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ) .

بعد أن بين ﷺ أن الأمر يسير ، ذكر هنا هذا الأمر اليسير ، وهو تلك العبادات التي لا تأخذ من وقت الإنسان ، وجهده ، وماله إلا القليل ، ومع ذلك من أتى بها ، ومات عليها استحق دخول الجنة إما ابتداءً ، وإما مآلاً .

فالحج لا يجب في العمر إلا مرة ، ولا يجب إلا على المستطيع ، ورمضان لا يجب إلا شهراً من السنة ، والزكاة لا تجب إلا بحولان الحول ، وهي نسبة قليلة لمن بلغ ماله النصاب ، والصلاة إنما تجب في أوقات متفرقة ، خمس مرات في اليوم ، الفرض الواحد منها لا يستغرق دقائق معدودات ، والموفق من وفقه الله تعالى .

قوله ( ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم تلا ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) حتى بلغ : ( يعملون ) ) .

يظهر والله أعلم أن المقصود بهذه العبادات نوافلها ، إذ أنه ذكر له أولاً الفروض التي تحصل بها النجاة ، وهنا ذكر فضائل نوافل تلك العبادات ليرتقي في درجات الخير ومراتب الجنان .

قوله ( الصوم جنة ) أي : وقاية ، والمعنى أنه وقاية في الدنيا والآخرة .

في الآخرة : وقاية من النار ، كما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري : من صام يوماً في سبيل الله باعد الله عن وجهه النار سبعين خريفاً .

في الدنيا : وقاية من الوقوع في المعاصي والشهوات ، كما في حديث ابن مسعود مرفوعاً : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء . متفق عليه

ووقاية من رديء الأخلاق ، كالبذاءة والفحش ، كما أرشد النبي ﷺ الصائم أن يقول لمن شتمه أو سبه : إني امرأ صائم .

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : الصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ، ولا يجهل ، فإن امرأ سابه فليقل : إني امرأ صائم .

قوله ( والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ) سبق في حديث ( واتبع السيئة الحسنه تمحها ) أن فعل الحسنات تكفر به السيئات ، وهنا نص على الصدقة ، وكأن أثرها كبير في تكفير السيئات ، والله أعلم .

وعليه فينبغي للإنسان إذا وقع في معصية ، أو قصر في طاعة أن يقدم مع استغفاره صدقة .

وكان بعض السلف لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ، ولو كعكة ، أو بصله .

قوله ( وصلاة الرجل في جوف الليل ) أي من أبواب الخير أيضاً : صلاة الرجل في جوف الليل ، وقد وردت أحاديث كثيرة في الثناء على هذه العبادة العظيمة .

منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئل : أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ وأي الصيام أفضل بعد شهر رمضان ؟ فقال : أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة : الصلاة في جوف الليل ، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان : صيام شهر الله المحرم . رواه مسلم

وهذه العبادة ( عبادة الصالحين ) كما في الحديث : عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم . رواه الترمذي .

وقد قام النبي ﷺ حتى تفطرت قدماه ، وقام ليلة بالبقرة وآل عمران والنساء .

ولهذه العبادة سر عظيم في حياة القلب ، واستقامة أمور العبد ، وصلاح شأنه .

قال ابن رجب : ذكر أفضل أوقات التهجد ، وهو جوف الليل .

وقال أيضاً : وقد قيل : إن جوف الليل إذا أطلق فالمراد وسطه ، وإن قيل : جوف الليل الآخر ، فالمراد وسط النصف الثاني ، وهو السدس الخامس من أسداس الليل ، وهو الوقت الذي ورد فيه النزول الإلهي .

قوله ( ألا أخبرك برأس الأمر ، وعموده ، وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ) .

قوله ( رأس الأمر الإسلام ) المراد بالأمر هنا : الدين . والمراد بالإسلام : الشهادتان . فمن لم يأت بهما على التمام فلا دين له ، كالجسد بلا رأس لا قيمة له .

قال ابن رجب : ويعني بالأمر : الدين الذي بعث به وهو الإسلام ، وقد جاء تفسيره في الرواية الأخرى بالشهادتين ، فمن لم يقر بهما ظاهراً وباطناً فليس من الإسلام في شيء .

قوله ( وعموده الصلاة ) عمود الفسطاط - الذي هو الخيمة من الشعر - ما يقوم عليه ، فإن زال العمود سقط الفسطاط ، وكذلك الصلاة عمود الدين ، فلا دين لمن لا صلاة له ، وهذا مما يؤيد كفر تارك الصلاة ، وسبق الكلام عن هذه المسألة .

قوله ( وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ) الذروة هي أعلى الشيء .

والمعنى أن الجهاد من أعلى مراتب الدين ، وإنما كان كذلك لأنه به يحصل العلو والرفعة للدين ، كما قال تعالى ( ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ) .

وفي الصحيحين عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله : أي العمل أفضل ؟ قال : الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله .

قوله ( ألا أخبرك بملاك ذلك كله ) أي : ما تملك به كل هذا .

قوله ( فأخذ بلسانه ، وقال : كف عليك هذا... ) والمعنى أن من وفقه الله لحفظ لسانه فقد حاز على خيري الدنيا والآخرة . كما فيه بيان خطر اللسان ، وعظيم أثره .

قال ابن رجب : هذا يدل على أن كف اللسان وضبطه وحبسه هو أصل الخير كله ، وأن من ملك لسانه فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه .

قال يونس بن عبيد : ما رأيت أحداً لسانه منه على بال إلا رأيت ذلك صلاحاً في سائر عمله .

وقال يحيى بن أبي كثير : ما صلح منطق رجل قط إلا عرفت ذلك في سائر عمله ، ولا فسد منطق رجل قط إلا عرفت ذلك في سائر عمله .

وعن يونس بن عبيد قال : لا تجد شيئاً من البر واحداً يتبعه البر كله غير اللسان ، فإنك تجد الرجل يصوم النهار ، ويفطر على حرام ، ويقوم الليل ، ويشهد بالزور بالنهار .

قوله ( ثكلتك أمك ) أي : خسرتك حتى صارت ثكلى . وهي عبارة تقال ولا يراد معناها ، كقول : تربت يمينك ، ونحوها .

قوله ( حصائد ألسنتهم ) تشبيه للقول بالزرع الذي يحصد يوم القيامة إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وفي الترمذي عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال : أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان : الفم ، والفرج .

## ما يستفاد من الحديث :

١. حرص الصحابة على العلم النافع .
٢. التشجيع من أعظم وسائل التربية .
٣. يسر الشريعة في أحكامها .
٤. التذكير بالفرائض ، والدعوة إليها أولى من غيرها .
٥. تعداد أبواب الخير ، وتنويعها للناس .
٦. بيان خطر اللسان .
٧. التعليم عن طريق السؤال والجواب .
٨. الإجابة بأكثر من السؤال في بعض الأحوال .

## الحديث الثلاثون

عن أبي ثعلبة الخُشَني جُرثوم بن ناشر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها .

حديث حسن ، رواه الدارقطني وغيره .

تخريجه : رواه الدارقطني ، والبيهقي ، والحديث حسنه النووي هنا ، وقد ضعفه الألباني في الإرواء .

مكانته : قال ابن رجب : فحديث أبي ثعلبة قسم فيه أحكام الله أربعة أقسام : فرائض ، ومحارم ، وحدود ، ومسكوت عنه ، وذلك يجمع أحكام الدين كلها .

قال أبو بكر السمعاني : هذا الحديث أصل كبير من أصول الدين ، وحكي عن بعضهم أنه قال : ليس في أحاديث رسول الله ﷺ حديث واحد أجمع بانفراده لأصول العلم وفروعه من حديث أبي ثعلبة .

قال : وحكي عن أبي واثلة المزني أنه قال : جمع رسول الله ﷺ الدين في أربع كلمات ، ثم ذكر حديث أبي ثعلبة .

قال ابن السمعاني : فمن عمل بهذا الحديث فقد حاز الثواب ، وأمن العقاب ، لأن من أدى الفرائض ، واجتنب المحارم ، ووقف عند الحدود ، وترك البحث عما غاب عنه ، فقد استوفى أقسام الفضل ، وأوفى حقوق الدين ، لأن الشرائع لا تخرج عن هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث أ.هـ

شرحه :

قوله ( إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ) .

الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ، ولم يتركهم سدىً وهماً ، بل فرض عليهم فرائض بما تقوم مصالحهم في الدنيا والآخرة . وهنا يرشد ﷺ إلى الاعتناء بهذه الفرائض ، وعدم تضييعها ، والإتيان بها على وفق مراد الشارع .

قوله ( وحد حدوداً فلا تعتدوها ) .

الظاهر - والله أعلم - أن هذا اللفظ عام يشمل عدم تعدٍ المشروع ، كالزيادة على الثلاث في الوضوء ، كما جاء في الحديث : فمن زاد فقد تعدى وظلم . وكالوصل في الصيام على تفصيل فيه ، وكالبدع المحدث في الشرع ، كما يشمل فعل المحرمات عموماً .

قوله ( وحرم أشياء فلا تنتهكوها ) .

الله سبحانه وتعالى حرم بعض الأقوال ، والأفعال ، والتصرفات ، والأشياء ، وكل ذلك راجع إلى مصلحة العباد ، إما بالنظر إلى الشخص نفسه ، أو إلى الجماعة والأمة ، فهذه المحرمات لا يجوز لأحد أن ينتهكها ويقارفها .

ومن رحمة الله تعالى أن المحرمات معدودة محصورة ، بخلاف ما أباح الله ، كما أن هذه المحرمات ليست من الأمور الضرورية لمعاشهم ، بل هي في ما يضرهم في الدنيا والآخرة .

قوله ( وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها ) .

كل أمر لم يأمر الله به ، ولم ينه عنه فهو مباح .

وهذا دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة ، فمن حرم شيئاً ألزم بالدليل ، ومن أوجب شيئاً ألزم بالدليل ، لأنه ناقل عن الأصل .

قال تعالى ( يا أيها الذين امنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها ) .

وقال ﷺ : إن أشد المسلمين في المسلمين جرماً : رجل سأل عن شيء فحرم من أجل مسأله . متفق عليه

وقال ﷺ : ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم : كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم . متفق عليه

وخلاصة الحديث أن النبي ﷺ قسم أحكام الدين إلى أربعة أقسام : فرائض حقها ألا تضيع ، ومحارم حقها أن لا تُقرب ، وحدود حقها ألا تُتجاوز ، ومسكوت عنه حقه ألا يبحث عنه .

### ما يستفاد من الحديث :

١ . الحرص على الفرائض ، والعناية بها .

٢ . البعد عن المحرمات ، والوسائل الموصلة لها .

٣ . الاختصار على ما ورد في الشرع ، وعدم التعدي .

٤ . النهي عن التنطع ، والتكلف في الدين .

٥ . إثبات صفة السكوت لله ، قال ابن تيمية : فثبت بالسنة والإجماع أن الله يوصف بالسكوت ، لكن السكوت يكون تارة عن التكلم ، وتارة عن إظهار الكلام وإعلامه .

٦ . نفي صفة النسيان عن الله ، والمراد بالنسيان هنا : الغفلة والذهول .

وأما ما جاء في إثبات النسيان لله ، كقوله تعالى ( نسوا الله فنسيهم ) وقوله تعالى ( فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ) وقوله تعالى ( فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم ) فالمراد : الترك . إما الترك في النار ، أو الترك في الضلال والغبي . وعليه يقال : النسيان قسمان :

١ . نسيان بمعنى الذهول عن الشيء ، والغفلة عنه .

وهذا لا يضاف إلى الله ، لأنه صفة نقص تنافي تمام العلم .

٢ . نسيان بمعنى الترك .

وهذا يضاف إلى الله لمن يستحق ذلك ، ولذا جاء في القرآن مضافاً إليه في قوله لأهل النار ، أو للكفار والمنافقين .

قال ابن جرير في قوله تعالى ( نسوا الله فنسيهم ) معناه : تركوا الله أن يطيعوه ويتبعوا أمره ، فتركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمته . وقال في قوله تعالى ( إنا نسيناكم ) : إنا تركناكم اليوم في النار .

## الحديث الحادي والثلاثون

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : دلي على عمل إذا أنا عملته أحبني الله ، وأحبني الناس ، فقال : ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس .

حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة .

تخریجه : رواه ابن ماجه ، والطبراني ، وغيرهما ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يوافقه الذهبي .  
وصحح الحديث الألباني بشواهد ، وحسنه النووي هنا . وضعف الحديث ابن رجب ، وابن حجر .  
شرحه :

قوله ( جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : دلي على عمل إذا أنا عملته أحبني الله ، وأحبني الناس ) .  
في هذه الجملة بيان لفقه الصحابة رضي الله عنهم ، وحرصهم على الخير ، وعلو همتهم في أمور الآخرة ، وأن عامة سؤالاتهم إنما هي في الأمور التي تقرهم إلى الله تعالى ، وسبق الكلام عن ذلك .

قوله ( دلي على عمل إذا عملته أحبني الله ) في هذه الجملة بيان لأمر مهم جداً غفل عنه الكثير ، وهو طمع العبد وسعيه في محبة الله له ، كما قال بعض السلف : ليست العبرة بأن تحب الله ، ولكن أن يحبك الله .

وقد ذكر ابن القيم عشرة أسباب لمحبة الله لعبده في كتابه ( مدارج السالكين ) .

قال رحمه الله : فصل في الأسباب الجالبة للمحبة ، والموجبة لها ، وهي عشرة :

أحدها : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به ، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه .

الثاني : التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ، فإنها توصله إلى درجة المحبوبة بعد المحبة .

الثالث : دوام ذكره على كل حال ، باللسان ، والقلب ، والعمل ، والحال ، فنصييه من المحبة على قدر نصييه من هذا الذكر .

الرابع : إثارة محابه على محابك عند غلبات الهوى ، والتسليم إلى محابه ، وإن صعب المرتقى .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ، ومشاهدتها ، ومعرفتها ، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ، ومبانيها ، فمن عرف الله بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، أحبه لا محالة ، ولهذا كانت المعطلة ، والفرعونية ، والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب .

السادس : مشاهدة براه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة ، فإنها داعية إلى محبته .

السابع : وهو من أعجبها : انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى ، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات .

الثامن : الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته ، وتلاوة كلامه ، والوقوف بالقلب ، والتأدب بأدب العبودية بين يديه ، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ، كما ينتقى أطايب الثمر ، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام ، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ، ومنفعة لغيرك .



العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز و جل .

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ، ودخلوا على الحبيب .

وملاك ذلك كله أمران : استعداد الروح لهذا الشأن ، وانفتاح عين البصيرة ، وبالله التوفيق أ.هـ.

وأما الأسباب الموجبة لمحبة الله لعبده فهو سلوك طريق العبودية والطاعة ، فعلى قدر عبودية العبد لربه وطاعته له ، تكون محبة الله له ، فسبيل المحبة وطريقها هو العبودية ، وأعظمها عبودية القلب .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته

بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه .

وأما نتائجها وثمارها فبحر لا ساحل له ، من النصرة ، والتأييد ، والحفظ ، والتوفيق ..... .

وتقام الحديث السابق : فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألتني ل أعطيته ، ولئن استعاذني لأعيذنه .

**قوله ( وأحبني الناس )** في هذه الجملة بيان لجواز حرص الإنسان على محبة الناس له بالطريق الشرعي ، ولذا جاء في صحيح

مسلم في قصة إسلام أم أبي هريرة أن أبا هريرة طلب من النبي ﷺ أن يدعو أن يحببه وأمه إلى المؤمنين ، وأن يحبب المؤمنين لهم

فقال : يا رسول الله : ادع الله أن يحبني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ، ويحببهم إلينا . قال : فقال رسول الله ﷺ : اللهم حبب

عبيدك هذا - يعنى أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحبب إليهم المؤمنين . قال أبو هريرة : فما خلق مؤمن يسمع بي ، ولا يراني إلا أحبني .

وقد امتن الله على موسى بقوله ( وألقيت عليك محبة مني ) فلا يراه احد إلا أحبه .

وفي مصنف ابن أبي شيبة : عن نافع قال : كان ابن عمر إذا قدم حاجاً ، أو معتمراً طاف بالبيت ، وصلى ركعتين ... فكان

يقول حين يفرغ من ركعتيه ، وبين الصفا والمروة : اللهم اعصمني بدينك وطاعتك وطاعة رسولك ﷺ اللهم جنبني حدودك ، اللهم

اجعلني ممن يحبك ، ويحب ملائكتك ، ورسلك ، وعبادك الصالحين ، اللهم حببني إليك ، وإلى ملائكتك ، ورسلك .

ومحبة الصالحين للعبد دليل على محبة الله له ، كما في الحديث عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : إذا أحب الله العبد نادى جبريل

: إن الله يحب فلاناً فأحبهه ، فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبهه ، فيحبه أهل السماء ، ثم

يوضع له القبول في الأرض . رواه البخاري

فينبغي للعبد أن يحرص على أن يحبه الناس من غير مجاملة في دين الله ، وذلك بحسن الخلق ، وحسن المنطق ، والهدية ، والبشر ،

والسؤال عنهم ، وغيرها كثير من وسائل كسب الناس .

**قوله ( ازهد في الدنيا يحبك الله )** .

سبق أن الأسباب الموجبة لمحبة الله لعبده متعددة بعدد الطاعات ، لكن النبي ﷺ ذكر له ما يجمع تلك الأسباب ، وهو الزهد في

الدنيا ، والطمع في الآخرة ، ومن كان كذلك فإنه سيؤثر ما عند الله ، فينقطع بالآخرة عن الدنيا ، فبذا يحبه الله .

وقد كثرة عبارات السلف في معنى الزهد ، قال ابن القيم : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : الزهد ترك ما لا

ينفع في الآخرة ، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة .

ثم قال ابن القيم : وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها .

قال شيخنا ابن عثيمين : الزهد مرتبته أعلى من الورع ، لأن الورع ترك ما لا يضر ، والزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة .

وقد كثرت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة في ذم الركون إلى الدنيا ، والاعتزاز بها ، وبيان حقيقة الدنيا ، وأنها كالزهرة التي يغر الناظر حسننها ، لكن لا تلبث أن تدبل وتزول ، وهذا من أبلغ التشبيه ، وأنها كالظل الذي يعرض ثم يزول ، وأنها كالمتاع الذي لا يبقى .

قال تعالى ( وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ) .

وقال تعالى ( قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ) .

وقال تعالى ( تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ) .

وقال تعالى ( وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ) .

وقال تعالى ( إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ) .

وقال تعالى ( وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ) .

وقال تعالى ( واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا ) .

وقال تعالى ( ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ) .

وقال تعالى ( وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ) .

وقال تعالى ( يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ) .

وقال تعالى ( اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته

ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ) .

ومع كل هذا يبين تعالى حال الإنسان فيقول سبحانه ( بل تؤثثون الحياة الدنيا \* والآخرة خير وأبقى ) .

وفي صحيح مسلم عن جابر أن الرسول ﷺ مر بالسوق والناس كنفته<sup>(١)</sup> فمر بجدي أسك<sup>(٢)</sup> ميت فتناوله وأخذ بأذنه وقال : أيكم

يجب أن يكون هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به . فقال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : لا والله ، لو كان

حيّاً كان عيباً فيه أنه أسك ، فكيف وهو ميت . فقال : والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم .

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث المستورد بن شداد أن الرسول ﷺ قال : ما الدنيا في الآخرة إلا مثلما يجعل أحدكم إصبعه

هذه في اليم ثم لينزعها فلينظر بم يرجع .

وروى الترمذي وصححه عن سهل بن سعد أن الرسول ﷺ قال : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها

شربة ماء .

وقد كان الرسول ﷺ زهداً في الدنيا ، معرضاً عنها ، مع أنه قادر على التكثير منها .

(١) أي : بجانبه . وفي نسخة : كنفته . أي : جانيبه .

(٢) أسك : أي : صغير الأذن .

وكان يوصي أصحابه بذلك ، كما قال لابن عمر : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل . رواه البخاري

ومما يعين العبد على الزهد في الدنيا أمور ، منها :

أولاً : التأمل في قصر وقتها ، وسرعة زوالها .

ثانياً : التأمل في كثرة همومها وغمومها مهما حاز الإنسان منها .

ثالثاً : التأمل في تقلبها وتحولها ، فكم من إنسان يصبح ملكاً ويمسي صعلوكاً ، وكم من إنسان يصبح غنياً ويمسي فقيراً معدماً ،

وكم من إنسان يصبح قوياً معافاً ويمسي ضعيفاً مريضاً ، وهكذا .

قيل لبعضهم : ما الذي زهدك في الدنيا ؟ قال : قلة وفائها ، وكثرة جفائها ، وخسة شركائها .

رابعاً : الخوف من أن تشغله عن أمور آخرته .

قال الحسن : إن كان أحدهم ليعيش عمره مجهوداً ، والمال الحلال إلى جنبه . فيقال له : ألا تأتي هذا فتصيب منه ؟ فيقول : لا

والله لا أفعل ، إني أخاف أن آتية فأصيب منه فيكون فساد قلبي وعملي .

خامساً : الخوف من طول الحساب في الآخرة ، قال ﷺ : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام .

سادساً : التيقن أنه مهما جهد فيها فلن يأتيه منها إلا ما كتب له منها .

قوله ( وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس ) سبق أن طلب محبة الناس للعبد من المطالب الشرعية ، ووسائل تحصيل ذلك

كثيرة ، ذكر هنا النبي ﷺ الزهد فيما في أيدي الناس ، بحيث يستغني الإنسان عن الناس ، ولا ينافسهم في ديناهم .

قال الحسن : لا تزال كريماً على الناس ما لم تعاط ما في أيديهم ، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك ، وكرهوا حديثك ، وأبغضوك .

وقال أيوب السخيتاني : لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان : العفة عما في أيدي الناس ، والتجاوز عما يكون منهم .

وقال أعرابي لأهل البصرة : من سيد أهل هذه القرية ؟ قالوا الحسن . قال : بما سادهم ؟ قالوا : احتاج الناس إلى علمه ، واستغنى

هو عن دنياهم .

وقال الشافعي : فإن تجتنبها كنت مسلماً لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها

وما أجمل ما قال ابن تيمية رحمه الله : والعبد كلما كان أذل لله ، وأعظم افتقاراً إليه ، وخضوعاً له ، كان أقرب إليه ، وأعز له ،

وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق : أعظمهم عبودية لله .

وأما المخلوق فكما قيل : احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عن من شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره ،

ولقد صدق القائل :

بين التذلل والتدلل نقطة

في رفعها تتحير الأفهام

ذاك التذلل شرك

فافهم يا فتى بالخلف

فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه ، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت

أعظم ما يكون عندهم ، ومتى احتجت إليهم - ولو في شربة ماء - نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم .

وهذا من حكمة الله ورحمته ، ليكون الدين كله لله ، ولا يشرك به شيء .

ولهذا قال حاتم الأصم لما سئل : فيم السلامة من الناس ؟ قال : أن يكون شيؤك لهم مبدولاً ، وتكون من شيئهم آيساً .

لكن إن كنت معوضاً لهم عن ذلك ، وكانوا محتاجين ، فإن تعادلت الحاجتان تساويتم كالمُتبايعين ليس لأحدهما فضل على الآخر ، وإن كانوا إليك أحوج خضعوا لك أ.هـ

وكان ابن تيمية يردد هذه الأبيات :

رأيت القناعة رأس الغنى	فصرت بأذيالها ممتسك
فلا ذا يراني على بابه	ولا ذا يراني به منهمك
فصرت غنياً بلا درهم	أمر على الناس شبه الملك

### ما يستفاد من الحديث :

١. فضل الصحابة ، وعظيم علمهم .
٢. حرص المؤمن على فعل الأسباب الموجبة لمحبة الله له .
٣. لا بأس بسعي المؤمن للأعمال التي تحبب الناس فيه ، وفي الحديث الصحيح قال ﷺ : أنتم شهداء الله في الأرض .
٤. الزهد في الدنيا من صفات المؤمنين .
٥. القناعة والعفة من الصفات الحميدة ، وبها يرتفع المؤمن في أعين الناس ويحبونه .
٦. إثبات صفة المحبة لله ، وأنها من الصفات الفعلية الاختيارية الثابتة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته .

### الحديث الثاني والثلاثون

عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخُدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا ضرر ولا ضرار .  
حديث حسن ، رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسنداً .  
ورواه مالك في الموطأ مرسلاً عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبي ﷺ فأسقط أبا سعيد .  
وله طرق يقوي بعضها بعضاً .

تخریجه : رواه أحمد من حديث ابن عباس ، ورواه ابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت ، ومن حديث ابن عباس ، ورواه الدارقطني من حديث أبي سعيد ، ومن حديث عائشة ، ورواه الطبراني من حديث ابن عباس ، ومن حديث ثعلبة بن أبي مالك ، ورواه الحاكم من حديث أبي سعيد ، ورواه غيرهم مسنداً ومرسلاً .  
قال ابن رجب : حديث أبي سعيد لم يخرج ابن ماجه ، إنما خرجه الدارقطني ، والحاكم ، والبيهقي .  
قال النووي : وله طرق يقوي بعضها بعضاً . قال ابن رجب : وهو كما قال . وصحح الحديث الألباني .  
موضوعه : دفع ورفع الضرر .  
شرحه :

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ وهو من الأصول العظيمة ، ويدخل في أبواب كثيرة من الفقه .  
وخلاصته : منع الضرر والإضرار الحاصل على النفس ، أو الغير بشتى صوره .  
قوله ( لا ضرر ولا ضرار ) اختلف أهل العلم في الفرق بين الضرر والضرار على أقوال ، منها :  
١ . الضرر ما كان من الإنسان ، والضرار ما كان عليه ، فنهت الشريعة المكلف من الإضرار بغيره ، ونهت عن الإضرار به .  
٢ . الضرر ما كان بقصد ، والضرار ما كان بغير قصد .  
٣ . الضرر ما يفعله الإنسان مما فيه ضرر ويعود عليه بمنفعة ، والضرار ما يفعله كذلك دون وجود منفعة عائدة له .  
٤ . الضرر هو الاسم ، والضرار الفعل ، والمعنى أنه نفى وجود الضرر في الشريعة من حيث التشريع ، ونهى المكلف عن ذلك .  
٥ . الضرر يفعل ابتداءً ، والضرار يفعل مقابلة ورداً<sup>(١)</sup> .

(١) قال ابن عبد البر في ( التمهيد ) : وأما قوله ﷺ ( لا ضرر ولا ضرار ) فقليل : إنهما لفظتان بمعنى واحد ، تكلم بهما جميعاً على وجه التأكيد .  
وقال ابن حبيب : الضرر عند أهل العربية الاسم ، والضرار الفعل . قال : ومعنى ( لا ضرر ) لا يدخل على أحد ضرر لم يدخله على نفسه ، ومعنى ( لا ضرار ) لا يضار أحد بأحد . هذا ما حكى ابن حبيب .

وقال الخشني : الضرر الذي لك فيه منفعة وعلى جارك فيه مضرة ، والضرار الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المضرة . وهذا وجه حسن المعنى في الحديث ، والله أعلم .  
وقال غيره : الضرر والضرار مثل القتل والقتال ، فالضرر أن تضر بمن لا يضرك ، والضرار أن تضر بمن قد أضر بك من غير جهة الاعتداء بالمثل ، والانتصار بالحق ، وهو نحو قوله ﷺ : أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك .

وهذا معناه عند أهل العلم : لا تخن من خانك بعد أن انتصرت منه في خيانتك له ، والنهي إنما وقع على الابتداء ، أو ما يكون في معنى الابتداء ، كأنه يقول : ليس لك أن تخونه ، وإن كان قد خانك ، كما من لم يكن له أن يخونك أولاً ، وأما من عاقب بمثل ما عوقب به ، وأخذ حقه فليس بخائن ، وإنما الخائن من أخذ ما ليس له أو أكثر مما له أ.هـ.

والضرر مرفوع ومدفوع عن المكلف مطلقاً ، سواء لحقه الضرر في الحكم الشرعي ، كتضرره من استخدام الماء لمرض ، أو تضرره من الوقوف في الصلاة لعجز أو مرض ، أو تضرره من الصوم لعجز أو مرض ، ونحو ذلك ، فقد رفعت الشريعة الحكم الشرعي عن العاجز إلى بدل ، أو إلى غير بدل ، كالفقير العاجز عن الحج .

وكذا لو لحق المكلف ضرر من الغير فقد أوجبت الشريعة رفعه عنه ، كما لو تضرر من فتح نافذة على بيته ، أو تضرر بأشجار جاره ، أو بماء تحت جداره ، ونحو ذلك .

وأما الضرر المحتمل عادةً فإنه يغتفر ، ومن ذلك ما يحصل من الأذية بالصوت لمن يشتغل في بيته للترميم مثلاً ، أو أصوات الأطفال ، ونحو ذلك .

قال شيخنا : متى ثبت الضرر وجب رفعه ، ومتى ثبت الإضرار وجب رفعه مع عقوبة قاصد الإضرار .

**تنبيه :** الضرر المرفوع هو الضرر الشرعي الذي يلحق المكلف من أداء العبادة على أصل التشريع ، وكذلك الضرر الواقع عليه بلا حق ، وأما الضرر الواقع عليه بحق فلا يُرفع ، كإقامة الحدود والتعزيرات على من يستحق ذلك .

### ما يستفاد من الحديث :

١ . سمو هذه الشريعة ، وحرصها على المكلفين .

٢ . تحريم الضرر بأنواعه .

٣ . كل ما فيه ضرر فهو محرم شرعاً .

## الحديث الثالث والثلاثون

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : لو يُعطى الناس بدعواهم لادّعى رجال أموال قوم ودماءهم ، لكن البينة على المدّعي ، واليمين على من أنكر .  
حديث حسن ، رواه البيهقي وغيره هكذا ، وبعضه في الصحيحين .

**تخریجه :** أخرجه بهذا اللفظ البيهقي ، وحسنه النووي هنا وقال : وبعضه في الصحيحين .  
جاء عند مسلم : لو يعطى الناس بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم ، ولكن اليمين على المدّعي عليه .  
وعند البخاري : لو يعطى الناس بدعواهم لذهب دماء قوم وأموالهم .  
**مكانته :** قال ابن دقيق العيد : وهذا الحديث أصل من أصول الأحكام ، وأعظم مرجع عند التنازع والخصام .  
وقال شيخنا ابن عثيمين : هذا الحديث أصل عظيم في القضاء ، وهو قاعدة عظيمة في القضاء ينتفع بها القاضي ، وينتفع بها المصلح بين اثنين وما إلى ذلك .  
**موضوعه :** بيان ما تُحسم به المنازعات .  
**شرحه :**

في هذا الحديث بيان لعظمة هذه الشريعة وأحكامها ، وحفظها لحقوق الناس ومعاشهم ، وذلك أنه لو أراد أحد أن يدعي على أحد بأنه أخذ ماله ، أو قتل قريبه ، ونحو ذلك ، فإنه لا تقبل دعواه بهذه الدعوى فحسب ، بل لابد من بينة تثبت ذلك ، ولو لم يكن ذلك لأصبح الناس فوضى كل يدعي على غيره ، وتضيع الحقوق .  
والبينة إما أن تكون بالشهود ، وإما أن تكون بالقرائن ، كما في قصة المرأتين مع داود في الصحيحين حيث أكل الذئب ابن إحداهما فتخاصمتا إلى داود فقضى به للكبرى ، فلما خرجتا لقيهما سليمان فأخبرته ، فأمر بالسكين وقال : سأشقه نصفين ، لكل واحدة منكما النصف ، فوافقت الكبرى ، وأما الصغرى فقالت : لا هو ابنها ، فقضى به سليمان للصغرى ، لأن قرينة الشفقة والرحمة عند الصغرى تدل أنه ابنها .  
وكما في قصة يوسف من قول الشاهد ( إن كان قميصه قد من دبر فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من قبل فكذبت وهو من الصادقين ) .

وعليه فيكون معنى البينة واسع ، وهو كل ما يبين الحق ويظهره ، سواء كان من الشهود ، أو القرائن ، أو الإقرار ، أو فهم القاضي واختباره الخصمين ، ونحو ذلك مما يستجد في كل زمن وعصر .

## وخلاصة الحديث :

أن المدّعي لا تقبل دعواه إلا أن يأتي ببينة على ما ادّعه .  
وأن المدّعي عليه إذا أنكر ذلك فإنه لا يقبل منه حتى يحلف على ذلك .  
قال ابن المنذر : أجمع العلماء على أن البينة على المدّعي ، واليمين على المدّعي عليه .

واختلف العلماء في ضابط المدعي ، والمدعى عليه ، والأقرب - والله أعلم - أن المدعي هو المطالب الذي يزعم الحق ، وهو من إذا سكت ترك ولم يطالب بشيء ، والمدعى عليه هو المطالب ، وهو المنكر ، وهو من إذا سكت لم يُترك .

**وعلى القاضي أن يتبع الخطوات التالية عند الخصام :**

يسأل المدعي عليه عن الدعوى ، فإن اعترف بذلك قضى عليه بما عليه من الحق .  
فإن لم يعترف سأل المدعي البينة ، فإن كان له بينة قضى بها على المدعى عليه ، إلا أن تكون للمدعى عليه بينة أقوى يدفع بها بينة المدعي .

فإن لم تكن عند المدعي بينة ، فإنه يطلب من المدعى عليه اليمين ، فإن حلف برئ بذلك قضاءً لا ديانة .

قال عليه السلام للمدعي : ألك بينة ؟ قال : لا . قال : فلك يمين . رواه مسلم

قال ابن تيمية : إذا أقام المدعي حجة شرعية وإلا فالقول قول المدعى عليه مع يمينه .

وإن لم يحلف المدعى عليه اعتبر ذلك نكولاً منه ، وقضى عليه .

وقيل : لا بد أن يحلف المدعي بعد نكول المدعى عليه<sup>(١)</sup> ، فإن نكل صرفهما القاضي .

**تنبيه :** إذا حلف المدعى عليه وخلق القاضي سبيله ، ثم أحضر المدعي بينة ، فإن القاضي يحكم بالبينة ، لأن يمين المنكر تنزيل الخصومة ولا تنزيل الحق .

(١) لو نكل المدعى عليه وأبى أن يحلف فاختلف العلماء هل يحكم للمدعي بنكول النكول ، كما هو مذهب أبي حنيفة ، وأحمد ، أو لا بد من تحليف المدعي ، كما هو مذهب مالك ، والشافعي .

استدل الأحناف ، والحنابلة بقوله عليه السلام ( ولكن اليمين على المدعى عليه ) وقوله عليه السلام ( البينة على المدعي واليمين على من أنكر ) وقوله عليه السلام للمدعي ( شاهدك أو يمينه ) فهذه النصوص صريحة بأن اليمين توجه إلى المدعى عليه ، لا إلى المدعي .

واستدل المالكية ، والشافعية بعدة أدلة منها أن النكول حجة ضعيفة فلا يقوى على الاستقلال بالحكم فلا بد أن يقوى بيمين المدعي .

وذهب ابن تيمية وابن القيم إلى التفصيل فقالوا : يقضى بالنكول إذا كان المدعى عليه هو المتفرد بمعرفة المدعى به ، ويقضى برد اليمين إذا كان المدعي هو المتفرد بمعرفة المدعى به .

وما استدلو به أن الأصل أن تكون اليمين في جانب أقوى المتداعيين ، والمستقل بمعرفة المدعى به يقوى جانبه فتتوجه إليه اليمين ، وبأنه قد ورد عن الصحابة القضاء بالنكول ، وورد عنهم القضاء برد اليمين ، والجمع يكون بالتفصيل السابق .

قال ابن تيمية : ليس المنقول عن الصحابة في النكول ، ورد اليمين بمختلف ، بل هذا له موضع وهذا له موضع ، فكل موضع أمكن المدعي معرفته والعلم به فرد المدعى عليه اليمين فإنه إن حلف استحق ، وإن لم يحلف لم يحكم له بشكوى المدعى عليه .

قال ابن القيم : وهذا الذي اختاره شيخنا هو فصل النزاع في الشكوى ورد اليمين .

وقال ابن تيمية : والمنقول عن الصحابة رضي الله عنهم يدل على التفصيل وهو أظهر الأقوال ، وهو أنه إن كان المنكر - المدعى عليه - هو العالم دون المدعي ، كما إذا ظهر في المبيع عيب وقد بيع بالبراءة ، فقال المشتري : أنا لم أعلم به فإنه هنا يقال له : احلف أنك بعته وما به عيب ، فإن حلف وإلا قضى عليه بالنكول ، كما قضى عثمان على ابن عمر بالنكول ، وإن كان المدعي يقول إنه يعلم ما ادعى به ، كمن ادعى على آخر ديناً أو عيباً ، فقال المدعى عليه : أنا لا أعلم ما ادعيتك احلف وخذ ، فإنه يقال له كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنصفك خصمك احلف وخذ ، فإن لم يحلف لم يعط شيئاً .

وقال ابن القيم : ولما كانت أفهام الصحابة رضي الله عنهم فوق أفهام جميع الأمة ، وعلمهم بمقاصد نبهم وقواعد دينه وشرعه أتم من علم كل من جاء بعدهم .... حكموا بالرد مع النكول في موضع ، وبالنكول وحده في موضع ، وهذا من كمال علمهم بالجامع والفارق والحكم والمناسبات .

وقال ابن القيم : الشارع شرع اليمين مع الشاهد الواحد ، ونكول المدعى عليه أضعف من شاهد المدعي فهو أولى أن يقدم بيمين الطالب ، فإن النكول ليس بينة من المدعى عليه ولا إقراراً ، وهو حجة ضعيفة ، فلم يقوَ على الاستقلال بالحكم ، فإذا حلف معها المدعي قوي جانبه ، فاجتمع النكول من المدعى عليه واليمين من المدعي فقاما مقام الشاهدين أو الشاهد واليمين . وقال أيضاً : الصحيح أن النكول يقوم مقام الشاهد والبينة ، لا مقام الإقرار .



## ما يستفاد من الحديث :

١. أن الدعاوى لا تقبل إلا بدليل .
٢. جاءت الشريعة بالتوثيق ، كالكتابة ، والإشهاد .
٣. الحديث دليل على قاعدة : الأصل براءة الذمة .
٤. أن القاضي لا يحكم بعلمه ، بل ببينة المدعي ، فلو فرض أن القاضي يعلم صدق المدعي ، وليس للمدعي بينة فإنه لا يجوز له الحكم له ، ولكن له أن يحيل القضية إلى غيره من القضاة ، ويكون هو الشاهد للمدعي .

## الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان . رواه مسلم

تخرجه : رواه مسلم .

وأوله : أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان ، فقام إليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة . فقال : قد ترك ما هنالك . فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى ما عليه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان .

موضوعه : وجوب إنكار المنكر ، وبيان درجات الإنكار .

شرحه :

قوله ( من رأى منكم منكراً ) .

قصر بعض العلماء الرؤية هنا على الرؤية العينية ، والأقرب ما اختاره شيخنا ابن عثيمين أنها تشمل العينية والعلمية بشرط التأكد من ذلك .

قوله ( فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ) .

في هذه الجملة يبين النبي ﷺ أن المنكر لا بد أن يغير بحسب القدرة ، وأولى المراتب أن يغير المنكر باليد ويزال عن الأعين والأسماع ، فإن استطيع على هذه المرتبة دون وجود منكر أعظم وجب إزالته كذلك ، فإن لم يمكن ذلك انتقل إلى المرتبة الثانية ، وهي التغيير باللسان ، والمراسلة ، والنصح ، وهذه المرتبة واجبة عند عدم القدرة على المرتبة الأولى ، ولا يعذر الشخص بترك هذه المرتبة مع القدرة والاكتفاء بالإنكار بالقلب ، فإن لم يقدر على الإنكار باللسان والنصح ، أو خشي أن يترتب على ذلك منكر أعظم ، فإنه ينكر المنكر بقلبه ويغضه ، ويشترط لذلك أن لا يخالط المنكر ، ولا يجلس في مكانه ، إلا لعذر ، قال تعالى ( وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ) وقال تعالى ( وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ) .

قال ابن تيمية : فأما القلب فيجب بكل حال ، إذ لا ضرر في فعله ، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن ، كما قال النبي ﷺ : وذلك أدنى أو أضعف الإيمان . وقال : ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل . وقيل لابن مسعود رضي الله عنه : من ميت الأحياء ؟ فقال : الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً أ.هـ

وجاء عند مسلم من حديث ابن مسعود أن الرسول ﷺ قال : ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل .

**مسألة :** الأصل أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات ، ولكنه قد يتعين في أحوال معلومة ، كما قال النووي في شرح مسلم : ثم إنه قد يتعين كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو ، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو ، وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير في معروف أ.هـ

**مسألة :** شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

١ . التأكد من حكم الشرع في المسألة المراد إنكارها .

لأنه قد ينكر مسألة بناء على ما يراه هو صواباً ، وقد يكون قولاً مرجوحاً .

ولا يعني هذا عدم الإنكار في كل مسألة من مسائل الخلاف ، لكن لا بد من معرفة قوة الخلاف في المسألة والتعامل معه بحسبه .  
٢ . ألا يترتب على إنكار المنكر ما هو أشد منه .

يقول ابن تيمية : لا يجوز إنكار المنكر بما هو أنكر منه ، ولهذا حرم الخروج على ولاية الأمر بالسيف لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وإذا كان قوم على بدعة أو فجور ولو نھوا عن ذلك وقع بسبب ذلك شر أعظم مما هم عليه من ذلك ولم يمكن منعهم منه ، ولم يحصل بالنهي مصلحة راجحة لم ينھوا عنه .

ويقول ابن القيم : النبي ﷺ شرع لأئمة إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله ، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره ، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله ، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم فإنه أساس كل شر وقتنة إلى آخر الدهر .

وقال : فإنكار المنكر أربع درجات ، الأولى : أن يزول ويخلفه ضده ، الثانية : أن يقل وإن لم يزل بجملته ، الثالثة : أن يخلفه ما هو مثله ، الرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه ، فالدرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة .  
فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله ، كرمي الشباب وسباق الخيل ونحو ذلك ، وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على هوى ولعب أو سماع مكاء وتصدية ، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد ، وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك ، فكان ما هم فيه شاغلاً لهم عن ذلك ، وكما إذا كان الرجل مشغلاً بكتب المجون ونحوها وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر فدعه وكتبه الأولى ، وهذا باب واسع ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول : مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار يقوم منهم يشربون الخمر ، فأنكر عليهم من كان معي ، فأنكرت عليه وقلت له : إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء يصدhem الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم .  
٣ . أن يتحلى من يتصدر لهذا الأمر بالعلم والحلم وحسن الخلق .

يقول سفيان الثوري رحمه الله : لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال : رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى ، عدل بما يأمر عدل بما ينهى ، عالم بما يأمر عالم بما ينهى .

ويقول ابن تيمية : فلا بد من هذه الثلاثة : العلم ، والرفق ، والصبر ، العلم قبل الأمر والنهي ، والرفق معه ، والصبر بعده ، وإن كان كل من الثلاثة لا بد أن يكون مستصحباً في هذه الأحوال أ.هـ

ويستحب في الأمر امتثال الأمر ، وفي الناهي اجتناب الناهي ، لقوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ) ولكن لا يشترط ذلك كما قال النووي : قال العلماء ولا يشترط في الأمر والناهي أن يكون كامل

الحال ممثلاً ما يأمر به ، مجتنباً ما نهي عنه ، بل عليه الأمر وإن كان مخالفاً بما يأمر به ، والنهي وإن كان متلبساً بما ينهي عنه ، فإنه يجب عليه شيئين : أن يأمر نفسه وينهاها ، ويأمر غيره وينهاها ، فإذا أخل بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر أهـ .

### بعض الأقوال المأثورة عن السلف في شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال أبو الدرداء : لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجلب كبيركم ، ولا يرحم صغيركم .  
وقال شجاع بن الوليد : كنت أحج مع سفيان ، فما يكاد لسانه يفتقر من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ذاهباً ، وراجعاً .  
وقال العمري الزاهد : إن من غفلتك عن نفسك وإعراضك عن الله أن تري ما يسخط الله فتتجاوزه ، ولا تأمر فيه ولا تنهي عنه خوفاً ممن لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً .

وقال : من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعت منه الطاعة ، ولو أمر ولده ، أو بعض مواليه لاستخف بحقه .

وقال الثوري : إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن ، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافقين .  
وقال سفيان : إني لأرى المنكر فلا أتكلم فأبول دماً .

### ما يستفاد من الحديث :

- ١ . وجوب تغيير المنكرات بالطرق الشرعية .
- ٢ . إنكار المنكر واجب على الجميع ، وليس مختصاً بفئة معينة .
- ٣ . خطورة عدم إنكار المنكرات بالقلب ، لقوله ﷺ : وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل . رواه مسلم فكيف بمن دعا إلى المنكرات ، أو ألزم بها .
- ٤ . زيادة الإيمان ونقصانه .

## الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه ، ولا يحقره ، التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه . رواه مسلم

تخریجه : رواه مسلم بدون لفظ ( ولا يكذبه ) .

وفي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تناجشوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

وفيه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام .

موضوعه : ذكر بعض حقوق الأخوة ولوازمها .

شرحه :

قوله ( لا تحاسدوا ) ذكر العلماء أن الحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير .

ويرى ابن تيمية أن مجرد كراهية النعمة على الغير حسد ، ولو لم يتمن زوالها .

والحسد صفة ذميمة ، ذكرها الله عز وجل في كتابه عن اليهود بقوله ( حسداً من عند أنفسهم ) وقوله ( أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ) .

والحسد محرم ، وعواقبه على الحاسد وخيمة ، فأكبر من يتضرر بالحسد هو الحاسد .

والحسد من أقدم الذنوب والآفات ، فإبليس حسد آدم ، وقال ( أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ) .

وأول جريمة قتل كانت بسبب الحسد ، من قتل قابيل لأخيه هابيل .

فأول ذنب عُصي الله به في السماء ، حسد إبليس لآدم ، وأول ذنب عُصي الله به في الأرض حسد قابيل لهابيل .

وقص الله علينا قصة أخوة يوسف عليه السلام ، وكيف كانت نتيجة حسدهم .

وأما إذا تمنى الإنسان نعمة على أخيه أن يكون له مثلها ، فلا يخلو من حالين :

١. أن تكون من أمور الدين : كتمني حفظ القرآن ، أو الشهادة في سبيل الله ، أو علم نافع ، ونحو ذلك ، فهذه جائزة ، وقد جاء في الصحيحين : لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه أثناء الليل وأثناء النهار ، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به أثناء الليل وأثناء النهار .

٢. أن تكون من أمور الدنيا : وهذه لا خير فيها كما قال الذين يريدون الحياة الدنيا ( يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ) أفاده ابن رجب .

**قوله ( ولا تناجشوا )** النجش بسكون الجيم وفتحها هو الزيادة في السلعة بدون قصد الشراء ، إما لنفع البائع أو الإضرار بالمشتري . قال ابن رجب : ويحتمل أن يفسر النجش المنهي عنه في هذا الحديث بما هو أعم من ذلك ، فإن أصل النجش في اللغة : إثارة الشيء بالمكر والحيلة والمخادعة ، ومنه سمي الناجش في البيع ناجشاً ، ويسمى الصائد في اللغة ناجشاً ، لأنه يثير الصيد بحيلته عليه وخداعه له ، وحينئذ فيكون المعنى : لا تتخادعوا ، ولا يعامل بعضكم بعضاً بالمكر والاحتيال....

قال ابن عبد البر : أجمعوا أن فاعله عاصٍ لله عز وجل إذا كان بالمنهي علماً .

**قوله ( ولا تباغضوا )** المعنى : لا يبغض بعضكم بعضاً ، بل كونوا إخوة متحابين في الله ، وقد جاء عند مسلم مرفوعاً : والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم . ولذا جاء الإسلام بكل ما يجلب المحبة ، كالسلام ، والهدية ، والتبسم ، والقول الحسن ، وغير ذلك . وحذر من كل ما يجلب البغضاء ويفسد المحبة ، كالغيبة ، والنميمة ، والغش ، والسرقة ، والقتل ، وغير ذلك . وقد امتن الله على عباده بأن ألف بين قلوبهم ، قال تعالى ( واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ) .

وأما البغض في الله لأهل المعاصي والمجون فهو مشروع ، ومن أوثق عرى الإيمان ودلائله ، ويكون ذلك بقدر ما هم عليه من المعصية ، ويكون الولاء بقدر ما معهم من الإسلام .

**قوله ( ولا تدابروا )** قال أبو عبيد : التدابر المعارضة والهجران ، مأخوذ من أن يولي الرجل صاحبه دبره ويعرض عنه بوجهه وهو التقاطع .

وهجر المسلم لأخيه المسلم نوعان :

١ . هجر من أجل الدنيا : وهذا لا يجوز أن يزيد على ثلاثة أيام ، لما جاء في الصحيحين من حديث أبي أيوب عن النبي ﷺ قال : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام . وعند أبي داود مرفوعاً : من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه .

٢ . هجر من أجل الدين : وهنا تجوز الزيادة على الثلاث ، كما نص على ذلك الإمام أحمد ، واستدل لذلك بقصة الثلاثة الذين خلفوا ، وذكر الخطابي أن هجران الوالد لولده ، والزواج لزوجته ، وما كان في معنى ذلك تأديباً تجوز الزيادة فيه على الثلاث ، لأن النبي ﷺ هجر نساءه شهراً . أفاده ابن رجب . وهو كالدواء لا يُستعمل إلا إذا رجيت الفائدة منه .

واختلفوا هل ينقطع الهجر بالسلام والمصافحة ، أم لا بد من العود إلى المودة قبل الهجر على قولين .

**قوله ( ولا يبيع بعضكم على بيع بعض )** وقد كثرت النصوص في النهي عن ذلك ، إلا أن يترك أو يأذن ، ففي الصحيحين : لا يبيع الرجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه إلا أن يأذن له . واللفظ لمسلم .

ولمسلم من حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال : المؤمن أخو المؤمن ، فلا يحل لمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر .

والصحيح الذي عليه الجمهور أن النهي للتحريم ، كما أن الصحيح أن ذلك عام ، سواء كان في زمن الخيار أم بعده ، كما اختاره ابن رجب ، وشيخنا ابن عثيمين .

قوله ( وكونوا عباد الله إخواناً ) قال ابن رجب : هذا ذكره النبي ﷺ كالتعليل لما تقدم ، وفيه إشارة إلى أنهم إذا تركوا التحاسد ، والتناجش ، والتباغض ، والتدابير ، وبيع بعضهم على بيع بعض ، كانوا إخواناً ، وفيه أمر باكتساب ما يصير المسلمون به إخواناً على الإطلاق ، وذلك يدخل فيه أداء حقوق المسلم على المسلم ، من رد السلام ، وتشميت العاطس ، وعيادة المريض ، وتشجيع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، والابتداء بالسلام عند اللقاء ، والنصح بالغيب أ.هـ .

قوله ( المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه ، ولا يحقره ) .

بعد أن بين النبي ﷺ أن المؤمنين أخوة في الدين وحث على تحقيق هذه الأخوة ، ذكر هنا ما يضاد ويخالف هذه الأخوة ، فذكر أربعة أمور :

١ . أن المسلم لا يظلم أخاه المسلم ، وهذا يشمل جميع أنواع الظلم في القول والفعل ، على نفسه ، أو أهله ، أو ماله .

٢ . أن المسلم لا يخذل أخاه المسلم ، قال ﷺ : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقال رجل : يا رسول الله : أنصره إذا كان مظلوماً ، أفأرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : تحجزه ، أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره . رواه البخاري

وقال ﷺ : ما من امرئ مسلم يخذل امرأ مسلماً في موطن تنتهك فيه حرمة ، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرئ ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله في موضع يحب فيه نصرته . رواه أحمد

وعند أحمد من حديث أمامه بن سهل عن أبيه عن النبي ﷺ قال : من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره ، أذله الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة .

٣ . أن المسلم لا يكذب أخاه المسلم ، سواء كان ذلك كذب بالقول كإخباره بخلاف الواقع ، أو كذب بالحال والفعل بحيث يغشه أو يخدعه ونحو ذلك .

وقيل : المعنى أنه لا يكذبه إذا حدثه بشيء ، فلا يقول له : يا كاذب .

والحديث يشمل المعنيين .

وسبق أن هذه اللفظة غير ثابتة في هذا الحديث .

٤ . أن المسلم لا يحقر أخاه المسلم ، سواء كان ذلك في نفسه بأن يرى نفسه أرفع منه ، أو كان بإظهار ذلك له بالقول أو الفعل ، لأن هذا العمل من الكبر ، كما قال ﷺ : الكبر : بطر الحق ، وغمط الناس . رواه مسلم

قوله ( التقوى هاهنا ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات ) .

بعد أن بين النبي ﷺ أنه لا يجوز احتقار الناس ذكر سبب ذلك ، وهو أن تفاضل الناس عند الله إنما يكون بالتقوى ، وبين أن التقوى من أعمال القلوب التي لا يطلع عليها أحد إلا الله عز وجل .

قال تعالى ( إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) وقد سئل النبي ﷺ : من أكرم الناس ؟ قال : أتقاهم لله عز وجل . متفق عليه

وقال ﷺ : إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، وأعمالكم . رواه مسلم

ولذا قال ﷺ بعدها ( بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ) والمعنى : يكفيه من الشر احتقار أخيه المسلم ، فإنه إنما يحقر أخاه المسلم لتكبره عليه ، والكبر من أعظم خصال الشر ، وقد جاء عند مسلم عن النبي ﷺ قال : لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر .

قوله (كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه ) .

المعنى أن الله حرم دم المسلم ، وماله ، وعرضه أن تنال إلا بحق ، ومن عظم هذا الأمر كان ﷺ يكرر هذه الوصية في المجمع العامة ، كيوم عرفة وغيره ، ويقول : إن دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . متفق عليه ، ومن الأدلة على أهمية هذا الأمر أن الشريعة حفظت هذه الحقوق بوضع التشريعات التي تحفظ هذه الحقوق من الحدود ، والعقوبات .

### ما يستفاد من الحديث :

- ١ . التحذير من الحسد ، وقد جاء عند أبي داود عن أبي هريرة أن رسول ﷺ قال : إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، أو قال العشب . ضعفه الألباني
- ٢ . التحذير من النجش .
- ٣ . الدعوة إلى الأخوة والمحبة بين المسلمين ، والبعد عن الأسباب الموجبة للبغضاء ، وإذا وقعت البغضاء وجب رفعها .
- ٤ . البعد عن كل ما يخالف الأخوة ، من الكذب ، والظلم ، والخذلان ، والاحتقار .
- ٥ . تفاضل الناس عند الله بالتقوى .
- ٦ . تعظيم المسلم ، وتحريم ماله ، ودمه ، وعرضه .



## الحديث السادس والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه . رواه مسلم بهذا اللفظ .

تخرجه : رواه مسلم .

مكانته : قال النووي : وهو حديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والأدب .

شرحه :

قوله ( من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ) .

من أعظم المعاني التي جاءت بها هذه الشريعة ، معنى الأخوة وحقوقها ، ورحمة المسلم لأخيه المسلم ومحبته له ، وقد رتبت الشريعة لتحقيق ذلك أعظم الأجور ، بل كانت أعلى درجات الجنان تنال بحسن الخلق ، وفي هذا الحديث يرسخ النبي ﷺ هذا المعنى ، ويخبر أن من نفس عن أخيه المسلم كربة من كربات الدنيا أي كان نوعها في مال ، أو ولد ، أو مرض ، وسواء نفسها بالكلية ، أو خفف وطئتها عليه ، فإن جزاءه أن ينفس الله عنه من كرب يوم القيامة ، ذلك اليوم الذي يكون فيه الإنسان أحوج إلى التنفيس لما يحصل في ذلك اليوم من الكرب والأهوال العظيمة ، نسأل الله السلامة والعافية .

قوله ( ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ) .

المعسر هو من أثقلته الديون ، وليس عنده ما يسدد به .

والتيسير عليه يكون بإمهاله كما قال تعالى ( وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ) .

ويكون التيسير أيضاً بإسقاط دينه ، وهذا من أعظم التيسير ، ويكون أيضاً بتخفيفه .

وإن كان الدين لغيره فالتيسير عليه يكون بالتوسط له عند الدائن بإسقاطه ، أو تخفيفه ، أو إمهاله ، ويكون أيضاً بدفعه عنه . فمن فعل ذلك فإن الله ييسر عليه في الدنيا والآخرة .

وسبق في شرح الحديث الأول أن الإنسان له أن يقصد الأجر الدنيوي تبعاً إذا رتب الشرع عليه الفضل والأجر .

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسراً قال لصبيانه : تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا ، فتجاوز الله عنه .

وفي لفظ لمسلم عن أبي مسعود : فقال الله : نحن أحق بذلك منه ، فتجاوز عنه .

وعند مسلم من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ قال : من سره أن ينجي الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه .

ولمسلم أيضاً من حديث أبي اليسر أن النبي ﷺ قال : من أنظر معسراً ، أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

قوله ( ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ) .

من محاسن هذه الشريعة أنها جاءت بإخماد الفواحش ، ونهت عن إشاعتها ، قال تعالى ( إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ) قال العلماء : مجرد محبة انتشار الفاحشة يوجب العذاب الأليم وإن لم تُفعل .  
ولذا قال ﷺ : كل أمي معافي إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه ، فيقول : يا فلان ، عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه . متفق عليه  
وذلك أن الشيء إذا انتشر ألفتته النفوس ولم تنكره حتى يصبح كالمعروف ، وما نراه اليوم في العالم الإسلامي دليل على ذلك .  
ومن هذا الباب أمرت الشريعة بالستر على المسلم ، وعدم إظهار معاييه ، وأوجبت نصحه في السر ، قال ﷺ : يا معشر من آمن بقلبه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته . رواه أحمد ، وأبو داود .  
وليُعلم أن هذا الأمر هو الأصل ، وأنه يجب ستر المعاييب وعدم إظهارها إلا لحاجة لا بد منها في نطاق ضيق ، كالمشاورة في أمره ، ونحو ذلك .  
ولذا قال بعض الوزراء الصالحين لبعض من يأمر بالمعروف : اجتهد أن تستر العصاة ، فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام.  
قوله ( والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ) .

في هذه الجملة حث على التعاون في أمور الخير ، كما قال تعالى ( وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان )  
فالإنسان إذا كان يقوم على حوائج إخوانه فإن الله يعينه في حوائجه ، والعبد لا ينفك في حوائجه لعون الله تعالى ، وقد قيل :  
إذا لم يكن عون من الله للفتى  
فأول ما يبني عليه إجهاده

وكان أبو وائل يطوف على نساء الحي وعجائزهن كل يوم فيشتري لهن حوائجهن وما يصلحهن .  
وقال مجاهد : صحبت ابن عمر في السفر لأخدمه فكان يخدمني .  
وكان كثير من الصالحين يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم .  
قوله ( ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ) .

جاءت الشريعة بالحث على العلم والتعلم ، والثناء على ذلك في نصوص كثيرة ، وكل علم ورد في النصوص في سياق المدح والثناء والترغيب فالمراد به العلم الشرعي ، وأما العلوم الأخرى فلا يؤجر عليها إلا بنية صالحة في إرادة الخير ، لأن العلم الشرعي من المقاصد ، والعلوم الأخرى من الوسائل .

قال ابن رجب : وسلوك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي ، وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء ، ويدخل فيه سلوك الطرق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم ، مثل حفظه ، ودراسته ، ومذاكرته ، ومطالعة ، وكتابته ، والتفهم له ، ونحو ذلك من الطرق المعنوية التي يتوصل بها إلى العلم .

وقوله ( سهل الله به طريقاً إلى الجنة ) .

يشمل عدة معان منها :

١ . أن الله يسهل له هذا العلم الذي طلبه وسلك طريقه وييسره عليه ، لأن العلم طريق موصل إلى الجنة ، ولذا قال بعض السلف : هل من طالب علم فيعان عليه .

٢ . أن الله ييسر لطالب العلم - إذا قصد بطلبه وجه الله - الانتفاع به ، والعمل بمقتضاه ، فيكون سبباً لهدايته ولدخول الجنة بذلك .

٣ . أن الله يسهل له طريق الجنة الحسي يوم القيامة ، وهو الصراط وما قبله وما بعده من الأحوال ، فييسر ذلك على طالب العلم للانتفاع به . أفاده ابن رجب .

قوله ( وما جلس قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ) .

من المعاني المهجورة في هذه الأيام : الاجتماع على قراءة القرآن ، بحيث يقرأ أحدهم ويستمع الباقون استماع تدبر ، وقد طلب النبي ﷺ من ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن ، وكفى بذلك علماً وبركة .

قال شيخنا ابن عثيمين : وكان علمائنا ومشايخنا يفعلون هذا ، فيقرأ مثلاً الأول من البقرة ، ويقرأ الثامن الثاني ، ويقرأ الثالث الثامن الثالث ، وهلم جرا ، فيكون أحدهم قارئاً ، والآخرون مستمعين .

وعن يزيد الرقاشي عن أنس قال : كانوا إذا صلوا الغداة قعدوا حلقاً حلقاً ، يقرؤون القرآن ، ويتعلمون الفرائض والسنن ، ويذكرون الله .

ويدخل في ذلك أيضاً مدراسة كتاب الله من تفسير معانيه ، وبيان أحكامه لقوله : ويتدارسونه بينهم .

ومن ذلك أيضاً الاجتماع لتدارس العلم الشرعي ، فإن القوم إذا اجتمعوا على ذلك فقد نالوا فضائل عدة منها :

١ . نزول السكينة والطمأنينة والراحة على القلوب ، كما هو ملاحظ وملحوظ أن مجالس الخير فيها من الهدوء ، والسكينة ، والطمأنينة ما ليس في غيرها من مجالس اللهو واللغو .

٢ . غشيان الرحمة ، بحيث تغطيهم وتشملمهم رحمة الله عز وجل .

٣ . حفوف الملائكة لهم ، وإحاطتهم بهم ، في البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم . قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا .

٤ . ذكر الله لهم في الملأ الأعلى ، ومباهاته بهم عند الملائكة . كما قال تعالى ( فاذكروني أذكركم ) على أحد أوجه التفسير ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً : يقول تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم .

وذكر الله لعبده هو : ثناؤه عليه في الملأ الأعلى عند الملائكة .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال : ما أجلسكم؟ قالوا : جلسنا نذكر الله . قال : الله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال : أما إني لم أستحلفكم تهمه لكم ، وما كان أحد بمنزلي

من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً مني ، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومنّ به علينا . قال : الله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال : أما إني لم أستحلفكم تهمّة لكم ، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة .

قوله ( ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه ) .

أي من تأخر به عمله عن النجاة من العذاب ، أو السبق إلى الدرجات لم ينفعه شيء ، لا مال ، ولا نسب ، ولا غير ذلك ، قال تعالى ( يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ) فلا ينفع يومئذ إلا العمل الصالح ، قال تعالى ( ولكل درجات مما عملوا ) وقال ﷺ : إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم . رواه مسلم

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب

### ما يستفاد من الحديث :

١. الحث على التعاون بين المسلمين ، والسعي في حاجتهم .
٢. الحث على تنفيس كربة المسلم ، ومن ذلك ما يتعلق بكربة الدين .
٣. الحث على ستر المسلم ، وعدم التشهير به .
٤. الجزاء من جنس العمل ، وقد جاء في الحديث : أيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيما مؤمن سقى مؤمناً على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً على عري كساه الله من خضر الجنة . رواه الترمذي .
٥. الترغيب في طلب العلم .
٦. الترغيب في تدارس القرآن ، وهو أعظم العلم .
٧. التفاضل عند الله بالتقوى والعمل الصالح ، لا بالمال ، ولا بالنسب ، ولا بغير ذلك .

## الحديث السابع والثلاثون

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة . رواه البخاري ومسلم في صحيحهما بهذه الحروف .

تخریجه : متفق عليه ، واللفظ لمسلم باختلاف يسير عن رواية البخاري .

موضوعه : ذكر ثواب الحسنات والسيئات .

شرحه :

قوله ( إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ) .

اختلف العلماء في المراد بهذه الجملة ، ولعل الأقرب - والله أعلم - أن المراد أن الله كتب ثواب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك وفصله بما ذكره في هذا الحديث وغيره من كون الحسنة تكتب ولو بالنية الجازمة على فعلها ، وتضاعف إذا عملت من عشر حسنات إلى ما لا نهاية ، حسب اعتبارات معينة ، وأن السيئة لا تكتب إلا بالعمل ، أو بالنية الجازمة على الفعل ، وإذا كتبت لا تكتب إلا واحدة ، ولا تضاعف ، كما أن نية تركها لله يُكتب حسنة .

قوله ( فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة ) .

في هذا الكلام بيان لأمرين ، وهما :

## ١. عمل الحسنة أو السيئة :

والحكم فيه : من عمل الحسنة كُتبت له مضاعفة ، من عشر حسنات إلى أضعاف كثيرة بقدر ما يقوم بقلب العبد من الإخلاص والاستحضار ، وقد تضاعف باعتبارات معينة ، مثل : فضل الزمان ، قال تعالى ( ليلة القدر خير من ألف شهر ) أو فضل المكان ، مثل قوله ﷺ : صلاة في مسجدتي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام . متفق عليه ، أو الأشخاص ، كما قال تعالى في حق أزواج نبيه ﷺ ( ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ) وقال ﷺ في حق خاصة أصحابه : لو أنفق أحدكم ملء أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه . متفق عليه وعن أبي مسعود الأنصاري قال : جاء رجل بناقة مخطومة<sup>(١)</sup> فقال : هذه في سبيل الله . فقال رسول الله ﷺ : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة . رواه مسلم

ومن عمل السيئة كتبت عليه سيئة واحدة - إن لم يغفرها الله له - ولا تضاعف عليه من حيث العدد ، قال تعالى ( من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ) وقد تضاعف عليه من حيث الكيف ، لاعتبارات معينة ، مثل : انتهاك حرمة الزمان ، كرمضان ،

(١) أي : عليها خطام ، وهو الزمام .

أو المكان ، كالمسجد الحرام ، أو باعتبار الشخص ، كما قال تعالى ( يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ) .

**والخلاصة** أن الحسنة إذا عُمِلت أقل ما تُكتب عشر حسنات ، ولا حد لأكثر ذلك ، والسيئة إذا عُمِلت لا تكتب إلا واحدة ، كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها .

وفي حديث الباب في شأن الحسنة : وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

## ٢. اهتم بالحسنة أو السيئة :

وهذا على درجات ، وهي :

أ . الهاجس : وهو ما يلقي في نفس الإنسان .

ب . الخاطر : وهو الاستمرار في الهاجس .

ج . حديث النفس : وهو ما يقع في النفس من التردد بين الفعل والترك .

د . اهتم : وهو ترجيح قصد الفعل .

هـ . العزم : وهو قوة ذلك القصد والجزم به ، وقد يكون معه بذل الأسباب .

والثلاثة الأولى لا يتعلق بها أجر ولا وزر .

وأما اهتم فيؤجر عليه في باب الخير ، ويعفى عنه في باب الشر ، كما في هذا الحديث .

وأما العزم فالصحيح أنه يؤاخذ به العبد خيراً أو شراً .

كما جاء في الصحيحين قال ﷺ : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يا رسول الله : هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه .

قال ابن تيمية : إذا وجدت أداة جازمة وفعل ما يقدر عليه العبد ، فإنه مأزور ولو لم يقدر على الفعل .

وقال ابن حجر عن حديث ( إذا التقى المسلمان ... ) : والذي يظهر أنه من هذا الجنس ، وهو يعاقب على عزمه بمقدار ما يستحقه ، ولا يعاقب عقاب من باشر القتل حساً .

وكما عند الترمذي : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتقي ربه فيه ، ويصل به رحمه ، ويعلم الله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، يَحْبِطُ في ماله بغير علم ، لا يتقي ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم الله فيه حقاً ، فهو بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته فوزرهما سواء . رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح .

قال ابن رجب عن حديث الباب : وهذا يدل على أن المراد بالهم هنا هو العزم المصمم الذي يوجد معه الحرص على العمل لا مجرد الخطرة التي تخطر ثم تنفسخ من غير عزم ولا تصميم .

وقال عن حديث الترمذي السابق : وقد حمل قوله ( فهما في الأجر سواء ) على استوائهما في أصل أجر العمل دون مضاعفته ، فالمضاعفة يختص بها من عمل العمل دون من نواه فلم يعملها ، فإنهما لو استويا من كل وجه لكتب لمن هم بحسنة ولم يعملها

عشر حسنات ، وهو خلاف النصوص كلها ، ويدل على ذلك قوله تعالى ( فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ) .

**مسألة :** ترك المعصية له أحوال :

قال ابن كثير في تفسيره : واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام :

تارة يتركها لله عز وجل : فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى ، وهذا عمل ونية ، ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة ،

كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح : فإنما تركها من جرائي . أي : من أجلي .

وتارة يتركها نسياناً وذهولاً عنها : فهذا لا له ولا عليه ، لأنه لم ينو خيراً ولا فعل شراً .

وتارة يتركها عجزاً وكسلاً بعد السعي في أسبابها ، والتلبس بما يقرب منها : فهذا يتنزل منزلة فاعلها ، كما جاء في الحديث في

الصحيحين : إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يا رسول الله هذا القاتل ، فما بال المقتول؟ قال :

إنه كان حريصاً على قتل صاحبه أ.هـ

قال ابن بطال : في الحديث بيان فضل الله العظيم على هذه الأمة لأنه لولا ذلك كان لا يدخل أحد الجنة ، لأن عمل العباد

للسيئات أكثر من عملهم الحسنات .

وقال النووي بعد ذكر الحديث : فانظر يا أخي وفقنا الله وإياك إلى عظيم لطف الله تعالى ، وتأمل هذه الألفاظ ، وقوله ( عنده )

إشارة إلى الاعتناء بها ، وقوله ( كاملة ) للتأكيد وشدة الاعتناء بها ، وقال في السيئة التي هم بها ثم تركها ( كتبها الله عنده حسنة

كاملة ) فأكد أنها بكاملة ، وإن عملها كتبها سيئة واحدة ، فأكد تقليلها بواحدة ولم يؤكد أنها بكاملة ، فله الحمد والمنة ، سبحانه

لا نحصي ثناءً عليه ، وبالله التوفيق .

قال شيخنا تعليقاً على ذلك : هذا تعليق طيب من المؤلف رحمه الله .

### ما يستفاد من الحديث :

١ . سعة رحمة الله ، وعظيم كرمه ، حيث ضاعف الحسنات دون السيئات .

٢ . أعمال القلوب تكتبها الملائكة .

٣ . العناية بشأن النية .

## الحديث الثامن والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه . رواه البخاري

تخریجه : رواه البخاري ، لكن بلفظ ( وما يزال ) بدل ( ولا يزال ) ولفظ ( وإن سألني ) بدل ( ولئن سألني ) . وفي آخره : وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته . وهذا الحديث لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة إلا البخاري ، ولم يروه أحمد في المسند . قال ابن رجب : هذا الحديث تفرد بإخراجه البخاري دون بقية أصحاب الكتب . مكانته : قال ابن تيمية : وهو أشرف حديث روي في ذكر الأولياء . موضوعه : معية الله الخاصة لعبده المؤمن ، وكيف تنال ، وما هي ثمارها . شرحه :

قوله ( من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ) .

الولي يعرفه أهل السنة والجماعة بأنه : كل مؤمن تقي ليس بنبي . وهذا التعريف مأخوذ من قوله تعالى ( ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ) . فالولاية درجة تنال بالمواظبة على الأعمال الصالحة . قال ابن حجر : المراد بولي الله : العالم بالله ، المواظب على طاعته ، المخلص في عبادته . فمن عاد أولياء الله فقد أعلمه الله وتوعده بالحرب عليه ، وقد قال تعالى ( ويحذركم الله نفسه ) فقد يصيبه الله في نفسه ، أو عقله ، أو ماله ، أو ولده ، أو ، أو ملكه ، أو غير ذلك .

قال ابن رجب : واعلم أن جميع المعاصي محاربة لله عز وجل ، قال الحسن : ابن آدم هل لك بمحاربة الله من طاقه ؟ فإن من عصى الله فقد حاربه ، لكن كلما كان الذنب أقبح كان أشد محاربه لله .

قوله : ( وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ) .

المعنى أن تقرب العبد إلى الله بفرائض العبادات بأنواعها من صلاة ، وصيام ، وحج ، وزكاة ، أحب إلى الله من نوافل تلك العبادات .

قوله : ( ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ) .

بعد أن ذكر فضل الفرائض أردف ذلك بفضل النوافل ، وذلك أنها سبب من أسباب محبة الله للعبد ، وعليه يكون أداء الفرائض أيضاً من أسباب محبة الله للعبد ، لأنها أعظم منزلة من النوافل .

وفي قوله ( ولا يزال ) دليل على أن العبد كلما ازداد من النوافل كان ذلك من موجبات محبة الله له ، نسأل الله من فضله .



وإذا أحب الله العبد فقد نال خيرَي الدنيا والآخرة ، وفي الصحيحين قال ﷺ : إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل : إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، فينادي في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض .

قوله ( فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألتني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ) .

في هذه الجملة بيان لأثر محبة الله لعبده ، وأن الله إذا أحب عبده وفقه ، وسدده ، وعصمه ، واستجاب له دعائه ، وأمن خوفه . فيحفظ الله جوارحه من الوقوع في الحرام ، بل ويعينه فيها على مباشرة الطاعات .

ويحصل له مطلوبه ( ولئن سألتني لأعطينه ) ويزول عنه خوفه وما يرهبه ( ولئن استعاذني لأعيذنه ) .

قوله ( وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ) .

يقول ابن تيمية : ومن هذا الباب يظهر معنى التردد المذكور في هذا الحديث ، فإنه قال ( لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ) فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوباً للحق محباً له ، يتقرب إليه أولاً بالفرائض وهو يحبها ، ثم اجتهد في النوافل التي يحبها ويجب فاعلها ، فأتى بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق ، فأحبه الحق لفعل محبوبه من الجانبين بقصد اتفاق الإرادة بحيث يحب ما يحبه محبوبه ويكره ما يكرهه محبوبه ، والرب يكره أن يسوء عبده ومحبوبه فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه ، والله سبحانه وتعالى قد قضى بالموت ، فكل ما قضى به فهو يريده ولا بد منه ، فالرب يريد لموته لما سبق به قضاؤه ، وهو مع ذلك كاره لمساءة عبده ، وهي المساءة التي تحصل له بالموت ، فصار الموت مراداً للحق من وجه مكروهاً له من وجه ، وهذا حقيقة التردد ، وهو أن يكون الشيء الواحد مراداً من وجه مكروهاً من وجه ، وإن كان لا بد من ترجيح أحد الجانبين ، كما ترجح إرادة الموت ، لكن مع وجود كراهة مساءة عبده ، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته .

## ما يستفاد من الحديث :

- ١ . التحذير من معادات أو أذية أولياء الله الصالحين .
- ٢ . منزلة الفريضة أعلى من منزلة النافلة .
- ٣ . الحرص على النوافل من الأسباب الموجبة لمحبة الله للعبد .
- ٤ . إثبات صفة المحبة لله .
- ٥ . من ثمار محبة الله للعبد : عصمته ، وتسديده ، وإجابة دعواته .
- ٦ . جوارح العبد إذا واطبت على الخير ألفته ولم تستثقله ، وتصل إلى أن تأنس به ، وإذا واطبت على عمل الشر ألفته ولم تستنكره ، وتصل إلى أن تعتقد أنه الحق .
- أوصت امرأة أولادها فقالت لهم : تعودوا حب الله وطاعته ، فإن المتقين ألفوا الطاعة فاستوحشت جوارحهم من غيرها ، فإن عرض لهم الشيطان بمعصية مرت المعصية بهم محتشمة فهم لها منكرون .

### الحديث التاسع والثلاثون

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه .  
حديث حسن ، رواه ابن ماجة والبيهقي وغيرهما .

**تخریجه :** رواه ابن ماجة ، والبيهقي ، والطبراني ، وابن حبان ، وصححه الألباني في الإرواء .  
وقد رواه ابن ماجة عن أبي ذر الغفاري بلفظ : إن الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه .  
ورواه ابن حبان ، والبيهقي في السنن الصغير ، والطبراني في المعجم الصغير عن ابن عباس .  
**شرحه :**

في هذا الحديث بيان للأعذار التي يعذر بها الإنسان إذا خالف مراد الشارع ، وهذه الأعذار هي :

١. **الخطأ :** وهو أن يرتكب الإنسان العمل عن غير قصد .
  ٢. **النسيان :** وهو ذهول القلب عن شيء معلوم من قبل .
  ٣. **الإكراه :** وهو الإلزام بشيء لا يريده .
- وهذه الأعذار قد دل الدليل على اعتبارها في غير هذا الحديث ، كما في قوله تعالى ( ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ) وقوله تعالى ( إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ) .  
وهذه الأعذار لها جهتان :

١. **الحكم التكليفي :** وهو المتعلق بالحل والحرمة ، والثواب والعقاب .
- فإذا وجدت هذه الأعذار ارتفع الحكم التكليفي ، فلا يؤاخذ العبد بالتقصير ، سواء فيما يتعلق بحقوق الله ، أو حقوق العباد .
٢. **الحكم الوضعي :** وهو المتعلق بالقبول والرد ، والصحة والفساد .
- فإذا وجدت هذه الأعذار فالحكم يختلف ، فتارة يطالب العبد بالإعادة ، وتارة لا يطالب ، وتارة يصح العقد ، وتارة لا يصح ، على تفصيلات طويلة ، سبق الكلام عنها في شرح القواعد الفقهية<sup>(١)</sup> .

### ما يستفاد من الحديث :

١. سماحة هذا الدين .
٢. رحمة الله بهذه الأمة .

(١) فمثلاً النسيان إن كان في حقوق الله فله جهتان :

١. باب المأمورات : فلو نسي الصلاة ، فإنه لا يأثم ، لكن إذا تذكر يصلّيها ، كما قال ﷺ : من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها .  
وهذا إن أمكن تداركه ، فلو نسي الوضوء للجمعة أعادها ظهراً .
٢. باب المنهيات : لا يأثم ، ولا إعادته عليه . كما لو صلى وعليه نجاسة نسيها ، أو أكل وهو ناسي ، ونحو ذلك .  
وإن كان في حقوق الأدميين فله جهتان :
١. باب الإتلافات : يضمن ، كما لو أتلف سيارة فلان بسبب النسيان ، وكذا أرتش الجنائيات ، كما لو أتلف إصبع إنسان بسبب النسيان .
٢. باب المعاملات : كما لو عقد عقداً ، أو رهن وهو ناسي ، ففيها خلاف ، والصحيح أنه لا ينعقد .

## الحديث الأربعون

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك . رواه البخاري

تخریجه : رواه البخاري .

موضوعه : الزهد في الدنيا ، وعدم الركون إليها .

شرحه :

قوله ( أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي ) .

قال شيخنا : أي أمسك بكتفي من الأمام ، وذلك من أجل أن يستحضر ما يقوله النبي ﷺ .

بمنكبي : بفتح الميم وكسر الكاف ، وهو مجمع العضد والكتف . وروي بالإفراد والتثنية .

قوله ( كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ) .

هذه الوصية من أعظم الوصايا ، والتي لو تأملها العباد وأخذوا بها لصلحت أحوالهم في الدنيا والآخرة .

فالإنسان في هذه الدنيا غير مخلد ولو طال عمره ، وإنما هو في ممر إلى دار الخلود - الجنة أو النار - ولذا كان المنبغي عليه أن لا يشتغل بالعاجلة عن الآجلة ، ولا بالفانية عن الباقية ، فمن فعل ذلك فقد خسر نفسه .

وفي حديث ابن مسعود قال ﷺ : مالي وللدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب في ظل شجرة ثم راح وتركها . رواه أحمد ، والترمذي ، وقال حسن صحيح .

ولذا أرشد النبي ﷺ ابن عمر والأمة بعده إلى أن يعرفوا هذه الحقيقة ، ويعطوا الدنيا قدرها ، ولا يفتتنوا ببهرجها ، ولا يغتروا بزينتها ، بل أرشد ﷺ إلى أن الإنسان ينبغي أن يكون في الدنيا كالغريب الذي ينزل البلد ولا يستقر فيه ، أو كعابر السبيل الذي يمر به مروراً .

وذهب بعض العلماء إلى أن هذا التشبيه من النبي ﷺ مطابق لحقيقة الواقع ، إذ أن مقر الإنسان الجنة دار أبيهم آدم عليه السلام ، وإنما نزلوا منها ابتلاء منه سبحانه وحكمة ، ثم هم راجعون إليها بعد ذلك إن صلحت أحوالهم ، وأخذوا بهذه الوصية .

وفي هذا يقول ابن القيم :

فحي على جنات عدن فإنها منازلنا الأولى وفيها المخيم

ولكننا سي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

قوله ( وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك ) .

في هذا الكلام دليل على فقه ابن عمر وفضله ، حيث أنه أخذ بوصية رسول الله ﷺ وتمثل بها ونطق بموجبها ، فقال هذا الكلام الذي حقيقته وصية رسول الله ﷺ السابقة له بالزهد في الدنيا .

فيقول : تأهب للرحيل من الدنيا ، وانتظر فراقها بالموت الذي لا يمهل أحداً ، ولا يخبر بقدمه أحداً ، فكن مستعداً له بالعمل الصالح ، وترقبه دوماً صباحاً ومساءً ، فإذا أمسيت فقل : لعلي لا أدرك الصباح . وإذا أصبحت فقل : لعلي لا أدرك المساء . واجتهد في العمل الصالح والاستكثار منه وأنت في حال الحياة ، وحال الصحة ، وحال الفراغ ، وربما فاجأك الموت فقطعك عن العمل ، وربما فاجأك المرض فقطعك عن العمل ، وربما شغلت بدنياك فنسييت العمل .

قال جابر بن عبد الله : ما رأينا أحداً إلا قد مالت به الدنيا أو مال بها إلا عبد الله بن عمر .

وقالت عائشة : ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول من ابن عمر .

قال ابن القيم في طريق الهجرتين : فليس للعبد أنفع من قصر الأمل ، ولا أضر من التسويف وطول الأمل . وقال في مدارج السالكين : فأما قصر الأمل فهو العلم بقرب الرحيل ، وسرعة انقضاء مدة الحياة ، وهو من أنفع الأمور للقلب ، فإنه يبعثه على معاصرة الأيام ، وانهاز الفرص التي تمر مر السحاب ، ومبادرة طي صحائف الأعمال ، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء ، ويحثه على قضاء جهاز سفره ، وتدارك الفارط ، ويزهده في الدنيا ، ويرغبه في الآخرة ، فيقوم بقلبه إذا دام مطالعة قصر الأمل شاهد من شواهد اليقين ، يريد فناء الدنيا ، وسرعة انقضائها ، وقلة ما بقي منها ، وأنها قد ترحلت مدبرة ، ولم يبق منها إلا صباغة كصبابة الإناء يتصا بها صاحبها ، وإنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رءوس الجبال ، ويريه بقاء الآخرة ودوامها ، وأنها قد ترحلت مقبلة ، وقد جاء أشراطها وعلاماتها ، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه ، فكل منهما يسير إلى الآخر فيوشك أن يلتقيا سريعاً .

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى ( أفأريت إن متعنهم سنين \* ثم جاءهم ما كانوا يوعدون \* ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ) وقوله تعالى ( ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ) وقوله تعالى ( كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ) وقوله تعالى ( يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً \* نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً ) وخطب النبي ﷺ أصحابه يوماً والشمس على رءوس الجبال فقال : إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه . ومر رسول الله ﷺ ببعض أصحابه وهم يعالجون خصاً لهم قد وهى فهم يصلحونه ، فقال : ما هذا؟ قالوا : خص لنا قد وهى فنحن نعالجه . فقال : ما أرى الأمر إلا أعجل من هذا .

وقصر الأمل بناؤه على أمرين : تيقن زوال الدنيا ومفارقتها ، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها ، ثم يقايس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالإيثار أهـ

وسبق في شرح الحديث الحادي والثلاثون شيء من الكلام عن حقيقة الدنيا .

## بعض الآثار الواردة في ذكر الزهد في الدنيا ، والاستعداد للموت :

من وصايا المسيح عليه السلام لأصحابه أنه قال لهم : اعبروها ولا تعمروها .  
وروي عنه أنه قال : من ذا الذي يبني على موج البحر داراً ، تلکم الدنيا فلا تتخذوها قراراً .  
ودخل رجل عن أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته ، فقال : يا أبا ذر أين متاعكم ؟ قال : إن لنا بيتاً نوجه إليه ، قال : إنه لا بد لك من متاع ما دمت هاهنا ، قال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه .  
وقال يحيى بن معاذ الرازي : الدنيا خمر الشيطان من سكر منها لم يفق إلا في عسكر الموتى نادماً مع الخاسرين .  
وقيل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت ؟ قال : ما ظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة ؟  
وقال الحسن : إنما أنت أيام مجموعة ، كلما مضى يوم مضى بعضك .  
وقال الفضيل بن عياض لرجل : كم أتت عليك ؟ قال : ستون سنة . قال : فأنت منذ ستين سنة تسير إلى الله يوشك أن تبلغ .  
وفي هذا يقول بعضهم :

وإن امرأ قد سار ستين حجة إلى منهل من ورده لقريب

وقال بعض الحكماء : كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره ، وشهره يهدم سنته ، وسنته تهدم عمره ، وكيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله ، وتقوده حياته إلى موته .  
وأنشد بعض السلف :

إننا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى يدي من الأجل  
فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً فإنما الريح والخسران في العمل

وقال بعض السلف : ما نمت نومة قط فحدثت نفسي أنني استيقظ منها .  
وكان محمد بن واسع إذا أراد أن ينام قال لأهله : أستودعكم الله ، فلعلها أن تكون منيتي التي لا أقوم منها ، فكان هذا دأبه إذا أراد النوم .

وقال سعيد بن جبير : كل يوم يعيشه العبد غنيمة .  
وقال بكر المزني : ما من يوم أخرجه الله إلى الدنيا إلا يقول : ابن آدم اغتمني ، لعله لا يوم لك بعدي . ولا ليلة إلا تنادي : ابن آدم اغتمني ، لعله لا ليلة لك بعدي .  
وسئل الإمام أحمد : أي شيء الزهد في الدنيا ؟ قال : قصر الأمل ، من إذا أصبح يقول : لا أمسي . قيل له : بأي شيء نستعين على قصر الأمل ؟ قال : ما ندري ، إنما هو توفيق .

## ما يستفاد من الحديث :

- ١ . القرب من المتعلم ، وإشعاره بالعناية والمحبة .
- ٢ . تنويع الأمثال (كأنك غريب ، أو عابر سبيل) .
- ٣ . الزهد في الدنيا ، والإقبال على الآخرة .
- ٤ . فقه الصحابة ، وفضلهم .

## الحديث الحادي والأربعون

عن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به .

حديث حسن صحيح ، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح .

تخريجه : قال النووي : حديث حسن صحيح ، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح<sup>(١)</sup> .

وضعه ابن رجب وقال : تصحيح هذا الحديث بعيد جداً .

وضعه الألباني في المشكاة وقال : هذا وهم فالسند ضعيف .

قال شيخنا : لكن معنى الحديث - بقطع النظر عن إسناده - صحيح ، وأن الإنسان يجب أن يكون هواه تبعاً لما جاء به ﷺ .

شرحه :

الإنسان لا يكمل إيمانه حتى يكون هواه ورغبته وتقديمه لما جاء به النبي ﷺ فإذا تعارض ما يهواه مع ما جاء به النبي ﷺ فإنه يقدم ما جاء به النبي ﷺ وإن خالف ما يهواه ، قال تعالى ( فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك في ما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ) وقال تعالى ( وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ) وقال تعالى ( إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ) وهذه الآيات تقوي الحديث لأنها في معناه ، ومذهب جمع من أهل العلم تقوية الحديث إذا سندته النصوص الشرعية .

قال ابن رجب : فجميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله .... وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع ، ولهذا يسمى أهلها : أهل الأهواء .

والغالب أن كلمة الهوى في الكتاب والسنة تأتي على سبيل الذم ، وهو نبذ الوحي وإتباع ما تحواه النفس ، وهو ما يقابل الهدى ، وقد يأتي الهوى بمعنى المحبة ، كما في حديث الباب ، وكما في قول عائشة ؓ عند نزول قوله تعالى ( ترجي من تشاء منهن وتؤي اليك من تشاء ) قالت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك . متفق عليه

ومنه قول عمر بن الخطاب في قصة المشاورة في أسارى بدر : فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت . رواه مسلم

## ما يستفاد من الحديث :

١ . لا يتحقق الإيمان إلا بالرضى بما جاء به النبي ﷺ .

٢ . الحث على مجاهدة الهوى .

٣ . الشرع فوق العقل .

(١) قال ابن رجب : يريد بصاحب كتاب ( الحجة ) الشيخ أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي الفقيه الزاهد نزيل دمشق ، وكتابه هذا هو كتاب ( الحجة على تارك الحجة )

يتضمن ذكر أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة .

## الحديث الثاني والأربعون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي .  
يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك .  
يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة .  
رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

تخرجه : رواه الترمذي ، لكن بلفظ ( على ما كان فيك ) بدل ( منك ) وبزيادة ( ولا أبالي ) بعد قوله ( غفرت لك ) وقال الترمذي : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وصححه الألباني ، ورواه أحمد عن أبي ذر .  
وقال ابن رجب : إسناده لا بأس به  
موضوعه : سعة رحمة الله ، ومغفرته لعبده مهما عمل واقترب من الذنوب ، أو فرط في الطاعة وشكر النعم .  
شرحه :

في هذا الحديث بيان لثلاثة أسباب من أسباب مغفرة الذنوب ، وهي : الدعاء مع حسن الرجاء ، والاستغفار ، والتوحيد .  
قوله ( يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ) .  
العبد لا ينفك عن حاجته للمغفرة من ربه عز وجل ، إما لذنوب لازم ، أو ذنب عارض ، وإما لتقصير في حق الله من التقصير في الإتيان بالعبادة ، أو الإتيان بها على غير مراد الشارع ، من فقد روح العبادة فيها ، وإما لتقصير في شكر النعم التي تتوالى على العبد وتحيط به ، ولذا يطلب الله من عبده في هذا الحديث أن يدعو بمغفرة ذنبه ، وأن يرجوه في تحقق ذلك ، وأخبره أنه إن جمع بين الأمرين فإن المغفرة حاصلة لا محالة مهما كانت الذنوب عظيمة أو كثرة ، وفي هذا المعنى يقول تعالى ( قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ) .  
قوله ( يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ) .

المراد بقوله ( عنان السماء ) أعلى السماء ، وقيل : ما عَنَ لك حين تنظر إليها ، وقيل : المراد السحاب .  
وعلى كل حال فالقاعدة في ذلك : أن ما ورد في الكتاب والسنة على وجه التعظيم والمذكور لا يدل على الغاية ، ولكن يدل على المبالغة ، وما ورد على وجه التحقير فالمذكور لا يدل على الغاية ، ولكن يدل على المبالغة .  
ومن الأول هذا الحديث ، فيكون المعنى : لو قدرت ذنوبك أجساداً فبلغت عنان السماء وأعلى من ذلك ، ثم استغفرتني بصدق لغفرت لك .

ومن الثاني قوله تعالى ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) والمعنى : كل ما يعمل الإنسان محصى عليه مهما كان ، حتى لو كان مثل الذرة أو أقل ، كما قال تعالى ( وكل صغير وكبير مستطر ) .  
قال ابن رجب : والاستغفار طلب المغفرة ، والمغفرة هي : وقاية شر الذنوب مع سترها .

وكثيراً ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة ، فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان ، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلوب والجوارح .

ويشهد لهذا ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : إن عبداً أذنب ذنباً ، وقال ربي أذنبت ذنباً فاغفر لي ، قال الله تعالى : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر فذكر مثل الأول مرتين آخرين . وفي رواية لمسلم : أنه قال في الثالثة : قد غفرت لعبدي فليعمل ما يشاء . والمعنى : ما دام على هذه الحال كلما أذنب استغفر . والظاهر أن المراد الاستغفار المقرون بعدم الإصرار ، ولهذا في حديث أبي بكر الصديق عن النبي ﷺ قال : ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة . خرجه أبو داود ، والترمذي . وأما استغفار اللسان مع إصرار القلب على الذنب ، فهو دعاء مجرد إن شاء الله أجابه ، وإن شاء رده . فلاستغفار التام الموجب للمغفرة هو : ما قارن عدم الإصرار ، كما مدح الله أهله ووعدهم المغفرة ، وكان بعضهم يقول : استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار كثير ، وفي ذلك يقول بعضهم :

أستغفر الله من ( أستغفر الله ) من لفظة بدرت خالفت معناها  
وكيف أرجو إجابة لدعاء وقد سددت بالذنب عند الله مجراها

فأفضل الاستغفار ما اقترن به ترك الإصرار ، وهو حينئذ توبة نصوح ، وإن قال بلسانه ( استغفر الله ) وهو غير مقلع بقلبه ، فهو دعاء لله بالمغفرة ، كما يقول : اللهم اغفر لي ، وهو حسن وقد يرجى له الإجابة ، وأما من قال : توبة الكذابين ، فمراده أنه ليس بتوبة ، كما يعتقد بعض الناس ، وهذا حق فإن التوبة لا تكون مع الإصرار .

وأفضل أنواع الاستغفار : أن يبدأ العبد بالثناء على ربه ، ثم يشي بالاعتراف بذنبه ، ويسأل الله المغفرة . قوله ( يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة ) . وهذا المعنى كالأول ، وهو أن العبد لو لقي الله بعد الموت بذنوب ملء الأرض - حجماً أو ثقلاً - ثم لقيه وهو على التوحيد الخالص من الشرك بأنواعه ، للقيه الله بمغفرة لجميع ذنوبه ، وهذا من فضائل التوحيد وتكفيره السيئات . وينحو هذا الحديث ما جاء عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال : يقول الله تعالى : من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بقرابها مغفرة . ولذا قال بعضهم :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم  
إن كان لا يرجوك إلا محسناً فمن الذي يرجوا ويدعو المجرم  
مالي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم إني مسلم

قال شيخنا : ومن حسن تأليف المؤلف رحمه الله أنه جعل هذا الحديث آخر الأحاديث التي اختارها رحمه الله ، المختوم بالمغفرة ، وهذا يسمى عند البلاغيين : براعة اختتام .



**بعض الآثار الواردة في الاستغفار :**

جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة .  
وفي صحيح مسلم عن الأغر المزني ، عن النبي ﷺ قال : إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة .  
وفي سنن أبي داود عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب .

ويروى عن لقمان أنه قال لابنه : يا بني عود لسانك : اللهم اغفر لي . فإن لله ساعات لا يرد فيها سائل .  
وقال أبو هريرة : إني لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم ألف مرة ، وذلك على قدر ديني .  
وقالت عائشة : طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً . وروي ذلك مرفوعاً .  
وروي عن حذيفة أنه قال : بحسب المرء من الكذب أن يقول : استغفر الله . ثم يعود .  
وقال الحسن : أكثروا من الاستغفار في بيوتكم ، وعلى موائدكم ، وفي طرقكم ، وفي أسواقكم ، وفي مجالسكم ، وأينما كنتم ، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة .

وحاسب بعضهم نفسه من وقت بلوغه ، فإذا زلاته تجاوز ستاً وثلاثين زلة ، فاستغفر الله لكل زلة مئة ألف مرة ، وصلى لكل زلة ألف ركعة ، وختم في كل ركعة منها ختمة ، وقال : ومع ذلك فإني غير آمن سطوة ربي أن يأخذني بها ، وأنا على خطر من قبول التوبة .

وسمع مطرف رجلاً يقول : استغفر الله وأتوب إليه فتغيض عليه وقال : لعلك لا تفعل .

**ما يستفاد من الحديث :**

- ١ . سعة رحمة الله ، وعظيم عفوه ، وأنه لا ينبغي للعبد أن يتعاضم ذنبه .
- ٢ . الحث على حسن الدعاء ، مع حسن الرجاء .
- ٣ . فضيلة التوحيد ، وأنه من أعظم الأسباب لتكفير الذنوب .
- ٤ . ينبغي على الدعاء إلى الله فتح باب الرجاء للناس .
- ٥ . الرد على الخوارج المكفرين بالكبائر .

**وبهذا يكون هذا الشرح الموجز قد تم بفضل الله وعونه وتوفيقه**

**وأسأل الله أن يكون قد قارنه التوفيق**

**ولا زمه الاخلاص والصدق**

**أمين**

للمراسلة ، والملاحظات بريد الابن تميم الجهني tamim7938@gmail.com